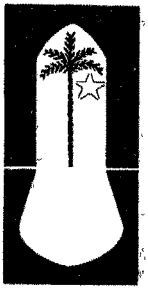

ر رواية

رباعية الإسكندرية

الرواية الثانية

بلتازار

لورانس داريل

Bibliotheca Alexandrina
0024405

ترجمة : د. فخري لبيب

دار سعاد الصباح

الطبعـــة الأولـــى ١٩٩٢
جميع الحقوق محفوظة ©
دار سعـاد الصبـاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفـاة ١٣١٣٣ ـ الكويـت
ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة

رقم الإيداع: ٩٢/٥٤٣١
I.S.B.N 977-09-0103-2

الاشراف الفنى : حلمى التونى

رباعية الأسكندرية

الرواية الثانية

بلتازار

لورانس داريل

ترجمة : د. فخرى لبيب

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

دار سعاد الصباح

إلى أمي

ذكريات مدينة لا تنسى

حاشية

إن شخصيات وأماكن هذه الرواية خيالية تماما ، وكذا شخصية الراوى. وما كان للمدينة إلا أن تكون أقل واقعية من الشخصيات والأماكن . إن هذه الرواية إنما هى شقيقة « جوستين » وليست تابعة لها أو متممة لأحداثها.

إن الأدب الحديث لا يقدم لنا وحدات متكاملة ، ولذا اتجهت إلى العلم محاولا أن أصيغ رواية ذات أسطح ـ أربع ، كما يقوم هيكلها على الفرضية النسبية.

إن ثلاثة أبعاد مكانية وبعدًا زمنيا واحدا تشكل الخلطة المتجانسة لفكرة التواصل . إن الروايات الأربع تسير على نفس هذا النهج .

إن الأجزاء الثلاث الأولى سوف تمتد ، على أى حال ، على إتساع المكان (ومن هنا استخدمت كلمة شقيقة ، لا تابعة ولا متممة) . وهى ليست مترابطة على نحو متسلسل . إنها تتداخل وتتضفر معا فى علاقة مكانية خالصة ، ويظل الزمن واحدا فى ثباته . أما الجزء الرابع وحده فسيمثل الزمن ويكون تتمة حقيقية.

إن علاقة الذات بالموضوع هامة جدا للنسبية ، حتى أننى حاولت معالجة الرواية موضوعيا وذاتيا ، أما الجزء الثالث ، « ماونت أوليف » ، فهى رواية طبيعية مباشرة ، وفيها يتجسد الراوى لكل من جوستين وبلتازار ، أى يصبح شخصية.

إن الأسلوب لا يتفق ومنهاج بروست أو جويس ـ لأنهما يمثلان ، فى وجهة نظرى ، « الديمومة البرجسونية » وليس « المكان والزمان » .

إن المحورالريئسى للكتاب يدور حول استقصاء مناحى الحب الحديث.

إن تلك الأعتبارات قد تبدو متعالية بعض الشىء ، أو حتى تتسم بالتفاخر

والتباهى ،لكنهـا جديرة بمحاولـة التجريب لنرى إن كان فى الإمكـان إكـتشاف صيغة للشكل يمكــن للمـرء أن يسميها « كلاسيكـية » هــذا الزمـان ، حتـى وإن برهــنت النتائــج على أنها تنتمــى إلــى « الخيــال العلمى » بـالمعنى الصحيح .

ل . د

اسكونا ، ١٩٥٧

-١-

تتدرج ألوان الطبيعة من اللون البنى إلى البرونزى ، الأفق شديد الإنحدار، غمامة منخفضة وأرض لؤلؤية تظلها إنعكاسها محارية بنفسجية . غبار الصحراء العاصف : أضرحة الأولياء ، قرب البحيرة العتيقة ، وقد غدت ، عند الغروب ، فى لون الزنك والرصاص . الفوالق الرملية الضخمة وقد بدت من الجو، حول البحيرة ، كحد مد المياه وجزرها ، ويفسح الأخضر والليمونى السبيل لألوان كسبيكه النحاس والقصدير ، وشراع وحيد ، مبتل ، مرتجف ، فى لون البرقوق الداكن : حورية ملبدة الجناح . تابوزيريس ترقد ميتة وسط عمدها ومنائرها المتداعية ، إختفى الصيادون بصناراتهم .. ومريوط هناك ، تحت سماء حارة فى لون السوسن

الصيف : رمال برتقالية صفراء . وسماء رخامية حارة .

الخريف : كدمة منتفخة رمادية الألوان .

الشتاء : جليد متجمد ، رمال باردة.

لوحات لسماء صافية : تلمع بالميكا .

خضرة الدلتا مغسولة

وللنجوم مناظر رائعة .

والربيع ؟ آه ! لا ربيع فى الدلتا هناك ، لا إحساس بانتعاش الأشياء وتجددها. إن المرء ليثب من الشتاء ليغطس فى الصورة الشمعية لصيف حار خانق . إلا أننا هنا ، فى الأسكندرية ، تنقذنا ، على الأقل ، أنفاس البحر الزاحفة فوق حاجز الميناء ، عبر السفن الحربية من ثقل تفاهة صيف ساكن ، فترفرف تندات المقاهى المخططة على إمتداد الكورنيش الطويل. إننى ما كنت لـ.....

* * *

المدينة ، نصف الخيالية (مع أنها حقيقية تماما) ، تبدأ فينا وتنتهى . إن جذورها تكمن فى ذاكرتنا . لماذا يتحتم علىّ أن أعود إليها ليلة بعد أخرى ، أكتب

هنا إلى جوار نار خشب الخروب ، بينما تنقض الرياح الإيجية على هذا المنزل، فى الجزيرة ، تمسك به ، تطلقه ، تثنى أشجار السرو كما تثنى الأقواس . ألم أقل، عن الأسكندرية ، ما يكفى ؟ هل سأسقط ، مرة أخرى ، أسير الحلم بها وبذكرى سكانها ؟ أحلام كنت أظنها قد أودعت ، فى سلام وأمان ، فوق الورق، وقد عهد بها إلى حجرات الذاكرة المنيعة ! قد تظن أنى أترفق بنفسى ، إلا أن الأمر ليس كذلك . إن باعثا عرضيا واحدا قد غيّر كل شىء ، وإرتد بى على عقبى أقتفى آثار قدمىّ . ذكرى تقع أنظارها على ذاتها فى مرآة .

* * *

جوستين ، ميليسا ، كليا .... لقد كنا فى الحقيقة قلة قليلة ـ لابد أننى قد إعتقدت سهولة تناولهم والتعرض لهم فى كتاب واحد ـ إليس كذلك ؟ هذا ما كان علىّ أن أعتقده ، بل وما إعتقدته بالفعل . لقد إنفرط العقد إلى الأبد ، بعد أن بددت الأيام شملنا .

كنت قد أخذت على عاتقى مهمة أن أحييهم بالكلمات ، أن أجدد وجودهم فى الذاكرة ، أن أحدد لكل منهم ، رجلا كان أم امرأة ، مكانه حينما عاصرته . أية إثرة وأية أنانية ـــ لقد أحسست ، عندما اتممت تلك الكتابة ، بأننى قد أغلقت منزل الدمى الذى تسكنه أفعالنا . حقا ، لم أعد أرى أصدقائى وأحبائى كبشر أحياء ، وإنما كصور ملونة ينقلها العقل ، إنها لم تعد تغطى المدينة ، إنها تسكن الأن أوراقى ، كرسوم قماش التطريز المزركش . كان عسيرا علىّ أن أهبهم ، والكلمات التى تناولتهم بها ، أى مزيد من الحقيقة . ما الذى أعادنى إلى صوابى؟

كان ضروريا ، حتى استمر ، أن أرجع إلى الوراء : لا لأننى كتبت عنهم ما هو غير صحيح ، فقد كان ذاك أمرا بعيدا ، ولكن لأن الحقائق كلها لم تكن فى متناولى عندما قمت بالكتابة . كانت الصورة التى رسمتها صورة مؤقتة ، أشبه بصورة حضارة مفقودة ، استدل عليها من حطام زهريات قليلة ، ولوح عليه حفر ونقوش ، وبعض العظام الآدمية وقناع موت ذهبى تعلوه إبتسامة .

يقول بورسواردن ، فى مكان ما ، شيئا من هذا القبيل ، « إننا نعيش حياة

تقوم على أوهـام منتقاة ، تكيف وجهـة نظرنا عن الحقيقـة ، وضعنا فى الـزمان والمكان ـــ لا شخصياتنـا كما ينبغى أن نعتقد . وهكـذا فإن كل تفسير للحقيقة يقوم على وضع وحيد فريد ، وخطوتان إلى الشرق منها أو إلى الغرب تغير معالم الصورة كلها » .

أما بالنسبة للشخصية الإنسانية ، فـلا وجود لمثل تلك الكائنات سواء كانت حقيقـة أم من صنع الخيـال . إن كل نفس . فى حقيقتها ، تل ـــ نمل من ميـول متعارضة. إن الشخصية كشىء محدد الصفـات والسجايا إنما هى وهم ، لكنه وهم ضرورى إن كان علينا أن نحب .

وهنالـك من الأشياء مـا يظل ثابتـا راسخا ، كالقبلـة الخجولـة التى يمكن توقعهـا من ميليسا (كقبلة هاو أشبـه بشكل بدائى للطباعة ، أو تقطيبـة وجه جوستين التى تلقى بظلالها فوق عينيها الـداكنتين المتوهجتين ـ كمحجرى أبو الهول عند الظهيرة . يقول بورسواردن ، «سيتضح ، فى النهاية ، أن كل شىء ، عن كل شخص ، إنما هو شىء حقيقى . القديس والشرير شريكان » . إنه على حق.

إننى إبذل غاية جهدى كى إلتزم الحقيقة .

* * *

كتب بلتازار فى آخر خطاب منه إلىّ ،« أننى كثيرا ما أفكر فيك ، يخالجنى بعض المجـون الحزين . لقـد اعتـزلت فى جـزيـرتك ، ومعك ، كما تعتقـد ، كل الحقائق عنا وعن حياتنا . لابد أن تصـدر الأحكام علينا فوق الورق ، كما يفعل الكتاب . أتمنى لوأرى ما حققت من نتـائج . لا شك أنها سوف تكون بعيدة كل البعد عن الحقيقة : أعنى الحقيقة التى فى مقدورى أن أخبرك بها عنا جميعا ـ بل ربما عن نفسك أيضا . أو الحقـائق التى فى مقدور كليا أن تخبرك بها (إنها الآن فى زيارة إلى باريس ، وقـد توقفت ، مؤخرا ، عن الكتـابة إلىّ) . إننى أتصورك ، أيها الحكيم ، وأنت تمعن النظـر فى كتـاب « عـادات » ومـذكـرات جـوستين ونسيم..... الخ ، متوهما أنك سوف تجد الحقيقة فى ذلك الكتاب والمذكرات . إلا أن هذا خطأ ! خطأ ! ، فالمذكرات هى آخـر مكان تسعى إليه إن رغبت فى البحث

عن حقيقة شخص ما . إن أحدا لا يملك شجاعة الأقدام على أعتراف نهائى عن نفسه ، لنفسه ، فوق الورق : أو ، على الأقل ، عما يخص الحب . هل تعرف من أحبت جوستين حقا ؟ أنت تعتقد أنك ذاك الحبيب . إليس كذلك ؟ قر بذلك واعترف!»

وكانت إجابتى الوحيدة أن أرسلت إليه حزمة الورق الهائلة والتى كانت قد نمت بمشقة شديدة وقلمى المتأنى يخطها ، وتساهلت فأطلقت عليها اسمها كعنوان ـ رغم أنى لو اسميتها « مذكرات » ، لأدى هذا المسمى نفس الغرض . ومرت شهور ، بعد هذا ، فى صمت يبعث فى النفس سعادة حقيقية ، إذ أوحى بأن ناقدى قد إقتنع وصمت .

ليس فى وسعى القول بأنى قد نسيت المدينة ، لقد تركت ذكراها تغفو وتنام، ولكنها يقينا كانت هناك ، معلقة فى خاطرى كالسراب الذى غالبا ما يراه المسافرون. ولقد وصف بورسواردن تلك الظاهرة فيما يلى من كلمات :

« كنا ما نزال نبعد ساعتين من الإبحار قبل أن تصبح رؤية الأرض ممكنة، عندما صاح رفيقى فجأة وهو يشير نحو الأفق . ورأينا سراب المدينة بحجمها الطبيعى منعكسا على صفحة السماء ، كان سرابا مضيئا ، مرتعشا ، وكأنه نقش على حرير مترب ، ورغم ذلك كان رائع التفاصيل . فى مقدور ذاكرتى تحديد ملامحها بوضوح : قصر رأس التين ، جامع النبى دانيال وهلم جرا . كانت الصورة ، فى مجملها ، تأخذ بالألباب ، وكأنها تحفة رسمت بالندى الصافى . لقد علقت هناك ، فى السماء ، فترة من الوقت ، ربما خمس وعشرون دقيقة ، قبل أن تذوب ببطئ فى ضباب الأفق . وظهرت المدينة الحقيقية بعد ساعة . كانت تعلو وترتفع من بقعة محدودة إلى حجم سرابها » .

* * *

كان فصلا الشتاء أو فصوله الثلاث ، التى قضيناها فى الجزيرة ، فصولا تتسم بالانقطاع والعزلة ـ فصول شتاء جهمة تكنسها الرياح ، وفصول صيف ساخن . والطفلة ، لحسن الحظ ، أصغر من أن تفتقد الحاجة إلى الكتب أو الحديث كما أفتقدهما . إنها فرحة نشطة .

وتأتى أيام الربيع طويلة مفعمة بالسكينة ، أيام بلا أمواج ولا أريج ، أيام

الإلهام . ويروض البحر نفسه ويصبح فى حالة من اليقظة . وعما قريب سوف تقرع حشرات السيكاردا موسيقاها ، مشكلة خلفية تصاحب نای الراعى القابع هنالك بين الصخور ـ إن السحلية والسلحفاة الحابية ، وحدهما ، هما رفاق وحدتنا .

سفينة البريد القادمة من أزمير هى زائرنا الوحيد الذى يأتينا ، من العالم الخارجى ، كل أسبوع ـــ إنها تعبر الجرف مبحرة نحو الجنوب . تأتى دوما بنفس السرعة ، وفى نفس الموعد بعد أن يحل الغسق مباشرة . وفى الشتاء تداريها الأمواج العالية والرياح .

إنى أجلس ، الآن ، فى إنتظارها . إنك لا تسمع ، فى البداية ، غير صوت الماكينات كقرع الطبول ، ثم ينزلق الكائن حول الرأس ، يشق طريقه الحريرى قدما ، ساطع الأضواء عبر ظلام ليل بحرايجه الناعم الدامس ، بلا معالم محددة، أشبه بسحابة من يراعات مضيئة . ثم يرحل سريعا ، يختفى حول الجرف التالى ، لا يترك وراءه من أثر غير بقية أغنية شعبية شائعة أو قشرة يوسفى أعثر عليها ، فى اليوم التالى ، مغسولة فوق حصى الشاطئ الممتد طويلا، حيث استحم أنا والطفلة .

التكعيبة الصغيرة التى يظللها نبات الغار الوردى توجد أسفل السهل حيث غرفة مكتبى . أننى أجلس هنا ، وقد أوت الطفلة إلى فراشها ، إلى طاولة عتيقة صبغتها مياه البحر ، أنتظر الزائر ، وأنا عازف عن إشعال مصباح الزيت ، قبل مروره . إنه اليوم الوحيد الذى أعرف اسمه فى هذا المكان . إنه يوم الخميس. يبدو الأمر ، هكذا ، نوعا من السخف أو الحماقة ، إلا أننى فى جزيرة خالية من أى تغيير أو تنوع : أنتظر الزيارة الأسبوعية كما ينتظر الطفل نزهة مدرسية خلوية . أننى أعرف أن القارب يحمل رسائل لى ، لعلنى أنتظرها منذ أربع وعشرين ساعة ، إلا أننى ، دوما ، ما أن أرى تلك السفينة الصغيرة تختفى عن ناظرى ، حتى ينتابنى الأسى . اشعل المصباح ، بعد مرورها ، أتنهد فى حسرة وأعود إلى أوراقى . إننى بطئ للغاية وأنا أكتب فى ظل هذا العذاب . لقد أخبرنى بورسواردن، ذات مرة ، وكان يتحدث عن الكتابة ، إن الألم الذى يصاحب التأليف ، إنما يرجع ، كلية ، عند الفنانين إلى الخوف ، الخوف من الجنون .

«إقهـر ألمك . قل لنفسك أنك لن تبالى البتـة إن جننت بـالفعل ، وحينئذ سـوف تواتيك الكتابة على نحـو أسرع ، سوف تحطم الحاجز » . (إننى لا أدرى مدى صدق هـذا كله . إلا أن المال الذى تركـه لى فى وصيته قد أفـادنى كثيرا . لم يزل معى بضع جنيهات تحول بينى وبين شيطان الدَين أو العمل) .

إننى أصف هـذا التغير الأسبـوعى فى أسهـاب ، نوعـا مـا ، ففى إطـار تلك الصورة أقحم بلتـازار نفسه ، ـ ذات مسـاء فى شهر يونيـو ، بطريقة مفـاجئة أثـارت دهشتى ـــ كنت أوشك أن اكتب « أصـابتنى بـالصمم » ، إلا أننى كتبت «أثارت دهشتى » ـــ حيث لا يوجـد هنا من يبـادله المرء الحديث . لقـد وقع هذا المسـاء شىء أقرب إلى المعجـزة ، إذ بدلا من أن تختفى السفينـة الصغيرة ، كما إعتادت ، استدارت فى قوس مداه مائة وخمسين درجة ، ثم ولجت المياه الضحلة، حيث قبعت فى شرنقـة من ضيـاء ، نـاعمـة كـالفـراء ، والقت فى بطء بسلسلـة مرسـاتها الطويلـة ، فى قلب البركة الـذهبية التى صنعتهـا ، فبدت كبـاحث عن الحقيقة . كان للمنظر وقعه علىّ ، وقد إنقطعت سجين الروح ، كحال كل الكتاب ـــ لقد غـدوت ، حقيقـة ، كسفينة فى قنينـة لا تبحـر البتـة ـ وراقبت السفينـة الراسيـة، كما لابد راقب هندى أول قـارب ، بلغ شطئان العـالم الجديد ، يحمل رجلا أبيضا .

ومـزقت أصوات طبطبـة المجـاديف غير المنتظمة حجب الصمت والظـلام . ومضى زمن كالدهر . ثم إرتفعت خشخشة أقدام تنتعل حذاءٍ من المدينة فوق الحصباء . وعـلا صوت أجش يحدد اتجاهـا ما ، ثم ران الصمت . وإذ أشعلت المصباح وسـويت ذبالته كى إعتق نفسى من إسـار هذا التحول عما اعتـدته ، تجسد أمامى وسـط أغصان الآس وجه صديقى وقورًا أسمـرًا ، أقرب إلى شبح الماعز الآتـى من العالم السفلى . وحبس كل منـا إنفاسـه وقد وقفنـا ، فى الضوء الشـاحب ، يبتسم الـواحد منـا لـلآخـر . وضحك بلتازار بخصـلات شعـره الأشوريـة ، وذقنه الشبيهة بذقن الإلـه « بان » * ، وهـو يقول ، «كـلا ، إننى حقيقى » . وتعانقنا فـى ضراوة . إنـه بلتازار !.

---

* « بان » إله الرعاة (المترجم)

البحر المتوسط بحـر صغير للغاية . إن عظمته وإمتداد تـاريخه يجعلاننا نتخيله أكبر ممـا هو عليـه حقا . إلا أن الأسكدريـة الراقـدة عـلى بعـد مئـات الأميال البحـرية من هنا إلى الجنـوب ، لايقل واقعها ، فى الحقيقة ، عمـا يمكـن تخيله عنها.

قال بلتازار « إننى فى طـريقى إلى أزمير ، حيث كنت سأرسل لك ، هذه ، من هناك بـالبريد ». ووضـع فوق المنضـدة ، المليئة بـالخدوش ، حزمـة المخطوط الضـخم الذى كنت قد أرسلته إليه . لقد غدت الأوراق ، الآن ، ذابلة مرصعة بقدر كثيف من العبارات والفقرات وعـلامات الاستفهام ، فيما بين السطور . وجلس بلتازار قبالتى بـذلك الجو الشيطانى الذى يحيط بـه نفسه ، وقال ، مترددا ، فى نغمة خفيضة :

« لقد جادلت نفسى طـويلا ، طويلا ، إن كنت أخبرك ببعض مـا دونته هنا . لقد بدا لى ذلك ، فى بعض الأحيان ، رعونـة منى وسفاهة . إلا أنه رغم كل شىء : هل كان إهتمامك بنـا كبشر حقيقيين ، أم « كشـخصيات روائية » ؟ مـا عرفت ذلك ، ومازلت لا أعرفه . إن هذه الصفحات يمكن أن تفقدنى صداقتك ، دون أن تضيف شيئا إلى مجمل معرفتك . لقد كنت ترسم المدينـة ، لمسة إثر لمسة ، فوق سطح منحنى ـ هل كان قصدك الشعـر أم الحقيقة ؟ إن كانت الأخيرة ، فهنالك أمور من حقك أن تعلمها » .

لم يكن قد أوضح لى ، بعد ، كيف ظهوره المذهل أمامى . كان مهموما للغاية، بالمغـزى الرئيسى لزيـارته . وقد أدرك ذلك ، الآن ، بعـد أن لاحظ حيرتى ، وأنا أتأمل سحابة اليراعات المضيئة القابعة فى الخليج الذى إعتاد أن يكون مهجورا ، فإبتسم :

« ستتأخـر السفينة بضع ساعـات بسبب خلل فى الماكينة . إنها واحـدة من سفن نسيم ، يقودها هاسيم كحلى ، إنه صـديق قديم . لعلك تتذكره ؟ لا اعتقد . حسنا ، لقـد خمنت من وصفك ، مكان إقامتك ، على وجه التقـريب . لكننى، أقر واعترف ، أننى ما كنت أتوقع أن أرسـو على عتبة دارك هكذا » . ثم ضحك . وكم كان رائعا أن اسمع ضـحكته مرة أخرى .

إلا أننى بـالكـاد كنت أسمعـــه . لقـد أوقعتنى كلماتـه فى لجة الإضطـراب،

وإنتابتنى الرغبة فى دراسة ما كتبه بين السطور ، وأن أراجع ، ليس كتابى (والذى لم يكن له لدى أدنى أهمية حيث أنه لن ينشر أبدًا) . ولكن رؤيتى للمدينة وسكانها . فإسكندريتى قد غدت ، وأنا فى كل هذه العزلة والوحدة ، عزيزة علىّ ، معزة فلسفة تأمل الذات ، بل تكاد معزتها أن تكون هوسًا . كانت نفسى تفيض بالعواطف حتى أننى لم أدرى ماذا أقول له . قلت،« إبقى معنا يابلتازار ، إبقى معنا ولو قليلا .... » .

قال ، « سوف نغادر خلال ساعتين » . ثم ربت على الأوراق أمامه وهو يضيف فى غموض ، « ربما أمدتك تلك الأوراق بالرؤية والحمية » .

قلت، « أننى لا أطمع فى شىء أفضل من ذاك » .

قال ، « إننا ـ نحن الذين مانزال أحياء ـ بشر حقيقيون ، مهما حاولت أن تفعل بنا . أما ميليسا وبورسواردن فلم يعد فى مقدورهما أن يجيبا عليك ، فقد فارقا الحياة . هذا ، على الأقل ، ما يعتقد به المرء » .

« إن ما يعتقد به المرء ، هو أن أفضل الإجابات تأتى ، دوما ، من وراء القبور».

وجلسنا . بدأنا نتحدث عن الماضى ، لكن فى جفاء وفتور . كان قد تناول عشاءه على ظهر السفينة ، ولم يكن لدى ما أقدمه له غير زجاجة من نبيذ الجزيرة الذى يتصف بالجودة ، والذى أخذ يرتشفه فى بطء . ثم طلب منى ، فيما بعد ، أن أريه ابنة ميليسا . فقدته إلى الخلف عبر أشجار الدفل ، وقد تجمعت فى عناقيد ، إلى مكان يمكننا منه أن نرى الغرفة الكبيرة المضاءة ، حيث ترقد الطفلة جميلة وقورة ، وقد نامت وإبهامها فى فمها . ولانت عينا بلتازار القاسيتين الداكنتين ، بينما كان يراقبها وهى تتنفس فى رقة . ثم قال فى صوت خفيض ، «إن نسيم سيرغب فى رؤيتها يوما ما ، فى القريب العاجل . تذكر ما أقول . لقد أخذ يتحدث عنها فى فضول . إنه يتقدم فى العمر ، يحس الحاجة إلى عونها ـ تذكر كلماتى » . ثم إقتبس ، نقلا عن اليونانية ، « يتسلق الصغار ، فى البداية ، ركائز كبارهم ، فى بطء ، كما تتسلق الفروع الكرمة . إن الكبار يحسون بإصابعهم ، تمسك بهم ، ناعمة ورقيقة . ثم ينحدر الكبار على أجساد الشباب ، التى تدعمهم ، تسندهم ، إلى حيث ميتاتهم اللائقة بهم » . ولم أقل شيئا .

كانت الحجرة ـ لا أجسادنا ـ هى التى تتنفس الآن .

قال بلتازار ، « لقد كنت وحيدا هنا » .

« لكنها وحدة محببة رائعة » .

« حقا ، إننى ، صادقا ، أغبطك عليها » .

والتقطت عيناه ، حينئذ ، لوحه وجه جوستين ، التى لم تكن قد إكتملت بعد، والتى كانت كليا قد منحتها لى فى ظروف غير تلك الظروف .

قال بلتازار . « تلك اللوحة ، قوطعت ، أثناء رسمها ، بقبلة . ما أطيب أن يراها الإنسان مرة أخرى ـ ما أطيب ذلك » . وابتسم . « إنها أشبه بسماع جملة موسيقية ، مألوفة ومحببة ، تحمل المرء إلى أفاق عاطفة ، يود ، دوما ، إستعادتها دون أن يصيبه الوهن » . ولم أقل شيئا ، وما جرؤت أن أقول شيئا .

واستدار إلىّ متسائلا ، « وماذا عن كليا ؟ » قالها أخيرا فى صوت كمن يستنطق صدى . قلت ، « لم اسمع عنها شيئا منذ دهور .لا حساب للزمن هنا . إننى أتوقع لها أن تكون قد تزوجت ، نزحت إلى بلد آخر ، ورزقت أطفالا ، وغدت رسامة مشهورة .. تكون قد حققت كل ما يتمناه المرء لها ».

نظر إلىّ نظرة غريبة ، وهو يهز رأسه ، ثم قال ، « كلا » . وكان ذلك كل ما نطق به .

كان قد إنقضى كثير وقت منذ منتصف الليل ، عندما ناداه البحارة من بين أكمات الزيتون الداكنة . ومشيت معه إلى الشاطئ ، أحسن الأسى وهو يغادرنى سريعا هكذا . كان هنالك زورق فى إنتظاره ، عند حافة الماء ، وبحار يقف ممسكا بمجدافيه . قال شيئا بالعربية .

كان بحر الربيع دافئا ، يثير الإغراء ، بعد أن سطعت عليه الشمس طوال اليوم . وتملكتنى رغبة طارئة ، بينما يلج بلتازار القارب ، أن أسبح معه حتى السفينة التى كانت ترقد على مسافة تقل عن مائتى ياردة من الشاطئ . وهذا ما فعلت بالفعل . ثم تلكأت أرقبه وهو يتسلق الحاجز ، والقارب يسحب إلى أعلى . ونادى بلتازار قائلا ، «حذار أن يمسك بك هلب السفينة . عد إلى الوراء قبل أن تبدأ المحركات عملها» . . قلت ، « سأفعل » قال ، « إنتظر » ثم إرتد إلى حجرته فى

السفينة ليعود إلى الظهور ، ليلقى بشىء ما فى المياه ، سقط إلى جوارى ، فأحدث طرطشة ناعمة . قال ، « إنها وردة من الأسكندرية من المدينة التى يوجد بها كل شىء ما عدا السعادة التى يجب أن تقدمها لعشاقها » . وقهقه قائلا ، «إعطها للطفلة ».

« وداعا بلتازار »

« أكتب لى إن جرؤت على ذلك ! » .

وأخذت ألوح له ويلوح لى ، بينما أمسكت بى ، كالعنكبوت ، شباك الأضواء المتقاطعة ، وأنا استدير نحو تلك البرك الشاحبة التى ترقد بينى وبين الشاطئ المظلم .

ووضعت الوردة الثمينة بين أسنانى، وأنا أسبح عائدا إلى ملابسى ، حيث تركتها فوق الشاطئ الملىء بالحصى ، وأنا اتحدث إلى نفسى .

هنالك فوق المنضدة ، فى ضوء المصباح الشاحب ، رقدت حزمة المخطوط، المليئة بما بين السطور ـ والتى كنت قد اسميتها « جوستين » .

كانت مليئة بالخدوش والخطوط المتقاطعة ، مرصعة بالأسئلة والأجوبة بمختلف ألوان الأحبار ، بحروف كالطباعة الخطية . وبدت لى ، حينئذ ، وكأنها رموز ما ، للحقيقة ذاتها التى عشناها معا ـ صفحة ترك كل منا ، آثاره أو أثارها الشخصية فوقها ، طبقة فوق طبقة .

هل يتوجب علىّ أن أرى ، الآن ، كل شىء بعينين جديدتين ؟ أن أعتاد الحقائق التى أضافها بلتازار ؟ من المحال أن أصف الأحاسيس التى قرأت بها كلماته ـ والتى هى مرسلة أحيانا ، مقتضبة للغاية أحيانا أخرى . إنه يضع ، على سبيل المثال ، فى القائمة التى عنوتها بـ «بعض المغالطات وسوء الفهم»، أشياء يتناولها بلا إكتراث ، حيث قال ، « رقم ٤ . القول بأن جوستين قد «أحبتك» . إن جوستين ، لو كانت قد « أحبت» أحدًا ، فهى قد أحبت بورسواردن. «ماذا يعنى ذلك ؟ » . يعنى أنها كانت مجبرة على إستخدامك كطعم حتى تحميه، هو ، من غيرة نسيم الذى كانت قد تزوجته . ولم يكن بورسواردن ، نفسه ،مباليا بها البتة ـ يا لهذا المنطق الأسمى للحب !» .

وإنتصبت المدينة ، مرة أخرى ، فى خيالى ، تواجه المرآه المسطحة للبحيرة

الخضراء ، وكتل الأحجار الرملية المحطمة تحد طرف الصحراء . رأيت ألوان الحب وحبائل الشهوة ، الخير والشر ، الفضيلة و الشذوذ ، الود والقتل ، تتحرك جميعها ، بطريقة مبهمة ، فى إركان شوارع الأسكندرية وميادينها المظلمة ، فى المواخير وقاعات الإستقبال ـ تتحرك كمجموعة كبيرة من ثعابين الماء تسبح فى حماة المكيدة والمكيدة المضادة .

كاد الفجر أن يبزغ قبل أن أتخلى عن كومة الأوراق ، التى تخلب الألباب، بما عليها من تعليقات تدور حول حياتى الحقيقية ، حياتى (الداخلية) . وترنحت كالسكران إلى فراشى ، وقد أصاب الصداع رأسى الذى كان يدوى بأصداء المدينة الوحيدة التى يمكن فيها لكل العادات والأجناس ، مهما تباينت أن تلتقى وتتزواج ، وحيث تتقاطع كل المصائر . وبينما استسلم للنوم، كنت اسمع صوت صديقى جافا وهو يكرر ويعيد ما يقول ، « ما مدى اهتمامك بأن تعرف..... ما مدى إهتمامك بأن تعرف ؟ » . وأنا أجيبه فى أحلامى : « يجب أن أعرف كل شىء : حتى يمكننى أن أخلص ، أخيرا ، من المدينة » .

* * *

قالت كليا لبلتازار ، ذات مرة ، «عندما تقطف وردة ، فإن الغصن يضمد موضعها. إلا أن ذلك ، ليس حقيقيا ، إن تعلق الأمر بما للقلب من عواطف » .

* * *

وهكذا دفعت بطيئا وعلى مضض إلى حيث بدايتى . كنت كرجل قيل له عند نهاية رحلة هائلة أنه كان يسير وهو نائم . لقد قال لى بلتازار ، ذات مرة ، وهو يمخط فى جورب تنس قديم ، « إن الحقيقة تناقض نفسها ، مع الزمن ، أشد التناقض».

كما قال لى بورسواردن فى مناسبة ، أخرى ، مشهورة ، « إن كانت الأمور ، دوما ، كما تبدو فى ظاهرها ، فما أفقر خيال الإنسان » .

كيف يمكننى أن خلـص نفسى من هـــذه البغى بين المدن (*) ـ بحـرها ، صحراؤها، مآذنها ، رمالها وبحرها ؟

كلا ، يجب أن أدونها جميعا بالأسود والأبيض ، حتى يأتى ذاك الزمان التى تستنفد فيـه حافزها وذكـراها . إننى أعلم أن المفتاح الذى أحـاول إدراته ، إنما يكمن فى أعماقى .

* * *

(*) فى أماكن أخرى يقول الكاتب شعرًا فى حب الأسكندرية .

-٢-

إعتاد كـابود يستريا أن يدعـونا ، فى تلك الأيام بـالحواريين . كنا نجتمع ، فى الصباح الباكر ، لنحلـق ذقوننا فى صالون منمجيان ، بمـراياه ونخيله وستائره المصنوعة من حبات الخرز . كانت المياه الـرائقة الدافئة والكتان الأبيض تتماثل تماثلاً ، يثير الدهشة، وعملية تجهيز الجثث ومسحها بالزيت . كان الأحدب ذو العينين البنفسجيتين يقـوم على خدمتنـا بنفسـه ، فقد كنـا زبـائن لنـا قدرنـا (كفـراعنـة موتـى فى حمامات النطـرون ، وقـد أزيحت أحشـاؤهم وأمخاخهم لتجديدها واستبدالها). كـان الحلاق نفسه غير حليق ، فى غالب الأحيان ، حيث كان يحضر إلى الصالون مسرعا من المستشفى ، بعد أن يكون قد حلق ذقن جثة من الجثث . كنا نلتقى ، لفترة وجيـزة ، جلوسـاً على المقاعد ذات الحشـايا ، وفى المرايا ، قبل أن نفترق إلى أعمالنـا المختلفة ـ داكابـو ليقابل سماسرته ، بـومبال ليهرول إلى القنصلية الفرنسية (وقد إلتهب فمه كالحريق ، تتملكه وخمة السكر وأحسـاس بأنـه قـد قضى الليل بطـوله سـائرا على مقلتيـه) . وأذهب أنـا إلى التدريس وسكوبى إلى مركز الشرطة . وهكذا ....

إن فى حوزتى ، فى مكان ما ،صورة لطقوس مثل هذا الصباح ، بهتت ألوانها. لقد أخذها لنا جون كيتس مراسل الوكالة العالمية المسكين . إنها تبدو غريبة عند النظر إليهـا الآن ، إذ تفوح منهـا رائحة الأكفان . . إنها صـورة ناطقـة لصباح سكنـدرى ربيعى : صـوت الاحتكـاك الهادئ لـدقـات طحن البن ، والنـداءات المتخثـرة لحمامـات سمان . إننى أتعـرف على أصـدقـائى من الأصـوات التى يطلقونها : إن «كواتش» و«بواف» من اللوازم المميزة لكابوديستريا ، عند سماعه تعليقـاً سياسيـاً ، ثم يتبعها بتلك القهقهـة التى تشبـه تجشؤ معـدة معدنيـة، وسعال سكوبى «توش ، توش» بسبب التـدخين ، و«تيانز» الناعمة التى تصدر عن بومبال ، وكأن شخصا يطرق مثلثا ـ «تيانز» .

وها أنـا ذا هناك فى أحـد الأركان ، فى معطف الشتـاء الرث ـــ الصورة المثلى لـواحد من المدرسين ، وقـد جلس تـوتو بـرونيل ، المسكين الضئيل ، فى الـركن الآخر. لقد تصيدته لقطة كيتس الفوتوغرافية بينما كان يرفع إصبعاً به خاتم إلى صدغه ـ ذلك الصدغ القاتل .

توتو ! إنه شخص «غريب الأطوار ، إنه نمرة» (*) . إن ملامحه ذابلة ، أشبه بملامح ساحرة . وعيناه بنيتان ، كعينى صبى صغير ، وقمة رأسه أشبه برأس أرملة ، وابتسـامته الغـريبة تبـدو كتلك المرسومـة فى «الفن الحديث» (*) . إنه معشوق مجتمع النساء اللـواتى يتعالين على الـرجال الذين يعيشـون على مال النساء . كانت تدعوه (مدام أو مبادا) ، «توتو ، هو ذا أنت ، يا كرنبتى !» (*) . أما (أثينا تراشا) ، «كم هو ساحر وجذاب . ذلكم هو توتو» (*) . كان يعيش على تلك الكسرات الجافة من الاستحسان . إنه رجل النساء المسنات ، وقد أخذت غمازتا خديه تغـوران ، يوما بعد يـوم ، فى جلد وجهه المتغضن الذى لا يظهـر عليه أثر السنين . كان سعيداً جداً كما أعتقد . نعم ، كان سعيداً للغاية .

«كيف حالك ـ يا توتو؟» ـ «إننى سعيد لرؤياك ، يا مدام مارتيننجو!» (*).

كان كما أسماه بـومبال مـزدريا ، «جنتلمان من المرتبـة الثانيـة المنحطة» . كانت إبتسامتـه تحفر للمرء قبره ، وكان لطفـه كالمخدر . كانت ثـروته ضئيلة ، كما كان شطحه نزيراً ، لكنه ، رغم ذلك ، كان يشق طريقه فى الوسط الإجتماعى. لم يكن هنالك ، كما أعتقد ، ما يمكن فعله معه ، لأنه كان إمرأة : ومع ذلك ، فإنه لـو ولد إمـرأة ، بالفعل ، لبكى نفسـه طـويلاً حتى إنهار وتـداعى . كان يفتقـد السحر والفتنة ، إلا أنـه كان لوطياً مما كـان يمنحه نوعاً من الأهميـة المحرمة . «إنه رجل خدوم ، إنه رجل ظريف» (*) (هكذا قال الكونت بانوبولا ، والجنرال سيرفونى ـ ماذا يريد المرء أكثر من ذلك؟) .

لم يكن مرحـاً ، لكنه إكتشف ، ذات يوم ، أنه يستطيع إضحـاك الناس حتى تنشق جنوبهم . كـان يتحدث الإنجليـزية والفـرنسية ، بين بين ، لكنـه كان إن

(*) بالفرنسية فى الأصل .

إفتقر إلى كلمة ، وضع مكانها كلمة أخرى لا يعرف معناها . وكان هذا الاستبدال العجيب يثير البهجة فى غالب الأحوال . وغدا ذلك هو مسلكه الشخصى الذى يتميز به ، حتى كاد يبلغ،فى هذا المضمار ، حد الشعر ـ كما جاء فى بعض أقواله، «إنطلق اليوم بعض الذِبـاب من آلتى الكاتبة» أو «إن السيارة اليـوم مثقوبة» أو «لقد جريت سريعاً حتى غدوت كقشرة الرأس» . كان فى مقدوره أن يفعل ذلك فى لغات ثلاث ، مما كان يعفيه من تعلم تلك اللغات . كان يتكلم لغة خاصة به ، لغة توتو.

ووقف كيتس ، فى ذاك الصباح ، خلف عـدساته ـــ إنه من النوع الـذى يرى العالم فيه رجـلاً طيبا ـ خال من كل نـوايا الشر . كانت تفوح منـه رائحة عرق خفيف . إنها لازمة من لوازم الحرفة (*) . لقد رغب يومـا فى أن يكون كاتبا ، إلا أنـه أخطأ الطريق . وقـد دربتـه مهنتـه ، الآن ، على أن يظل فوق سطح الحيـاة الحقيقية (الأفعـال وحقائق عـن الأفعال) . ونمت فيـه حاسة الـوسوسـة التى يتصف بها الصحفيـون(وهم يهدأون تلك الحاسـة بشرب الخمـر) : إنـه ذلك الشعور بأن شيئاً ما قد حدث ، أو أنه أوشك على الحدوث ، فى الشارع المجاور ، إلا أنهم لن يعرفوا به إلا بعد فوات أوان «إرساله». إن هذا الخوف الذى يعشعش فى أعماقه ، من أن يفقد كسرة من الحقيقة ، يعلم مقدما أنها تافهة ، بل وحتى بلا معنى ، قد أسبغ على صديقنا ذلك التقلص التقليـدى فى عضلات الوجه ، والذى يراه المرء عند الاطفـال الذين تحل بهم الحاجة للذهاب إلى دورة الميـاه ـ الحركة القلقة فوق المقعـد ، وضم الأرجل متقاطعة ثم إبعادها عن بعضهـا . كان ما أن يقضى ، فى الحديث ، معنا بضع لحظات ، حتى يهب واقفاً ، فى عصبيته ، قائلاً : «لقد نسيت شيئـاً ما ـــ لـن أتغيب أكثـر مـن دقيقـة» . وفـى الشـارع ، كـان يقذف بأنفاسـه ليحظى بالراحة . ما كـان يمضى ، البتة ، بعيداً ، لكنه ، فـى بســاطــة، كـان يسير حـول المبنى ليهـدأ قلقـه . كل شىء كـان يبـدو طبيعياً إلى حد اليقين ، إلا أنه كان يتساءل : إن كان من الأنسب أن يتصل هاتفياً بمحمـود بـاشا ، بشأن تقـديـرات الـدفـاع ، أم ينتظر حتى الصبـاح ... كـان

(*) بالفرنسية فى الأصل

جيبه مليئاً بحبات الفول السودانى ، التى كان يفرقعها بين أسنانه ، ثم يعود فيبصقها ، وهو يحس القلق والإضطراب دون أن يدرى لذلك سبباً . كان بعد أن يسير ، يعود إلى المقهى أو دكان الحلاق ، يخب فى مشيته وعلى وجهه ابتسامة خجلة معتذرة : كان «رجل وكالة الأنباء» ، الذى يقدم أفضل نموذج ، حديث ، للتكامل والتوحد . كان لا يعيبه شيئا غير المستوى الذى اختار أن يحياه ـ إلا أنه فى وسعك أن تقول نفس الشىء على سميه المشهور . هل فى مقدورك أن تقول غير ذاك ؟

إننى مدين له بهذه الصورة باهتة الألوان . أى ولع جنونى هذا ، بتخليد وتسجيل وتصوير كل شىء ! إننى اعتقد أن ذاك الولع إنما يرجع إلى شعور بأنك لا تستمتع بالكامل بأى شىء ، وإن كنت تنتزع ، حقا ، نضارته مع كل نفس من أنفاسك . كانت «إضباراته» هائلة زاخرة ، تنتفخ بما إحتوت من قوائم الطعام المهورة وأطواق السيجار التذكارية وطوابع البريد والبطاقات المصورة.... ولقد أثبتت تلك الاضبارات نفعها ، فيما بعد ، حيث كان قد إقتنص، على نحو ما ، بعض ما دونه بورسواردن من ملاحظات عابرة .

وفى أقصى أقصى يمين الصورة ، كان يجلس بومبال العجوز الطيب بكرشه الكبير ، وإنتفاخ تحت كل عين من عينيه ، أشبه بحقيبة دبلوماسية حقيقية . كان كل ما يشغل باله، هو خشيته من أن يفقد وظيفته أو أن يصبح عنيناً : وهو ذات الهم القومى ، الذى يثير قلق كل فرنسى منذ جان دارك . كثيراً ما كنا نتشاجر ، لكن فى ود ومحبة ، حيث كنا نتقاسم شقته الصغيرة ، المليئة ، دوماً ، بتفاهات لا قيمة لها ، وتفاهات أكثر قيمة : النساء (*) . إلا أنه صديق طيب ، رقيق القلب ، يحب النساء حقاً . عندما كنت أصاب بالأرق أو المرض ، كان يقول لى بطريقة ودودة حانية ، «هل أنت بخير ؟» (*) ، «اسمع ، هل تحتاج إلى مسكن من الاسبرين؟» (*) . أو كان يقول ، «لا عليك . توجد ، إن شئت ، رفيقة صبية فى غرفتى» (*) . (ليست تلك غلطة مطبعية : كان بومبال يسمى كل فتيات الهوى بـ «السيدات الصبيات») . «ما قولك ؟ إن شكلها لا بأس به ـ

(*) بالفرنسية فى الأصل

والأتعاب مدفوعة يا عزيزى . إننى أشعر ، هـذا الصباح . بشىء مـن العداء للمرأة ـ شد ما مللتهن . ما رأيك؟» (*) . كانت التخمة تمسك به فى مثل تلك الأوقات . كان يقول وهو يدير عينه ، تلك ، المضحكة ، «أحس أن داء أكل لحوم البشر يتمكن منى ، يوماً بعد يوم». كانت وظيفته أيضاً تثير قلقه . فقد غدت سمعته سيئة ، إلى حد ما ، وقد بدأ الناس يتحدثون عنه ، خاصة بعد ما يسميه هو ، «مسألة سفيفا» (*) وبالأمس دخل عليه القنصل العام ، بينما كان ينظف حذاءه بستائر القنصلية ... «مسيو بومبال ، أجدنى مضطراً لتوجيه بعض الملاحظات حول سلوكك الوظيفى» (*) أف ! . كان ذلك تقريعا من الدرجة الأولى.

إن هذا الـذى حدث ، يفسر لماذا يجلس بومبـال الآن ، فى الصورة ، يجتر كل ذلك ، وقد كسـى الغم تعابير وجهه . كـانت هنالك ، مـؤخراً ، جفـوة فيما بيننا بسبب ميليسا . كان غاضباً منى لأنى وقعت فى حبها . كان يراها مجرد راقصة فى ملهى ليلى . وهى لهذا غير جـديرة بأى إهتمام جـاد . كـانت هنالك ، أيضـاً ، مسألة شعـوره بالصلف والكبرياء ، حيث كانت ، فى واقع الأمـر ، تعيش معنا ، الآن ، فى الشقة . وكان يحس أن ذلـك يحط من قـدره ومقامه ، وربمـا ، أيضاً ، يفتـقد الحكمة من وجهة النظـر الدبلوماسية .

كان تـوتو يقول ، «الحب حفـرية سائلة» ـــ إنها نكتة ساخـرة تناسب كل الضمائر . إذ لـو وقع المرء فى حب زوجـة رجل من رجـال البنـوك ، فـذلك أمـر مغتفر، وإن كان مثيراً للسـخرية ... أم أنه ليس كـذلك ؟ فالناس فى الأسكندرية يعجبـون ، حتى الأعماق ، بالمكيـدة لـذاتها ، لكن وقوع المرء فى الحب ، يضعـه موضع السـخرية فى المجتمع (إن بومبال قروى فى أعماقه) . إننى أفكر فيما كانت عليـه ميليسا من سكينـة ووقـار هائلين وهى فى رقـدة الموت . كـان جسدهـا النحيل ، مقمطا ، ملفوفاً بالأقمشة ، وكأنها قد تعرضت لحادثة أجهزت عليها ، فلا براء منها ولا شفاء . حسنا .

وجوستين ؟ لقد قوطع رسم اللوحة التى كانت ترسمها لها كلياً بقبلة ، كما

(*) بالفرنسية فى الأصل

يقول بلتازار، فى ذات اليـوم الذى أخذت فيه هـذه الصورة . كيف يمكننى جعل ذلك مفهوماً ، بينما لا استطيع إستعادة هذه المشاهد الا بمثل كل تلك الصعوبة. يجب ، كما يبدو ، محاولـة رؤية جوستين جـديدة ، بـورسواردن جديـد وكليا جديـدة ... أعنى أنه يجب أن أحاول ، وأن أمزق ذاك الغشـاء المعتم الذى يحول بينى وبين حقيقة أفعالهم ـ والذى أعتقـد أنه من نسج رؤياى القاصرة وطبيعة مـزاجى . ان حسـدى لبورسـواردن وعـاطفتى نحو جـوستين واشفـاقى على ميليسا ، كانت كلها مرايا شوهتهم جميعاً . إن سبيل المعرفة يجب أن يكون عبر الحقيقـة . يجب أن أدون المزيد ممـا أعرف ، وأحـاول أن أجعلـه مفهومـاً لى أو معقولا ، بفعل من أفعال الخيال ، إن لـزم الأمر ذلك . أم هل يمكن ترك الحقائق لذاتها ؟ هل يمكن أن تقول : «لقـد وقع فى الحب» أو لقد «وقعت فى الحب» ، دون محاولة التكهن بما يعنيه ذلك ؟ لقد قال بومبال ، ذات مرة ، عن جوستين ، «تلك الكلبة . إنها ، على مـا يبدو ، سـاخنة ، وقـد تكيفت مع الجو» (*) . كما قال عن ميليسا ، «إنها ، أيا كانت ، غانية مسكينة ضائعة» (*) . ربما كان محقاً فيما قال، إلا أن المعنى الحقيقى لكلماته يكمن مستقـراً فى مكان آخر . إنـه هنا ، كما آمل ، فوق تلك الأوراق ، المليئة بالشخبطة ، والتى نسجتهـا ، كالعنكبوت ، من حياتى الداخلية .

وسكوبى ؟ حسنا . إنه يمكن ، على الأقل ، فهمه كما يفهم الرسم الهندسى ـ إنه بسيط كنشيد وطنى . كان يبدو ، هذا الصباح ، سعيدا ، فقد حقق مجدا منذ فترة قريبـة . إذ بعد قضـائه سنوات بمبـاشيا فى الشرطـة المصرية ، فيما كـان يسميه « غروب حياته » ، عين مؤخـرا .. إننى لا أكاد أجرؤ على كتابة الكلمات، لأنه فى مقـدورى أن أرى إرتعاشة الخوف التـى تفرضها السريـة عليه ، كما فى وسعى ، أيضا ، أن أرى عينه الزجاجيـة وهى تدور فى محجرها منذرة محذرة.. لقد عين ، مؤخرا ، فى الشرطة السرية . إنه لم يعد حيا ، والحمد لله ، حتى يقرأ هذه الكلمات وينتفض مـرتعشـا . حقـا ، إنـه نفس الـرجل ، نفس البحـار القـديم

(*) بالفرنسية فى الأصل

ونفس القرصان السرى لشارع التتويج ، كما تفتقده المدينة (وتفتقد إستخدامه لكلمة هذا شىء « مريع ») .

لقد رويت ، فى موقع آخر ، كيف استجبت لاستدعاء غامض ، لأجد نفسى فى غرفة رائعة التناسب ، وجها لوجه مع صديقى القرصان السابق ، وبيننا مكتبه، وهو يصفر من خلال أسنانه الصناعية غير المحكمة . أعتقد أن وظيفته الجديدة كانت تحيره بقدر ما كانت تحيرنى ، أنا الوحيد الذى يثق فيه ويطمئن إليه : من المؤكد ، حقا ، أنه قد أمضى فى مصر زمنا طـويلا ، وأنه يعرف العربية جيدا ، الا أن سجل حياته كان قاتما ، نسبيا . مـاذا تأمل وكالة إستخبار أن تحصل عليه منه ؟ والأكثر من ذلك . ماذا يأمل هـو أن يحصل عليه منى ؟ لقد أوضحت له ، تفصيلا ، أن الحلقة الضيقة التى تلتقى أسبوعيا لتستمع إلى تفسير بلتازار لمبادئ القابال ، لا علاقة لها بالتجسس.إنها ، فى بساطة، مجموعة من تلامذة هرمس ، جذبهم إهتمامهم بما إحتوته مادة المحاضرات . إن الأسكندرية هى بلد الفرق والشيع ـــ وكانت أبسط أعمال التحرى وأضحلها كفيلـة بأن تكشف له عن وجود مجموعات أخرى تشبه تلك المجموعة التى تهتم بالفلسفة الهرمسية ، والتى يخاطبهـا بلتـازار ، إذ هنـالك : الستينـريست ، العلماء المسيحيين ، الأوسبنسكير والادفنتست ... ما الـذى شد الإنتباه ، بوجـه خاص ، إلى نسيم ، جوستين ، بلتـازار ، كابـوديسـتريا ... الخ ؟ لم يكن فى وسعى أن أخبره ، كما لم يكن فى وسعه أن يخبرنى .

« إنهم يدبرون شيئـا ما . هذا ما تقولـه القاهرة » . كان يـردد هذا القول فى ضعف ووهن . وكان من الواضح أنه لا يعرف من هم سادته هناك . كان عمله، كما استطعت أن أفهم ، يُملى عليه من خلال هاتف متهالك ، دون أن يرى أحدًا . ولكن ، أيا كـان هؤلاء الذين فى القاهـرة ، فإنهم يدفعون له أجـرا طيبا . وما دام معه نقود يبعثرها فى تحريات كالنـزهات ، فمن أكون أنا حتى أمنعه من إلقائها إلىّ ؟ كنت أظن أن تقاريرى الأولى ، عن محاضرات بلتـازار ، عن القابال ، سوف تثبط كل إهتمامهم بها ـ إلا أن ذلك لم يحدث . كانوا يـريدون المزيد والمزيد من هذه التقارير .

كان البحـار العجوز ، فى هـذا الصباح الـذى ظهر فيـه فى الصورة ، يحتفل بوظيفته الجديدة ، وما عادت به عليـه من زيادة فى راتبه ، وذلك بحلاقة شعره فى أرقى جزء من المدينة وأغلى صالون بها صالون منمجيان .

يجب ألا أنسى أن هذه الصورة تسجل ، أيضا ، « لقاء سريا » . ولهذا لم يكن غريبـا أن يبدو فيها سكوبى ذاهـلا . كان محاطا بذات الجواسيس الـذى يلزم التحرى عن نشاطـاتهم ـ فما الحال وهنالك ، أيضا ، دبلومـاسى فرنسى تثار حوله شائعة واسعة الإنتشار ، أنه رئيس « المكتب الثانى » الفرنسى .

لقد كان سكوبى يجد ، عادة ، فى هذا المكـان مؤسسة باهظة التكاليف ، ليس فى مقدوره أن يتعـامل معها ، فقـد كان يحيـا على معاش ضئيل من البحـرية ، وراتب هزيل من عمله فى الشرطة ، إلا أنه غدا ، الآن ، رجلا عظيما .

لم يجرؤ سكـوبى على شىء ، حتى أن يغمز لى فى المرآة ، حيث كـان الحلاق الأحدب ، اللبق كدبلـوماسى ، يحلق الهواء بطريقة غاية فى الأتـزان ـ كان يحف براسه الـلامعة الشبيهة بالقبـة ، نوع من الزغب الخفيف للغـاية ، والأقرب إلى ذلك الذى يراه المرء على مؤخرة فرخ البط الصغير . وكان سكوبى قد ضـحى ، فى السنوات الأخيرة ، بلحيته الخشنة قليلة الكثافة الأشبه بالطوربيد .

قال فى صـوت أجش (ففى ظل وجود مثل هذا العـدد الكبير من الأشخاص المشكوك فيهم يجب علينا نحن « الجواسيس » ، أن نتحدث بطريقة « طبيعية»): « يجب أن أقول ، أيها الـرجل العجوز ، أنك تلقى هنا معـاملة جيدة للغـاية . إن منمجيان يعرف حقا » ، ثم تنحنح وأكمل ، « سر هذا الفن كله » . كان حذرا وهو يتعرض للمصطلحات الفنية . « إن المسألة كلها مسألة مران تدريجى ـ لقد قال لى ، صديق حميم ، حلاق فى بوندستريت ، عليك ، فى بساطة ، بالمران المتدرج » . وشكره منمحيان بصوته المضغوط ، وكأنه صادر عن غير فمه . واستمر الرجل العجوز فى تسـامح . « عفوا ، فأنا أعـرف ثنايا هـذا الفن » . وأصبح فى مقدوره الآن أن يغمز لى بعينه فغمزت له بدورى . ثم نظر كلانا بعيدا عن الآخر .

ما أن أطلق سراحه حتى وقف وعظامـه تطرقع . واتخذ فكه ، الذى يشبه فك القرصان ، وضع من يتفجـر صحة وعافية . وتفحص صـورته فى المرآة راضيا

عن نفسه . ثم قال وهو يومئ برأسه إيماءة خفيفة ، تتسق ورجل من رجال السلطة ، « نعم . هذا حسن . إنه يفى بالغرض » .

« سيدى ، أتود أن أدلك لك جلد رأسك بالكهرباء ؟ »

وهز سكوبى رأسه فى تسيد ، وهو يضع طربوشه الأحمر كاصيص الورد، فوق جمجمته ثم قال ،«إنه يسبب لى بثورا » . ثم أكمل فى إبتسامة متكلفة، «سأغذى ما تبقى بالعرق » . ، وحيا منمجيان هذه اللمحة الفطنة بإيماءة صغيرة . وغادرنا الصالون أحرارًا .

إلا أن سكوبى لم يكن ، فى الحقيقة ، منشرح الصدر أبدا . كان متهدلا ونحن نسير معا فى بطء عبر شارع شريف باشا ، متجهين إلى الكورنيش الكبير . خبط باكتئاب فوق ركبته بمذبته المصنوعة من شعر الخيل . كان ينفث ، وهو مهموم، الدخان من غليونه المصنوع من جذور العوسج ، والذى عانى الكثير من الإصلاح والترميم . كان يبدو مشغول البال متبرما ، وكان كل ما قاله فجأة ، «أننى لا استطيع احتمال توتو هذا . إنه صبى النساء بصورة فاضحة . لو كان ذلك فى زماننا لكنا ... » وهمهم لنفسه زمنا طويلا ، ثم غاص فى الصمت مرة أخرى.

قلت ، « سكوبى ، ما الأمر ؟ » .

قال معترفا ، « إننى مضطرب البال ، مضطرب البال حقا » .

كانت مشيته ومسلكه العام ، ونحن فى الجزء الراقى من المدينة ، يتسمان بالخيلاء المصطنعة . إنها توحى بحال الرجل الأبيض ، عادة ، وهو يتأمل مشكلات الرجل الأبيض الخاصة ، تلك التى يدعونها أعباءهم . وإن حكمنا عليها ، مما بدا عليه سكوبى ، فإنها تبدو عالقة ثقيلة فوق رؤوسهم . هنالك إيماءاته المحدودة قدر المستطاع والتى تجلجل بالزيف والتصنع ، ربته فوق ركبته ، مصه بشفتيه وإستغراقه فى تأمل مهموم ، أمام واجهات المحلات التجارية . إنه يحملق ، من علٍ ، فيمن حوله . إن هذه الحركات تذكرنى . بصورة واهنة ، بأبطال القصص الإنجليزية الذين يقفون أمام المدفأة التيودورية الطراز وهم يخبطون ، بطريقة مؤثرة ، أحذية ركوب الخيل ، بسياط مصنوعة فى عضو تذكير الثور .

إلا أننا ما أن بلغنا أطراف الحى العربى ، حتى طرح ، جانبا ، كل هذه السلوكيات . زال عنه توتره . أزاح طربوشة ليجفف عرق جبهته ، وحملق فيما حوله بمودة وألفه . كان ينتمى إلى هذا الحى بالتبنى . هنا كان يحس ، حقا، بأنه فى داره . كان يتقدم ، متحديا ، ليشرب من الصنبور الرصاصى الناتئ من حائط قرب جامع الجوهرى (سبيل عام للشرب) ، رغم أن الرجل الأبيض يعرف ، فى أعماقه ، أن تلك المياه بعيدة تمام البعد عن أن تكون مياه آمنة للشرب. كان يمكن، أثناء مرورة ، أن يلتقط عود قصب ، من حزمته ، ويقضمه، يمصه فى الطريق العام . أو يتناول قرن ـ خروب حلو المذاق . هنا ، تنبعث من كل مكان ، فى الطريق العام ، نداءات تحييه ويستجيب لها وقد تألق وجهه بشرا.

« الله يا سكوب أفندى » .*

« نهارك سعيد يا سكوب » . *

« الله يسلمك » . ـ

كان يقول وهو يتنهد . « قوم أعزاء . أنت لا تدرى كم أحب هذا المكان » . ثم يروغ من جمل ، كليل العين يسير محدبا بسنامه فى الشارع الضيق ، يهدد بالقائنا أرضا ، بأحماله الثقال المنتفخة من البرسيم البرى الذى يستخدم علفا للدواب.

« زاد الله فى نعيمك » .

« استأذنك ، يا أمى » .

« بارك الله يومك » .

« إمنحنى حظوتك أيها الشيخ » .

كان سكوبى يمشى هنا على راحته ، أشبه برجل دخل ضيعته الخاصة ، يسير فى بطء وفخامة كرجل عربى .

جلسنا اليوم معا ، مدة من الزمن ، فى ظلال الجامع التليد نستمع إلى خشخشة أشجار النخيل ونعيق السفن التى تغادر الخليج ،غير المرئى،أسفلنا.

وأخيرا قال سكوبى فى صوت ذابل حزين ، « لقد أطلعت الآن على أمر خاص

(*) فى الأصل عربية بحروف لاتينية

بمن يسمونهم باللواطيين . لقد هزنى مرآه ، بعض الشىء ، أيها الرجل العجوز. إننى لا أبالى أن اعترف بأننى لم أعرف معنى الكلمة ، وكان علىّ أن أبحث عنها. إن الأمر ، على أى حال ، يقول بضرورة أن نستبعد أمثال هؤلاء حيث يمثلون خطراعلى الشبكة » . وضحكت . بدا للحظة ، من ملامح الرجل العجوز ، أنه يبغى التجاوب معى بضحكة فاترة ، إلا أن إحباطه تغلب على هذا الباعث ، تاركا أثره كتجويف صغير فى خدية الحمراوين بلون الكرز . وأخذ يسحب أنفاسا من غليونه ، فى غضب ، مكررا فى إزدراء « اللواطى » ، بينما يبحث عن علبة الثقاب.

قال فى حزن ، « لا أعتقد أنهم ، فى الوطن ، يفهمون الأمر كما ينبغى . إن المصريين لا يلعنون البتة رجلا له ميوله ونزعاته ، طالما كان هذا الرجل ، مثلى، يمثل جوهر الشرف » . كان يعنى ما يقول بالفعل . « ولكن ، أيها الرجل العجوز، إن كان علىّ الآن أن أعمل من أجل .... أنت تعرف من أجل ماذا .... فإنه يتحتم علىّ أن أخبرهم ـ ما رأيك فى ذلك ؟ ».

« لا تكن أحمقا يا سكوبى » .

« حسنا ، إننى لا أدرى » . قالها فى حزن . « يجب أن أكون أمينا معهم . ليس الأمر فى كونى قد أسبب ضررا . إننى أعتقد أنه يجب ألا يكون للمرء نزعات تتجاوز أن تكون له بعض الزوائد الجلدية أو الأنف الكبير . ماذا فى وسعى أن أفعل ؟ » .

« ليس فى وسعك ، بالتأكيد ، وأنت فى هذه السن ، أن تفعل إلا أقل القليل ».

قال القرصان العجوز فى ومضة من ومضاته القديمة ، « لا يوجد أسفل الحزام غير القذارة والقسوة ، وحمامة لإستدراج باقى الحمامات إلى الفخ ». ونظر إلىّ نظرة ماكرة ، من وراء غليونه ، ثم فجأة طابت نفسه وابتهج ، وبدأ واحدا من إستطراداته المرحة فى صورة مونولوج ـ يروى فيه فصلا آخر من ملحمة ، هو واضعها ، تدور حول أقدم أصدقائه ، توبى ما نرينج ، والذى غدا الآن أسطورة.

« لقد إضطر توبى ، ذات مرة ، إن يخضع للعلاج الطبى بسبب إفراطه ـ أظن أنى أخبرتك بهذا الأمر . لم أخبرك ؟ حسنا ، لقد إضطر بالفعل لأن يخضع

للعلاج الطبى » . كان يتحدث بمتعة ظاهـرة . « يا إلهى ، كم أعتاد الممارسة وهو شاب . مـد الحبل على غـاربة حتى تجاوز الحدود . ووجـد نفسه ، فى النهـاية ، تحت يد الطبيب ، وكان عليه أن يلبس جهازا خـاصًا » . وإرتفع صوته إلى طبقة عالية ، « كـان يتجول مرتديا غطـاء لليدين ، من جلد نمر أرقط ، عنـدما يغادر السفينـة ، فى إجازة ، حتى هب الأسطـول التجـارى كله ضـده يدًا واحـدة .ثم وضـع، مبعدًا ، فى مأوى مدة ستة شهور ، حيث قالوا له بضرورة أن تجرى لك عملية شد ـ وأيًا كانت تلك العملية ، فقد كان يسمع صراخه فى طول تيوكسبرى وعرضها . هذا ما كان يقـوله توبى . ثم قيل له ، لقد شفيت . إلا أنهم لم يشفوه بالفعل . لم يفعلـوا ذلك على أى حال من الأحـوال . وأعيد بعد فترة وجيـزة . لقد عجزوا عن فعـل أى شىء معه ، وقالـوا أنه مبتلى بسفـاهة حيـوانية. يـالتوبى المسكين ! » .

وسقط نائما ، دون جهد ، مستندا إلى جدار الجامع («إنها أغفاءة كاغفاءة القطة » . هكذا اعتاد القول ، « إلا أن الموجة التاسعة توقظنى على الدوام » . وساءلت نفسى ، إلى متى تطول غفوته ؟) . وإعادته الموجة التاسعة ، بعد لحظة. حملته عبر زبد أحلامه إلى الشاطئ . جفل ثم اعتدل فى جلسته ، قال ، «ماذا كنت أقول ؟ حسنا ، كنت أتحدث عن توبى . كان أبوه عضوا فى البرلمان، له مكـانته العـاليـة . كان ابن رجل ثـرى . حـاول تـوبى ، فى البدايـة ، أن يلتحق بالكنيسة . قال أنه أحس بالنـداء يدعوه إلى ذلك . إلا أننى ، شخصيا ، أعتقد أن الرداء الكهنوتـى ، فقط ، هو الذى جذبه ـــ كان توبى هاويـا مسرحيا كبيرا . ثم فقد إيمانه وانزلق وزل ، وكانت فاجعة ـ أوقع به . قال أن الشيطان أغواه . قال الرئيس ، « تيقنوا ألا يفعلها ثـانية ، وخاصة فى مكان عام كـــ «توتنج » . كانوا يودون وضعه تحت الفحص ـــ قالوا أنه مصاب بمرض نـادر ، أعتقد أن اسمه قـرن الإخصـاب . إلا أن والـده ، لحسن الحظ ، ذهب إلى رئيس الـوزراء وطمس الأمر كلـه . لقد كان من يمن طالعـه ، أيها الرجل العجوز ، أن كـان لكل أعضاء مجلس الوزراء ، فى ذلك الحين ، نزواتهم أيضا . كـان الأمر غريبا ، إذ أن رئيس الوزراء ، وحتى أسقف كانتربرى تعاطفا مع توبى المسكين . كان ذلك من حسن حظه . ولقد حصل ، بعد ذلك ، على بطاقة متميزة وأبحر » .

ونـام سكوبى ، ليستيقظ ، من جـديـد ، بعد ثـوان قليلـة ، ليكمل بطريقـة مسرحية ، متحـدثا دون تـوقف ، وهو يـرسم علامة الصليـب فى تقوى ويبتلع أنفاسه . « لقد كان تـوبى العجوز هو من دلنى على طريق الإيمان . ففى واحدة من الليالى ، وبينما كنا نقـوم معا بنوبة الحراسة فـوق ظهر « الميريديت » (تلك السفينة العتيقة البديعة) قـالى لى ، « أيها الدنئ . هنالك شىء يجب أن تعرفه . ألم تسمع أبـدا عن العذراء مـريم ؟ » . بالطبـع كنت قد سمعت عنهـا بطريقـة مبهمة. لم أكن أعرف شيئا عن واجباتها ، حتى يمكننى الحديث عنها .... »

ثم نـام مـرة أخرى . وانطلق مـن شفتيه شخير قصير كـالنقيق . وأخـذت غليونه ، بحرص ، من بين أصابعه ، واشعلت لنفسى سيجارة . هذه الصحوة ثم الغفوة فى صورة الموت ، تركت فى نفسى أثرا ما . يا لهذه الزيارات القصيرة التى يقوم بها إلى الابـدية ، التى سوف تكـون ، عما قريب ، سكناه الـدائمة ، مع من يرتـاح إليهم أمثال توبى وبـدجى والعذراء مـريم بواجباتها المحـددة .... كان مهمومـا بمثل تلك المشكلات ، وهو فى سن ، كما كنت أرى ، تجعل من مباهـاته الكلامية مصـدرا للإزعاج إلى حد مـا (كنت مخطأ ـ فقد كان سكـوبى شخصا جامحا مستعصيا) .

واستيقظ مـرة أخرى ، بعد مـدة ، من هذا النـوم الأعمق مما سبقـة ، نفض نفسه ونهض ، يـدعك عينيه بجمع يديـه . وشققنا طريقنا إلى ضـواحى المدينة القـذرة حيث يعيـش ، فى حجـرتين متـداعيتين ، فى شـارع التتـــويج . وأمسك بسلسلة أفكاره بإحكام ، قـائلا مرة أخرى ، « ومع ذلك . فما أيسر أن تقول لى ، يجب الا تخبرهم . لكننى مازلت أسأل نفسى » . (وهنـا توقف يستنشق رائحة الخبز العـربى المنبعثة مـن باب أحد الحوانيـت . وصاح الرجـل العجور ، « إن رائحتـه كرائحـة حجـر الأم ! ») . كانت مشيتـه المتمهلـة تـواكب تأملاتـه ، « المصريون ، كما ترى إيها العجوز ، قوم رائعون ، كريمو النفس والأخلاق . إنهم يعرفـوننى جيدا . إنهم ـ أيها العجـوز ، يبدون قسـاة ، من بعض النواحى ، إلا أنها قسـوة ، كما اعتدت أن أقـول دومـا ، مشوبـة بـالصفح والكياسـة . إنهم متسامحون مع بعضهم البعض . لقد قال نمرود باشا بنفسه ، (اللواط شىء ، وتدخين الحشيش شىء آخر تماما) . إنه جاد كما ترى . وأنا لا أدمن الحشيش

البتة أثناء تأدية عملى ــ فذلك أمر ردئ . إلا أنه من المؤكد ، من زاوية أخرى للرؤية، أن البريطانيين لن يقدموا على فعل أى شىء ، مع موظف رسمى له مكانة مثل مكانتى . لكن ، إن أخذ المصريون فى توجيه النقد لى ، أيها العجوز ، فمن المحتمل أن أفقد كلا الوظيفتين وكلا الراتبين . إن هذا هو ما يثير قلقى » .

وصعدنا السلم الذى كان يترنح تحت وطء أقدامنا ، وقد هلهلته جحور الفئران . قال موافقا ، « إن له رائحة ما ، إلا أنك تعتادها . إنها رائحة الفئران ـ كلا ، لن أغادره . فقد عشت فى هذا الحى ، حتى الآن ، سنوات . إن كل من فيه يعرفنى ويحبنى . كما أن عبده على مقربة من هنا » .

وضحك ضحكة مكتومة ، ثم توقف على أول بسطة فى السلم ، خالعا طربوشه الأشبه بإناء الزهور ليجفف عرقه بطريقة أفضل . وتهدلت كتفاه كما يفعل دوما عندما يفكر بجدية ، وكأن أحمال الفكر ذاتها تثقل عليه . ثم تنهد وهو يقول فى بطء ، وقد أحاط نفسه بجو من أراد ، مهما كلفه الأمر ، أن يكون معبرا ، أن يصيغ فكرته بأكبر قدر يستطيعه ، من الوضوح ، « الأمر كله ذا علاقة بالنزوات ـ لن تدرك هذه المسألة إلا وقد تجاوزت زهرة الشباب وحار الدماء » . ثم تنهد مرة أخرى ، « المسألة تكمن فى الحاجة إلى الرقة والحنان، أيها العجوز . والأمر كله ، بصورة ما ، يتوقف على ممارساتك . ومع ذلك ، فأنت تشعر بالوحدة . إن عبده ، الآن ، هو صديقى الحقيقى » . وعاد يضحك ضحكته المكتومة مبتهجا . « إننى أدعوه بلبل الأمير . لقد أقمت له عمله، بدافع من الصداقة فقط . اشتريت له كل شىء : حانوته وزوجته الصغيرة . لم أمسسه بضرر ، ولن أفعل ذلك البتة ، وذلك لأنى أحب هذا الرجل . إننى سعيد بما فعلت، إذ رغم تقدمى وتحسن وضعى ، فما زال لى صديق حقيقى . إننى أطل عليهما ، كل يوم ، لأراهما ، وذاك يضفى علىّ قدرًا من السعادة لا يمكن تخيله . إننى حقا، أيها العجوز ، استمتع بسعادتهما . إنهما كابن وابنة لى ، هذان الفأران الذابلان، إننى لا أحتمل سماعهما يتشاجران . إن هذا الأمر يثير قلقى على إبنائهما . إننى أعتقد أن عبده يغار عليها ، دونما سبب . إنها تبدو لى ذات دلال . إلا أن الرغبة الجنسية هنا ، فى هذا الطقس الحار ، عارمة ، ولذا فالبعض منها يفى بالحاجة

كما اعتـدنا أن نقـول عن الـروم فى الأسطول التجـارى: ملـؤ معلقة منـه تفى بالغرض . إنك تـرقد وتحلم به كما تحلم بالمرطبـات ، أقصد الجنس ، لا الروم . إنهم يختنون الفتيـات المسلمات ، أيها الصبى العجوز ، وهذا أمر قـاس ، قاس حقـا ، مما يجعل مـوضـوع الجنس هو معـزوفتهن المفضلـة ، لقد حـاولت أن أجعلها تتعلم الحياكة ، أو أشغال الخيط، إلا أنها غبية إلى حد أنها لم تفهم شيئا، لقد جعلا من فكرتى مزحـة يضـحكان منها، إلا أن هذا الأمر لم يثر ضيقى ، فما كنت أبغى غير تقديم العون لهما . لقد كلفنى ما أسست لعبده ، من عمل ، مائتى جنيها ـ إنها كل مدخراتى . إلا أنه الآن ، ناجح فى عمله ـ إنه ناجح للغاية » .

وكان لتلك المفاجأة أثرها الذى مكنه من تجميع كل طاقاته للهجمة الأخيرة . فرحنا نصعد الدرجات العشر الأخيرة بخطى واسعة . وفتح سكوبى شقته. لم يكن فى وسعه ، فيما مضى ، أن يستأجر غير غرفه واحدة ـ إلا أنه استطاع ، بفضل راتبه الجديد ، أن يستأجر كل هذه الشقة القذرة.

كانت كبرى الغرفتين على النمط العربى القديم ، وهو يستخدمها كغرفة نوم واستقبال فى آن واحد . كـانت مؤثثة بسرير قـديم الطراز غير مريح ، منخفض، يمكن طيه ، وحامل عليه طاولة مستديرة .

وتراصت فـوق رف المدفأة المتآكل بعض أعواد البخور ، ونتيجـة من نتائج الشرطة ، ولوحـة القرصان التى رسمتها له كليـا ، والتى لم تكن قد إنتهت منها بعد . وأشعل سكوبى لمبة كهربائية وحيـدة يغطيها التراب ـ وهى بدعة حديثة، كان جـد فخور بها (إذ كان الجاز يمتزج بطعـامه) ـ وتلفت حولـه فى سعادة حقيقية. ثم سـار على أطراف أصـابعه حتى الـركن البعيد . لم أكن فى البـداية ، وبسبب العتمة ، قد تبينت الساكن الآخر : كان ببغاءً أمازونيًا زاهى الخضرة فى قفص نحاسى مغطى بقطعـة من قماش أسود ، أزاحها الرجل العجـوز حذرا ، كمن يتخذ موقفا دفاعيا ، وقال ، « لقـد كنت أحدثك عن توبى . لقد مر الأسبوع الماضى عبر الأسكندرية على خط يوكوهامـا . لقد حصلت على الببغاء منه ـ كان عليه أن يبيعه ـ لقد أثار الطائر اللعين الهياج والشغب . إنه محاور بارع . ألست كذلك ياورن ، هيـه ؟ إنه حاد كالظراط ، ألست كـذلك يا رون » . وأطلق الببغاء صفيرا خـافتا ، بينما يحنى رأسـه . وقال سكـوبى فى استحسـان ، « هذا مـا

أتوقعه منك » . ثم إلتفت إلى وأضاف ، « لقد حصلت على رون بثمن زهيد . نعم بثمنى زهيد للغاية . أتود أنه أخبرك لماذا ؟ »

وفجأة وعلى غير المتوقع ، إنثنى ضاحكا حتى قارب أنفه ركبته ، وهو يطن ، بلا صوت ، كنحلة صغيرة ، ويضرب فخذة ضربة لا صوت لها أيضا ، ثم يعود كما كان ـ كانت نوبة فجائية . قال ، « أنت لن تتصور الشغب الذى أثاره رون . لقد أحضر توبى الطائر إلى الشاطئ . كان يعلم أنه يستطيع الكلام ، ولكن ليس بالعربية . يا إلهى ، كنا نجلس نثرثر فى مقهى (فلم أكن قد رأيت توبى منذ خمس سنين) ، عندما بدأ رون يتحدث بالعربية . كان يتلو « الكلمة » . إنها نص من القرآن له قد سيته . ألم تفعل ذلك يا رون ؟ ووافقه رون على قوله بصغيره . وأخذ سكوبى يشرع فى وقار ، « إن (الكلمة) مقدسة للغاية ، وكان أن أحاط بنا جمع غاضب . و كنت محظوظا لمعرفتى سبب ما يجرى . كنت أعرف أنه لو ضبط غير المسلم وهو يتلو هذا النص ، على وجه الخصوص ، فإنه عرضة لأن يختن فى الحال ». وبرقت عيناه . « لقد كان مؤسفا للغاية أن يختن توبى هكذا بينما يقضى إجازته على الشاطئ ، وأصابنى القلق (كنت أنا قد ختنت من قبل) . إلا أن حضور بديهتى لم يهجرنى ، على أى حال ، فى تلك اللحظة . كان توبى يود أن يلكم بعض الرؤوس ، إلا أننى منعته . كنت أرتدى حلة رجل الشرطة ، كما تعرف ، مما يسر الأمر علىّ . ألقيت حديثا قصيرا ، فى هذا الجمع ، قلت فيه أننى فى طريقى لأخذ هذا الكافر . وهذا الطائر الفاسق إلى الحجز لوضعهما فى التخشيبة . وأرضاهم ما قلت ، إلا أنه لم يكن هنالك من وسيلة لا سكات رون حتى بعد أن وضعنا عليه غطاءه الصغير ـ أليس كذلك يا رون ؟ لقد ظل ابن الزنا يتلو (الكلمة) طوال طريق العودة . وكان علينا أن نجرى حتى لا نتعرض ثانية لما تعرضنا له . يا إلهى ، يا لها من تجربة ! » .

كان يخلع ملابسه الرسمية ، بينما يتكلم ، واضعا طربوشه على المسمار الحديدى الصدئ المثبت فى الحائط فوق سريره ، وفوق الصليب الموجود فى كوة صغيرة حيث كان يضع ، أيضا ، قلة ماء شرب فخارية . وإرتدى سترة قديمة مهترئة ذات أزرار من صفيح . واستمر فى حديثه وهو ما يزال يمسح رأسه ، «يجب أن أقول ، كم كان رائعا أن أرى توبى العجوز ، مرة أخرى ، بعد طول

فراق . كان عليه أن يبيع ، بالطبع ، هذا الطائر ، بعد مثل هذا الشغب . ما كان يجرؤ على العودة إلى منطقة الميناء ومعه الببغاء . وأنا الآن فى حيرة من أمره بعد أن إشتريته ، إذ لا أجرؤ على أخذه خارج الحجرة ، خشية ما قد يتلفظ به » . ثم تنهد وتابع الحديث . « كما قدم توبى لى شيئا طيبا آخرا ـ إنه وصفة لصناعة الويسكى المغشوش ـــ هل سمعت بها ؟ ولا أنا . إنه أفضل من الأسكوتش وأرخص من التراب ، أيها العجوز إننى ، ومنذ الآن ، سوف أصنع كل مشروباتى بنفسى ـــ أنظر إلى هذه » . ثم أشار إلى قارورة صغيرة مليئة بسائل نارى اللون ، وقال ، « إنها بيرة صنعتها هنا ، وهى ، أيضا جيدة للغاية . لقد صنعت ثلاث ، إنفجرت منها إثنتان . سوف أطلق عليها اسم ، بيرة بلازما » .

وسألته ، « ولماذا هذا ؟ هل تنوى بيعها ؟ » .

فقال ، « كلا ، يا إلهى ـــ إنها لاستخدامى الخاص » . ثم مسح على معدته متأملا ، وهو يلعق شفتيه ، « جرب كأسا منها » .

« كلا ، شكرًا » .

ونظر العجوز إلى ساعته الضخمة ثم زم شفتيه ، « بعد قليل يجب أن أتلو صلاة العذراء مريم . سأكون مضطرا لأخراجك أيها العجوز . لكن دعنا نلقى نظرة على هذا الويسكى المصنع لنرى كيف حاله . هل نفعل ذلك ؟ » .

إنتابنى فضول شديد ، أن أرى كيف يجرى تجاربه الجديدة ، فتبعته راضيا إلى بسطة السلم مرة أخرى ، ثم إلى تلك الخلوة كالكوة القذرة ، التى وضع فيها ، الآن ، مغسل حديدى مطلى بالزنك (مكلفن) كئيب المنظر ، لابد اشتراه خصيصا لهذه الأغراض المحظورة .كان يقف منتصبا أسفل خزانة شديدة القذارة ، وقد إزدحمت الأرفف حوله بأدوات هذه الحرفة الجديدة ـ دستة من زجاجات البيرة الفارغة ، منها إثنتان مكسورتان ، والمبولة الضخمة التى كان سكوبى يدعوها دوما « بالميراث » . هذا غير مظلة شاطئ كالخرقة الممزقة وزوج من أحذية المطر . ولم أستطع أن أمنع نفسى من السؤال ، بينما أشير إلى هذه الأخيرة ، « وما دور هذه فى العملية ؟ هل تدهس فيها الأعناب أو البطاطس ؟ ».

واتخذ سكوبى سمت عانس وقد أحولت عيناه حول أنفه ، تعبيرا عن أن التمادى فى النزق حول هذا الموضوع ، محل النقاش ، لم يعد له مكان . وأصغى بعمق للحظة ، كأنما يستمع إلى صوت التخمير . ثم ركع على ركبة مرتعشة وهو يمعن النظر ، بتركيز ، وإن كان بريبة ، فى محتويات المغسل . ورسمت عينه الزجاجية ، على وجهه ، تعبيرا آليا ، بينما تحملق فى المزيج الذى بدا كئيب المنظر وقد فاض به المغسل . وأخذ يتشممه ، دون إنفعال ، ثم فى تأفف ، قبل أن ينهض مرة أخرى ، وقد أخذت مفاصله فى الصرير . ثم اعترف قائلا ، «إنه لا يبدو جيدا كما أملت أن يكون . لكن علينا أن نمهله بعض الوقت . يجب أن نمهله بعض الوقت » . وتذوق بعضا منه على طرف أصبعه ، وقد كور عينه الزجاجية، ثم اعترف قائلا ، « إنه يبدو عكرا ، بعض الشىء ، كالوحل ، وكأن شخصا ما قد بال فيه » . ولما كان هو نفسه وعبده المشاركان فى معرفة المفتاح الوحيد لجهازالتقطير المحظور هذا ، فقد كان فى وسعى أن أبدو بريئا .

وسألنى متشككا ، « هل تحب تذوقه ؟ ».

« كلا ، شكرا ، يا سكوبى » .

فقال متفلسفا : « آه ، حسنا . ربما لم تكن كبريتات النحاس الحمراء طازجة. لقد أمرت باستحضار الراوند من بليتى . دفعت فيه أربعين جنيها. لم يكن يبدو جيدا عندما جئ به إلى هنا ، لكننى لم أجد ضرورة لأخبارك بذلك. لقد خلطت المواد بنسب صحيحة ، راجعتها بعناية مع توبى قبل أن يرحل . إنها تحتاج بعض الوقت . ذاك ما تحتاجه بالفعل » .

وانتعش بالأمل ، مرة أخرى ، فشق طريقة عائدا إلى غرفة النوم يصفر ، فى همس ، بعض مقاطع أغنية شهيرة ، ما كان يغنيها بصوت مرتفع إلا إن كان ثملا بشراب البراندى .

إننى أبغى

أحدا يضاهى خيالى

إننى أبغى

أحدا يوازى طرازى

لقد كنت طيبا لزمن طال

والآن سأخذها بين أحضانى

يا لها من متعة

توم تى توم تى .

وهنا هبط النغم ، فى مكان ما كأنما من فوق هوة ، وتلاشى ، وإن كان سكوبى ما يزال يطن المقطع وينقر الإيقاع فى تتابع .

وجلس فوق السرير يحملق فى حذائه الرث الزرى.

وفجأة ، ودون تفكير واضح مسبق (أطبق عينيه فى سرعة ، كمن يبغى إغلاق الحديث فى هذا الموضوع إلى الأبد) استلقى سكوبى فوق السرير واضعا يديه خلف رأسه وقال :

« لدى ، قبل ان تغادر ، اعتراف صغير أود طرحه بين يديك ، أيها العجوز ، حسنا . ما قولك ؟ »

وجلست فوق المقعد غير المريح وأنا أومئ برأسى . « حسنا » ، قالها مؤكدا وهو يسحب نفسا عميقا ، « حسنا إذن : إننى أحس ، فى بعض الأحيان ، عندما يكتمل القمر ، أنى خاضع لسيطرة ما ، خاضع لسطوة مؤثر ما » .

كان ذلك ، فى ظاهرة ، خروجا محيرا عما إعتاد ، إذ بدا العجوز منزعجا مما أفشاه وأعترف به . وغرغر لحظة كالديك الرومى . ثم استمر فى صوت ضارع خالٍ من كبريائه المعتادة ، « إننى لا أدرى ما الذى يتسلط علىّ » . ولم أفهم ، بالضبط ، ماذا يعنى كل هذا ، فسألته : « هل تعنى أنك تسير وأنت نائم ، أم ماذا هناك ؟ هل تنقلب إلى ذئب يا سكوبى ؟ » . وهز رأسه مبتلعا ريقة كطفل على شفا البكاء ، « إننى أرتدى ملابس النساء و«الدولى فاردن». قال ذلك فاتحا عينيه على إتساعهما ، محملقا فىّ بصورة تبعث على الشفقة .

قلت ، « أنت، ماذا ؟ » .

وأصابتنى دهشة شديدة إذ رأيته ينهض ويسير متيبسا إلى صوان ويفتحه. كانت معلقة فى داخله حلة نسائية قديمة الطراز يعلوها التراب ، وقد

أكلتها العتة، وإلى جـوارها ، فوق مسمار ، قبعة قديمـة شحمية تشبه الخوذة ، لابد وأن تكون تلك التى تدعى « دولى فاردن » . وقد اكتملت هذه الكسوة المذهلة بـزوج من أحذيـة البلاط الملكـى تعود إلى عصر مـا قبل الطوفـان ، ذات كعبين عاليين للغاية ، وبوز طـويل مدبب . وحار كيف يستجيب للضحكة التى كنت ، الآن ، مضطـرا لإطلاقهـا . فصـدرت عنه قـرقرة واهنـة . وقـال ، « إنه لأمـر سخيف. أليس كـذلك ؟ » كـان ما يـزال يحّوم على حـافة البكـاء ، رغم وجهـه المبتسم . وكـانت نبرة صوته تستدر الشفقـة على سوء طالعه : « إننى لا أدرى ماذا حـل بى . ومع ذلك ، فالأمـر كما تعرف . إنها دومـا تلك الرجفـة المنتشية القديمة ..... » .

فجأة ، وبعد تلك الكلمات ، تغير مزاجه الذى يميزه : حل به شعور جديد من الخفة والمرح محل ما أنتابه من تشتت واحباط . وغدت نظراته ماكرة ، بلا ندم. اجتـاز الحجرة إلى المرآة ، وأنـا أنظـر إليـه فى دهشة . وضـع القبعة على رأسـه الصلعاء . واستبدل ، فى لحظـة ، صورته بصورة امرأة عجوز خليعـة ضامرة، ذات عينين كالأزرار ، وأنف كحد الموس ـ عاهـرة من زمن جسر ووترلو ، تمثال حقيقى لمومس رخيصة ، أجرها بنسين . وتجمعت الدهشة والضحك كحزمة فى أعماقى ، دون أن تجد مخرجا . فقلت لـه أخيرا ، « إنك لا تتجول ، بحق السماء، هكذا يا سكوبى . هل تفعلها وتتجول بالفعل ؟ » .

وجلس سكوبى ، عاجـزا ، فوق السرير مرة أخرى ، وقال وقـد عاوده الكدر والاكتئاب ، فاشاع فى وجهه الصغير الـذى يثير الضحك ، تعبيرا هزليا (كان ما يزال يرتدى تلك القبعه الـدولى فاردن) ، « إننى أفعلها فقط ، عندما يتسلط علىّ ذلك المؤثر . عندما أفقد سيطـرتى على نفس ، فلا أكون مسئولا ، أيها العجوز ، عما أفعل » .

كـان يجلس وقد تحطم وانسحق . وأطلقـت ، من دهشتى ، صغيرا خافتـا ، فقلـده الببغـاء فى الحال . كـان الأمـر جـد خطير . وأدركت ، الآن ، لماذا كـانت المشاكل التى يمعن التفكير فيها ، والتى أنهكته وأرهقتـه طوال الصباح ، تحتاج إلى هذا البحث العميق . إذ أنـه من الواضح لو تجول إمرئ بمثل هـذا اللباس فى الحى العربى ..... ويبدو أنه كان يتابع حبل أفكارى . إذا قال ، «إننى لا أفعل

ذلك إلا أحيانا ، عندما يصل الأسطول إلى الميناء » . واستمر وقد إنتابته لمسة من شعور بالرضاء عن الذات ، « بالطبع ، إن حدثت أية مصاعب أو متاعب فإننى سأقول بأنى كنت متنكرا . ألست واحدا من رجال الشرطة ، إن تدبرت الأمر وفكرت فيه . ورغم كل شيء ، فإن لورانس العرب كان يرتدى قميص النوم. ألم يكن يفعل ذلك ؟ ». وهززت رأسى وأنا أقول ، « لكنه لم يكن يرتدى قبعة الدولى فاردن ، يجب أن تعترف يا سكوبى بأن لباسك هو الأكثر إصاله وإبداعًا.. » وهنا أمسك الضحك بتلابيبى .

كان سكوبى يراقبنى وأنا أضحك ، وهو ما زال جالسا فوق السرير وعلى رأسه ذلك الغطاء الخيالى . وقلت له ضارعا ، « إخلعه » . وبدا ، الآن ، جادا منشغل البال ، إلا أنه جلس بلا حراك ، ثم قال ، « لقد عرفت الآن كل شيء عنى. أفضل ما فى الربان العجوز وأسوأ ما فيه . لقد كنت ، الآن ، على وشك....»

فى تلك اللحظة قرع أحدهم الباب الخارجى . وقفز سكوبى فى خفة ونشاط، وببديهية حاضرة مذهلة ، إلى الصوان ، حيث دس نفسه داخله وأغلقه بجلبة واضحة . وتوجهت أنا إلى الباب أفتحه ، حيث كان يقف على بسطة السلم خادم يحمل إبريقا فخاريا مليئا بسائل قال أنه قد أحضره من أجل الأفندى سكوب . فتناولته وتخلصت من الخادم ، قبل أن أعود إلى الحجرة وأنا أنادى الرجل العجوز الذى برز من الصوان مرة أخرى ـ وقد عاد الآن تماما إلى ما كان عليه ـ عارى الرأس مرتديا سترته .

تنفس فى إرتياح وقال ، « لقد خلصنا فى آخر لحظة . من كان هناك ؟ » . وأشرت إلى الإبريق « أوه ، ذلك ـ إنه من أجل الويسكى المصنع ـ إنه يضاف إليه كل ساعات ثلاث » .

قلت ، أخيرا ، وأنا ما أزال أغالب هذه المفاجآت المزاجية الجديدة ، والتى يصعب استيعابها ، « حسنا ، يجب أن أذهب » . كنت ما أزال أحوم بعنف ، ما بين الدهشة والضحك ، من فكرة تلك الحياة الأخرى التى يعيشها سكوبى عندما يكتمل القمر ـ وكيف استطاع تفادى الفضيحة كل تلك السنين ؟ ـ عندما قال ، « لحظة واحدة أيها العجوز . لقد قلت لك كل ما قلت لأنى أود أن تصنع بى

معروفا » . وأخذت عينه الزائغة تدور ، الآن ، بجدية تحت وطأة ما يدور بخلده من أفكار . وتراخى ، مرة أخرى ، وقال ، « إن شيئا كهذا يمكن أن يضيرنى أبلغ الضرر . أبلغ الضرر أيها العجوز » .

« أعتقد أنه كذلك » .

قال سكوبى ، « إننى أود منك ، أيها العجوز ، أن تصادر كل تلك الأشياء التى تشبه قنبلة لم تنفجر بعد . إنها الطريقة الوحيدة للتحكم فى المؤثر الذى ينتابنى » .

تساءلت ، « أصادر تلك الأشياء ؟ » .

« خذها بعيدا . ضعها فى مكان وأغلق عليها . ذاك ما سوف ينقذنى أيها العجوز : إننى أعرف هذا . إن النزوة أقوى من طاقتى ، إن إنتابتنى » .

قلت ، « حسنا » .

« فليباركك الرب يا بنى » .

ولففنا معا كل ملابس ضوء القمر المكتمل الملوكية ، فى بعض أوراق الصحف، وربطناها بدوبارة فى حزمة . كان إحساسه بالراحة يشوبه شعور بالشك ، فقال فى قلق ، « لن تضيعها ؟ » .

قلت فى حزم ، « إعطها لى » . فناولنى الحزمة مستسلما . هبطت السلم وهو يصيح خلفى معبرا عن إرتياحه وعرفانه بالجميل ، « سوف أصلى من أجلك صلاة قصيرة ، يا بنى » . عدت أسير فى بطء وأنا أعبر منطقة الميناء، والحزمة تحت إبطى ، وأنا أتساءل أن كنت سأجد يوما ، من يكون محل ثقتى ، وأجرؤ على أن يشاركنى معرفة هذه القصة الرائعة .

استدارت السفن الحربية تسبح فى صورها الداكنة المنعكسة فى الماء ـ وغابة الصوارى بأشرعتها تتهادى فى الميناء التجارى بتؤدة بين صور الماء البادى كمرآة . ومذياع ، فى مكان ما ، يشدو بأغنية ، آخر جاز ، مرحة وصلت الأسكندرية :

تيرساس العجوز
ليس هنالك من هو فرح مرح
من هو حر وبسيط مثل
ترسياس العجوز

* * *

-٣-

كانت المشكلة ، مرة أخرى ، وعلى نحو مـا ، هى كيفية خلق تآلف وتوحد بين هذه المادة الجديدة ، والمثيرة للقلق ، ونسيج المادة القديمة دون تغيير أو تدمير ، لا يمكن تصحيحه ، لحدود موضوعاتى أو الحلول التى أراها تتحرك فى إطارها. كانت الأسماك الذهبية تسبح ، تدور فى فتور ، داخل وعائها الكبير المضئ ـــ وهى لا تكاد تعى أن عالمها ، ومجال مسيراتها ، إنما هو خط منحنى.....

الشمس الغاربة أفرغت طرق الميناء من كل الأشياء إلا الظلال السوداء للسفن الحربية الأجنبية . وهى ، رغم كل ذلك ، قد خلفت وراءها ذلك القبس الرمادى الرجراج ـ وتلاعب الأضواء دون لون أو طنين فوق سطح البحر الذى ما يزال مرقطا بالأشرعة . والقوارب الصغيرة تتسابق إلى مراسيها . تتحرك فوق قاع الميناء الداخلى تفر ، داخلة خارجة ، فيما بين السفن كفئران بين أخذية قرويين بدائيين . وتحرك صف المدافع البازغة فوق سطح السفينة الحربية «جان بارت» فى بطء ، ثم مالت وعادت تستقر فى هذا الصمت الذى خيم على المكان، وقد صوبت فوهاتها إلى قلب المدينة الوردى ، والذى كانت مآذنه العالية ما تزال تبرق بلون الذهب فى آخر شعاعات الغروب . وأسراب حمام الربيع تتلألأ كالنثار وهى تستدير بأجنحتها نحوالضوء . (كتابة جميلة !).

ألواح النوافذ الزجاجية الكبيرة ، ذات الأطر النحاسية ، فى نادى اليخوت ، تضوى بالألوان كالماس . وتلقى بضوء متألق فوق الموائد الثلجية البياض ، وما عليها من طعام ، فتشعل الكؤوس والمجوهرات والعيون بلهيب جامح مضطرب أخير ، قبل أن تسدل الستائر الثقيلة ، وتكتسب الوجوه ، التى إجتمعت لتحيى ما ونت أوليف ، شحوب ضوء الشموع الدائ.

إن إنتصارات المجتمع المنظم ، والقدرة على حسن التصرف والحصافة ،

والدفء والصبر ... والخلاعة والرقة والعاطفية .. وقتل الحب بتناول الأمور فى استهانة ... وتناسى المرارات والخيبات ... هى كلها الأسكندرية ، المدينة الأم التى لا تعى شاعريتها والتى مثلتها الأسماء والوجوه التى صنعت تاريخها. ولتستمع فى أنتباه :

تونى أومبادا ، بالداسارو تريفيزانى ، كلود أماريل ، بول كابوديستريا، ديمترى راندیدى ، أونوفريوس باباس ، كونت بانوبيولا ، جاك دى جيرى ، أثينا تراشا ، جمبلاط بك ، دلفين دى فرانكويل ، جنرال سرفونى ، أحمد حسن باشا، بوزو دى بورجو ، بيير بالبز ، جاستون فيبس ، حداد فهمى أمين، محمد آدم ، ويلموت بيرفو ، توتو دى برونيل ، كولونيل نجيب ، دانتى بوروميو ، بينيد يكت دانجو ، بيادای تولومى ، جيلدا أميرون ... الشعر وتاريخ التجارة والنسق الإيقاعية لبلدان الشرق الأدنى التى ابتلعت فينيسيا وجنوا (كلها أسماء يمكن للعابر يوما ما أن يقرأها فوق شواهد جبانة الموتى).

وارتفع النقاش كسحابة بخار .. تغلف ماونت أوليف ، بينما كان واقفا يتحدث إلى نسيم ، مضيفه ، وقد كسا وجهه تعبير رقيق ، يفصح ، كالعدسة ، عن حياء أصيل ينم عن حسن منبته . كان الرجلان شديدا التماثل ، إلا أن سمرة نسيم كانت ناعمة ملساء وعيناه ويداه مفعمتان بالقلق . كانا ، رغم فارق السن ، صنوان ، حتى فيما يشتركان فيه من أذواق ، لم تؤثر فيها الأيام بالنقصان ، رغم أنهما بالكاد كانا يتراسلان ، مباشرة، طوال الوقت الذى قضاه ماونت أوليف خارج مصر . كان دائب الكتابةلليلى وليس لأبنائها . ومع ذلك،فإنه ما أن عاد حتى كانا كثيرا اللقاء ، كما وجدا ، أيضا ، الكثير الذى يناقشاه . كما كان فى الإمكان سماع الضربات القوية لمضربى التنس اللذان يلعبان بهما فيما بعد الظهر الربيعى فى ساحة المفوضية ، ساعة ينام الناس عادة . كانا يمتطيان صهوة الجياد معا عبر الصحراء ، أو يجلسان الساعات جنبا إلى جنب ، يتدارسان النجوم خلال التلسكوب الذى أقامته جوستين فى القصر الصيفى . كانا يصطادان ويرسمان معا ، ولا يفترقان منذ عودة ماونت أوليف . وها هما الليلة ، يلامسهما الضوء الناعم بقدر يخفى الشعيرات البيضاء فى فودى ما ونت أوليف ، والتجاعيد التى حول عينية المتأملتين

الحكيمتين. كان الرجلان يبدوان ، فى ضـوء الشموع ، متماثلين فى العمر تماما، إن لم يكونا من نفس العائلة .

ألف وجه تنعكس عليها تعبيرات لا أفهمها . («إننا جميعا نتسابق تحت ثقل عوائق محكمة » . هذا ما تقولـه إحدى شخصيات كتاب بورسواردن) . ومن بين كل تلك الوجوه ، كان هنالك وجه واحـد ، فقط ، أتحرق شوقا لرؤياه ، وجه جـوستين الأسمـر العـابس . يجب أن أتعلم رؤيـة كل شىء ، حتى نفسى ، فى ضوء جـديد ، بعد قـراءة كلمات بلتازار البـاردة القاسية . كيف يبـدو الإنسان عندمـا « يقع فى الحب » . (يجب أن تنطق الكلمات بالإنجليـزية فى نغمة خـافتة كالثغـاء) . ذلك إقرار منى بالخطأ ! بالغبـاء . ووقفت هنالك فى بذتى الـوحيدة اللائقة ، والتى غـدت بفعل الزمن متهدلة ، لامعة عند الـركبتين ، أرنو حولى ، فى ولع ، بعينين كليلتين ، لعلى ألمح المرأة التى ... ولكن ما أهمية ذلك ؟ فأنا لست فى حاجة إلى « كيتس » كى يصورنى . ولا أفترض أننى أقبح من أى شـخص آخر أو أقل أنـاقة ، كما أن زهـوى بنفسى ، بالقطـع ، من النوع الشـائع تماما ـــ وإلا فكيف بى لم أتوقف أبدا ، ولو للحظة ، أتساءل ، لماذا إنتحت جوستين بى جانبا لتضفى علىّ فضلها وحظوتها ؟

ماذا كان فى وسعـى أن أمنحها من أمور تعجز عن الحصـول عليها فى مكان آخر ؟ هل كانـت تبغى حديثى الكتبى البعيد عن التجربـة وممارستى الجنسية كالهواة ـ وهى التى كـانت فى يدها شروة كل ذكور الأسكنـدرية ؟ (إنها عملية وضـع الطعم فى الشرك لاستدراج الغير !) . لقـد وجدت ذلك أمرا جارحـا للغاية حتى أفهمـه أو أبلعـه أو أتقبلـه ، وإن كـان له حجـة وقـوة الحقيقـة الجافـة المقتضبـة. كما أنـه ، بـالإضـافـة إلى ذلك ، يفسر كثيرا من الأشيـاء التى ظلت بالنسبة لى ، حتى الآن ، دون تفسير ـ مثال الميراث الذى أوصى به بورسواردن لى . كان ذلك شعورا منـه بالذنب ، كما أعتقد ، بسبب ما عرفـه عما كانت تفعله جوستين ، بميليسا ، « بحبها » لى . بينما كـانت جوستين ، من ناحيتها ، تعمل ، فى بساطة ، على حمايته من نفوذ نسيم المحتمل (كم يبدو رقيقا ووديعا فى ضوء الشموع) . لقد قـال ، ذات مرة ، وهو يتنهد فى صـوت واهن ، « ليس هنالك ، فى مدينتا ، أيسر من تدبير ميتة إمرئ أو إختفائه».

آلاف الأحاديث تبحث عن بعضها البعض كما تبحث جذور الأشجار عن الرطوبة والبلل ـ المعانى الخافية للحياة والمتخفية ،وراء الابتسامات المتألقة، فى الأيدى التى تعصر العيون ، فى الحقد والكيد ، فى الحمى والرضا . (إن جوستين تتناول الآن إفطارها فى هدوء محاطة بخدم من رجال طوال سود البشرة، كما تتناول عشاءها تحت ضوء الشموع فى صحبة متألقة . لقد بدأت من لا شىء ـ من قارعة الطريق ـ لتغدو الآن زوجة أكثر رجال بنوك المدينة وسامة . كيف حدث هذا كله ؟ ليس فى مقدورك البتة أن تتوصل إلى ذلك وأنت تراقب هذه السمراء الرشيقة بنظراتها غير المستأنسة ، وإبتسامتها التى تكشف عن أسنانها البيضاء الرائعة .....) . ومع ذلك فإن حديثا ، واحدا ، عابرا يمكن أن يحتوى بذرة حياة بكاملها . إن بلتازار ، مثلا ، يقول وقد التقى بكليا قرب ستارة من ديباج أحمر ، وقد أمسك بكأس من البرنو ، «كليا ، إن لدى ما أود قوله لك » . وأحس ، وهو يتكلم ، بدفء شعرها الذهبى ، وجلدها المصبوغ بلون الشهد والذى يكاد يكون كالسكر المحروق نتيجة استحمامها فى البحر فى شمس الربيع الدافئة . « ماذا ؟ » . كانت عيناها الصافيتان الزرقاوان بلون زهرة الخشخاش ، تحتلان مكانهما فى رأسها كقطعتين ثمينتين قد قدتا من بهاء وجمال ، صنعة عمر صائغ . « تكلم يا عزيزى » . قال بلتازار ، وقد أحاط شعره الأسود برأسه (كان يصبغه) ، وصوته الخفيض بنقيقه الساخر المعتاد. «لقد جاء والدك لرؤيتى . إنه قلق بشأن علاقة محرمة قيل أنك قد أقمتها مع امرأة أخرى . إنتظرى ـ لا تتكلمى . ولا تبدين كمن أوقع بها الأذى » . وبدت كليا ، الآن ، وكأنه يضغط على كدمة فى جسدها . وكسا فمها الوقور الحزين تعبير طفولى ، يبتهل ألا يتدخل أبعد من ذلك . « إنه يقول أنك بريئة ، ساذجة ، وأن الأسكندرية لا تسمح للأبرياء بأن ..... » .

« أرجوك يا بلتازار » .

« ما كنت لأتكلم لولا تأثرى بصدق ألمه الشديد ـــ ليس بسبب الفضيحة ـ فمن يهتم هنا بالقيل والقال ؟ إنه قلق خشية أن يصيبك الأذى » .

وقالت كليا فى صوت خافت مضغوط ، كحزمة أفكار هصرتها آلة إلى واحد فى المائة من حجمها :

«إننى لم أنفرد بجوستين منذ شهور مضت . هل تفهم ما أعينه ؟ لقد إنتهت تلك العلاقة بإنتهاء اللوحة . وإن شئت أن نكون صديقين ، فلا تشر ، أبدا ، إلى هذا الموضوع ، مرة أخرى » . وإبتسمت إبتسامة مرتعشة ، فقد أقبلت جوستين، فى ذات اللحظة، نحوهما تنساب وعلى فمها إبتسامة دافئة نضرة . (من الممكن ، ثماما ، أن تحب هؤلاء الذين تضيرهم أكثر من غيرهم) . ومرت تتهادى فى ضوء شموع الحجرة كطائر بحرى كبير . وأخيرا جاءت إلى حيث كنت واقفا لتهمس قائلة ، « لن أستطيع الحضور الليلة ، فنسيم يريد منى أن أظل بالمنزل». إننى ما زلت أحس بثقل خيبتى لسماع كلماتها التى لم أستطع استيعابها ، وهمهمت قائلا ، « يجب أن تحضرى » . كيف لى أن أعرف أنها، قبل أقل من عشر دقائق ، قد قالت لنسيم ، وهى تعرف كراهيته للعبة البريدج ، «هل فى وسعى ، يا حبيبى، أن أذهب لألعب البريدج مع آل سيرفونى ـ هل تحتاج السيارة ؟ » . إنها بالقطع، واحدةمن تلك الأمسيات النادرة التى قَبِل فيها بورسواردن أن يلقاها فى الصحراء ـ لقاءات كانت تذهب إليها دون تردد ـ كالسائر فى نومه . لماذا يا ترى؟ لماذا ؟

كان بلتازار يقول فى تلك اللحظة ، « لقد قال والدك : « إننى لا أحتمل الفرجة على ما يجرى دون أن أدرى ماذا أفعل . إن الأمر يبدو كمن يراقب طفلا يقفز، فى خفة ، قرب جزء من آلة شديدة التأثير ، لا يحوطها ما يقى من حولها ». ولمعت الدموع فى عينيها ثم أختفت فى بطء ، مرة أخرى ، بينما كانت ترتشف شرابها، وقالت ، «لقد إنتهى هذا الأمر » . وأولت ظهرها لبلتازار ، والموضوع ، بحركة واحدة . وتحولت الآن ، بفمها المتعض ، إلى مناقشة أمور لا معنى لها مع الكونت بانوبيولا ، والذى كان ينحنى ويتأرجح ، ملاطفا ، كما يفعل ببغاء سكوبى الأخضر عندما يحط فوق المكان الذى يجثم عليه . كانت سعيدة أن ترى ما لجمالها عليه من تأثير مباشر واضح متميز ، كفيض من سهام ذهبية . وعادت جوستين تمر مرة أخرى ، وأمسكت كليا من معصمها ، فقالت كليا كمن يستفسر عن طفل مريض ، « كيف الحال ؟ » . وكست جوستين وجهها بظلام جهامة عابسة ، وهمست بطريقة تمثيلية ، « أوه كليا . الحال سىء للغاية . يا له من خطأ فادح . إن نسيم رجل رائع ـ وما كان لى أن أفعل ما فعلت ـ فأنا متبوعة

حيث ذهبت » . ورنت كل منهما إلى الأخرى ، فى تعاطف ، للحظة طالت . كان ذلك هو لقاؤهما الأول منذ زمن مضى (فى مساء ذلك اليوم ، كتب بورسواردن: « تلك كلمات قليلة متعجلة ، ليست كلها نابية ، اكتبها وأنا على فراش المرض فى ذاك المساء » . لم يكن فى الفراش . كان يجلس فى مقهى يواجه البحر مبتسما ، بينما كان يكتب .) رسائل منطوقة وأخرى مكنونة ، تتقاطع ، تتداخل ، تحمل تيارات حياتنا ، مخاوفنا ، نفاقنا وأحزاننا . إن جوستين تتحدث الآن عن زواجها الذى كان يبدو ، للعالم الخارجى ، واضح الشكل والمحتوى . ذلك القالب من جص الكمال ، والذى أحسست ، أنا نفسى ، بالحسد نحوه عندما إلتقيت بهما معا أول مرة . « إنه زواج العقول الحقيقية الصادقة » ، هذا ما فكرت فيه . ولكن ، أين يمكن وجود « ذلك الحيوان الرائع ذو الرأسين؟» . وعندما وعت جوستين ، لأول مرة ، غيرة نسيم المفرطة ، غيرة رجل عنين الروح ، أحست الجزع والفزع . لقد وقعت خطأ فى المصيدة . (كانت كليا تراقب كل ذلك، كما يراقب المرء اللوحة البيانية لمريض أصابته الحمى ، يراقبه بنظرة صداقة خالصة ، دون أى رغبة فى تجديد الحب الذى شعرت به نحو هذه اليهودية المشتتة التى لا تفهم ذاتها) .

كانت جوستين تنظر إلى الأمر على نحو آخر ، نحو أكثر بدائية . كانت تفكر بأنها قد حكمت ، دوما ، على رجالها من رائحتهم . لقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أهملت فيها استشارة حاستها . لقد كان لنسيم نقاء هواء الصحراء عديم الرائحة ، الصحراء فى الصيف جافة بلا أسرار .كان نقيا ، وكم كرهت هى النقاء! ثم ماذا فيما بعد ؟ نعم ، كان الصليب الذهبى الصغير الذى يعشعش فى شعر صدره يثير اشمئزازها . كان قبطيا ـ مسيحيا . تلك هى الطريقة التى تعمل بها عقول النساء أثناء خلوتهن . ومع ذلك فإنها ، لخجلها من أفكارها ، ضاعفت من شغفها واعتنائها بزوجها ، رغم أنها ، فيما بين القبلات ، كانت لا تتوق فى أعماقها إلا لمشاعر الترمل وما فيه من راحة وهدوء بال ! أترانى اتخيل كل هذا ؟ لا أعتقد ذلك .

كيف حدث كل الذى حدث ؟ إن فهم ذلك يقتضى عودة إلى الوراء ، عبر ما نسجه بلتازار من تعليقات جمة ،. فيما بين سطور مخطوطى ، حتى النقطة التى

قوطع فيها رسم كليا للوحة بقبلة . إنه لمن الغريب أن أتفحص اللوحة ، الآن ، وهى تنتصب ، هنالك ، غير مكتملة ، فوق رف المدفأة ، عتيق الطراز ، فى البيت الذى كان فى الجزيرة . لقد طرأت على بالها ، وهى ترسم ، فكرة لم تكن قد بلغت شفتيها بعد . ثم هبطت شفتاها ، فى رقة ، حيث كان يجب أن تهبط فرشاة الرسام الندية . قبلات ولمسات الفرشاة ـ كان الواجب يملى علىّ أن أكتب عن ميليسا المسكينة .

كم كان كل هذا الموضوع بغيضا ـ لقد أسماه بورسواردن « قبلة الرفقاء التى لا نكهة لها » ـ والتى هى بريئة للغاية ! إن القفازين الأسودين للذان كان ترتديهما فى اللوحة ، قد ترك كل منهما ـ وقد تزرر ـ حيزا صغيرا مفتوحا ، متخذا شكل القلب . وكانت تلك القبلة البريئة المضحكة ، تعبر ، فقط ، عن الإعجاب والشفقة التى أثارتها الأشياء التى كانت ترويها جوستين لها عن فقدها طفلتها ـ الطفلة التى سرقت منها ، بينماكانت تلهو قرب ضفة النهر . «لقد كان رسغاها صغيران . لو رأيتها ، لرأيت كم كانت جميلة ووديعة ، كسنجاب». كانت هنالك بحة فى صوتها ، وحزن فى عينيها ، وقد برز فمها إلى أسفل، وظهرت غمازة فى كل خد . ومدت يدها ، وقد ضمت الإبهام إلى واحد من أصابعها ، لتصور محيط رسغيها الصغيرين . وأمسكت كليا بيدها لتقبل الفتحة ، كالقلب ، فى قفازها الأسود . كانت فى الحقيقة تقبل الطفلة لا الأم . وبرزت ، من هذا التعاطف الرهيب ، براءتها على هذا النحو المهلك لحب عقيم. كيف يتسنى لى صياغة مشاهد شاملة ، أراها ، أنا نفسى ، بهذا القدر من الصعوبة ـ إن هاتين المرأتين ، الشقراء والبرونزية ، فى المرسم وقد بدأ يغشاه الظلام فى سان سابا ، بين الخرق وأوانى الألوان ولوحات الوجوه المعروضة الدافئة التى تكسو الجدران ، كبلتازار ود ا كابو ، بل وحتى نسيم ذاته أعز أصدقاء كليا ؟ إنه لمن العسير أن أصيغهم فى لون واحد متوازن حتى لا تغدو الخطوط الخارجية غامضة ضبابية .

كانت جوستين ، حينذاك ، آتية من لا مكان . وقد مثلت حيلة أعتبرها أهل الأسكندرية خدعة ذكية . كانت قد تزوجت من أجنبى يدعى أرناؤوطى ، إلا أنها لم تنل ، من وراء ذلك ، غير إزدراء المجتمع . إذ جعلته ، فى النهاية ، يطلقها

ويهجرها . أما عن الطفلة فإن قلة من الناس قد عرفت بها وحفلت بمصيرها . لم تكن جزءًا من سيدات المجتمع ، كما يقول المثل ... واضطرها الفقر ، فترة من الزمان ، إلى العمل ، بعض الوقت ، كنموذج لطلاب الفن فى المرسم ، مقابل عدة قروش للساعة الواحدة . ومرت كليا ، التى كانت تعرفها سماعا ، عبر رواق المرسم الطويل ، ذات يوم ، بينما كانت جوستين فى وضع النموذج ، فترك جمال وجهها السكندرى فيهاأثرا عميقا ، فاستأجرتها لترسم لها لوحة . وهكذا جاءت تلك الأحاديث الطويلة والرسامة صامتة . حيث كانت كليا تحب ممن ترسمه أن يتحدث بحرية ، شريطة أن يظل ساكنا بلا حراك . كان ذلك يمنح تقاطيعهم حياة من داخلهم ، ويملؤ نظراتهم بترجمات لا واعية لأفكارهم ـ ذلك هو الجمال الحقيقى ، وإلا كان موات اللحم البشرى .

كانت براءة كليا الفياضة ـ وهى ما كانت تحتاجه حتى ترى الفراغ الذى تعيشه جوستين مع أحزانها الخاصة ـ إنما هى مجرد تعبير تصويرى واقعى عن العقل عندما يكون متناقضا مع ذاته : إذ أننا نخلق بأيدينا تعاساتنا التى تحمل بصمات أصابعنا ـــ كانت الإيماءة ذاتها مجرد محاولة فجة لامتلاك التجربة الحقة ، المعاناة الحقيقية ـ كما يأمل المتوسل المبتهل انتقال النعمة التى يفتقدها عندما يلمس واحدا من أولياء الله ، لم تكن القبلة تتوقع ، بأى حال من الأحوال ، أن يرد عليها بقبلة أخرى ـ أن تكرر نفسها كانعكاس فراشة فى مرآة. إذ لو كانت مدبرة ، هكذا عمدا ، لكانت إيماءة باهظة الثمن . وهذا ما برهنت عليه كليا ، إذ أن جسدها ذاته قد ناضل ليخلص من قماطات براءته كما يناضل الطفل أو التمثال للخروج إلى الحياة من تحت أصابع الفنان أو مبضع الجراح. كان أفلاسها نتيجة شبابها الطاغى ، أما افلاس جوستين فقد كان إفلاسا لا يتحدد بعمرها . كانت براءتها عزلاء كالذاكرة . وقد وجدت ، وهى تتأمل فى أعجاب هدوء جوستين فى حزنها ، وجدت نفسها وقد تركت مع كل المرارة الشديدة لحب لم تسع إليه .

لقد كات « بيضاء القلب » ، كما تقول الجملة العربية المعبرة . وأحست فجأة، وهى ترسم حلكة رأس جوستين وكتفيها ، وكأن لمسات الفرشاة ، نفسها ، قد بدأت تحاكى مناغاة لم تفكر فيها من قبل ، أو حتى تسمح لنفسها بالتفكير فيها

أبدا . كانت تستمع إلى ذلك الصوت العميق ، وهو يعدد تلك الأحزان المحببة التى تنتمى إلى عالم التجربة الحية الفاعلة ، وقد أمسكت بأنفاسها ، بين أسنانها ، محاولة أن تفكر ، الآن فقط ، فى الدلائل العفوية ، لحسن تربية موضوعها الذى ترسمه : اليدان ساكنتان فى الحجر ، الصوت الخفيض والتحفظ الذى يحدد معالم قوة حقيقية . ومع ذلك فإنها ، بسبب عدم خبرتها ، لم تكن تملك إلا القليل، إلا الشعور بالشفقة نحو جوستين وهى تقول أشياء مثل ، « إننى لا أقدم الكثير من الخير ، كما تعلمين . لقد اعتاد أرناؤوطى أن يقول ، أننى لا أوقع بالغير غير الأحزان ..لقد أعادنى إلى رشدى وعلمنى أن لا شىء يهم غير اللذة ، واللذة نقيض السعادة ، إنها جانبها المأسوى كما أعتقد». وتأثرت كليا مما قالت، فقد وضح لها أن جوستين لم تذق البتة طعم اللذة ـ إن اللذة الحقيقية تكمن ، دون شك ، فى العطاء .

« إن أرناؤوطى كاد يدفعنى إلى الجنون بتحقيقاته الفضولية . وما خسرته كزوجة ربحته كمريضة لقد كان اهتمامه بما أسماه « حالتى » ، يتجاوز أى حب ، ربما ، كان يشعر به نحوى . وجاء فقدى لطفلتى فجعلنى امقته بينما كنت ، فيما مضى ، لا أرى فيه غير رجل عطوف شديد الحساسية. لعلك قرأت كتابه « عادات » (*) . إن الكثير مما فيه قد اخترعه ـــ حتى يرضى غروره الذاتى، ويلقى بأثقاله فوقى . إنه يرفض أن « أشفى » ، كما كان يقول ، لأنى جرحت كبرياءه . إنك لا تستطيعين أن تبثى روحا فى شظايا . فإن أنت قلت لرجل فرنسى ، « أننى لا أستطيع مضاجعتك ما لم اتخيل شجرة تمر » فإنه سيخرج ويقطع أقرب شجرة تمر يلقاها ليأتيك بها » .

كانت كليا أنبل من أن تحب إلا حبا عاطفيا حارا . كما كانت ، فى ذات الوقت،قادرة على أن تحب إنسانا ما ، لم تتحدث إليه غير مرة واحدة عبر عام. كان نهر قلبها العميق الساجى يختزن صورة، يعكسها فى أى وقت أثناء جريانه ، يجعلها تغوص فى الذاكرة إلى أعمق مما فى وسع الكثرة منا أن تفعل. إن البراءة الحقيقية لا تستطيع فعل ما هو تافه، وهى عندما تقترن بكرم القلب

(*) بالفرنسية فى الأصل .

وسماحته فإن مثل هذا التآلف هو أكثر الطبائع ، تحت السماء ، عرضة للجرح والإيذاء .

كان يمكن مقارنة هـذه التجربة الفجائية المرهقة للـذات ، بما فيها من توتر وحرارة ملتهبـة ، بتلك العواطـف المضحكة التى تكنهـا ، كثيرا ، فتيات المدارس لمدرساتهن ـ ومع ذلك فقد كان بها لمسـة من طبيعة جوستين الناضجة العتيقة (خطوط رسوم شيطانية لحب خبيرة متمرسـة ، ذلك ما كانت تفعله جوستين إزاء الذين يـواجهونها) ـــ كانت تحس حقـا ألم الشيخوخـة المتنامية : كانت روحها وجسدها يذوبان أمام المطالب التى تعلم أنها عاجزة عن تحقيقها ، والتى سـوف تمزقها إربـا . وأحست ، فى أعماقها ، بخلجـات إحساس جـديد عليهـا: إحساس بأن شيئـا فى داخلها ينفصل عنها إنفصـال المح عن البيضة . تلك هى السبل الغريبة التى يبلغ بها الناس رشدهم .

كان على العزيزة المسكينة أن تمر عبر نفس الإلتواءات السخيفة التى عبرناها جميعا ـ الإحسـاس بجسدها كحشية من جيرحى ، أطفئ ليحـرق جثة الجانى التى يخفيها . عالم اللقاءات السرية ، والنبضات والنزوات التى تُوسم المرء ، بما يميزه . كما يـُوسم بالحديد المحمى وعـالم الشكوك ـ لقـد هبطت عليها كل تلك الأحاسيس فجأة . كان تشوش عقلها هائلا ، حتى أنها كانت تجلس ، تحملق فى جوستين الأخـرى ، وقد تغيرت ، تحاول أن تتـذكر كيف بـدت حقا على الجانب الآخـر من غشـاء التحول . الغشـاوة التى تختم بها إفـروديت عيـون المحبين العليلة، نوع من العمى الكثيف المعتم المقدس .

كانت تنتابها الحمى طوال اليـوم حتى تحين اللحظة المحددة التى تلقى فيها نموذجها . كانت تقف فى الرابعة أمام باب المرسم المغلق ، حيث تستطيع أن ترى بوضـوح ذلك الركن الذى تجلس فيـه جوستين ، عندمـا تجئ ، تقلب صفحات مجلة «فوج » وتدخن، بينما تنتظر ، واضعة ساقـا على ساق. وطافت بخاطرها فكرة ، « إننى أبتهل ، إلى الله ، ألا تكون قد جاءت . أن تكون مريضة أو أن تكون قد انصرفت ـــ إننى أتمنى ، فى لهفة ، ألا أكـون مباليـة » .وأحست بالـدهشة ، أيضا، فمشاعر الاشمئزاز تلك كانت تصـدر بالدقة من ذات النبع الذى تصدر عنه الـرغبة فى أن تسمع صوتها النبيل الأبح ، مـرة أخرى ، أن ترى محبـوبتها

مرة أخـرى ! . وكان استقطـاب المشاعـر . هذا ، بفجـائيته ، يصيبهـا بالخوف والحيرة.

كانت تنتابها الرغبة ، أحيانا ، فى أن تذهب بعيدا حتى تكون أشد أنتماء ، إلى قرينتها ! يا للمسكينة الحمقاء . إنها لم تترك واحـدة من مقومات الحب العديدة إلا وخـدعت نفسها بها . وحـاولت أن ترتـد إلى ملذات أُخـر ، لتكتشف أن تلك الملذات لم يعـد لها وجود . كـانت تدرك أن القلـب تسئمه الـرتابـة ، وأن العادة واليأس يشاركان الحب فراشة . فلاذت بالصبر منتظرة ، كما تفعل امرأة عجوز للغاية ، حتى يتخلص الجسد من نوازعه ، وتنجو بنفسها من رباط ، تعرف هى الآن أنه مـا كان مسعاها . وانتظـرت دون طائل . كانت تغـوص ، كل يوم ، إلى الأعمق . ومع ذلك ، فإن كل هـذا ، قد قدم لها خـدمة قيِّمـة واحدة . أثبت لها أن مثل تلك العلاقـة لا تستجيب إلى حاجاتها التى تتسق مع طبيعتهـا ، تماما مثل الـرجل الذى يعـرف ، فى أعماقه ، منـذ الساعـة الأولى ، أنه قـد تزوج امـرأة لا تناسبه، لكن لا حيلة له إزاء ما وقع . لقد أدركت أخيرا أنها امرأة ، وأن علاقاتها تنتمى إلى عالم الرجال ـ ومنح هذا تعاستها شعورا بالارتياح العابر.

إلا أن تشوه الحقيقة كان يثير بعمق اهتمام واحـدة كانت تدرك أن بعض ما يصيب الأحساس من تشوش أمر له قيمتـه للفنانة التى فى أعماقها . « وأحست فجأة ، وهى تسير متجهـة إلى المرسم ، أنها كـالـوهم الـلاهث ، كأنها صـورة مـرسوعـة فوق قماش لـوحة . وغـدا تنفسها ألما ثم استبـد بها ، بعد لحظـة ، إحساس غامر بالهناءة والسعـادة إلى حد غدت فيه وكأنها بلاوزن ، كأنما ثقل حذائها ، فقط ، هو الذى يمسك بها إلى الأرض . بدت وكأنها يمكن ، فى أية لحظة، أن تـرفرف بعيـدا عن سطح الثرى ، مخترقـة غشاء الجاذبيـة ، عاجـزة عن التوقف . كـان هذا الشعـور حادا حتى أنها تـوقفت تستند إلى أقـرب حائط ثم تسير إلى جواره ، وقـد أنثنت منحنية ، مثل شخص فـوق ظهر سفينة تـواجه إعصارا . كـان هذا الإحسـاس يخلف لديها مشـاعر سيئة أخـرى ، كتلك التى تخلفها حلقة محماة مشدودة حول جمجمتها ، تضغطها . وصوت خفق أجنحة يدوى فى أذنيها . كانت ترقد فـوق السرير ، نصف يقظى ، نصف نائمة ، فرأت كما ترى الحالمة قرونا تنغرس فجـأة فى مخها ، تخترق عقلها . ورأت عينا الإله

منزا ، إله النور عند الفرس ، ملتهبيتين تتوهجان كنحاس أحمر .كانت ليلة رطبة تنيرها أضواء الغاز الخابية فى الحى العربى . كان الشخوص المسخرة ينتشرون بجدائلهم الطويلة المدهونة بالزيت وملابسهم المزوقة المبهرجة ، ووجوه ملائكة سود ، والرجال والنساء القادمين من الضواحى » . (إننى أنقل تلك الكلمات عن تاريخ حالة إنثى ، مريضة عقليا ، كانت تحت رعاية بلتازار ـ أصيبت بإنهيار عصبى بسبب « الحب » ـــ حب متبادل أو حب من طرف واحد . من ذا الذى يستطيع تحديد ذلك ؟ وما أهميته ؟ أن أسباب الحب والجنون متطابقة ، فيما عدا درجة هذا التطابق . كما أن هذا المسلك لا ينطبق على كليا وحدها ، إذ أنه فى الحقيقة ينطبق علينا جميعا) .

لم تكن جوستين تتحدث عن الماضى وحده ، بل وعن الحاضر أيضا ، والذى كان يثقل عليها بقرارات يجب أن تتخذ . كان كل ما تحسه كليا ، فى ذلك الوقت ، وعلى نحو ما ، لا معنى له بالنسبة لجوستين . فكما أن العاهرة قد تكون غافلة عن أن زبونها إنما هو شاعر سوف يخلدها فى قصيدة لن تقرأها أبدا ، كذلك كانت جوستين وهى تلاحق تلك اللذات الجنسية العميقة ، غير واعية بأنها قد تؤثر فى كليا ، فتضعف من قدرتها على منح حب متكامل ، حب تمنحه شبابها كما ترى ـ الأمر الذى كان يتسق وطبيعتها أكثر من أى شىء آخر . إلا أن المخلوقة البائسة لم تكن تقصد أذى . كانت ، فى بساطة ، ضحية تلك الرغبة الشرقية فى أن تمتع الأخرين ، أن تمنح صديقتها ، ذهبية الشعر ، كل ثمين لديها ، جمعته بخبرتها ، وإن كان فى جملته لا يعنى شيئا لديها . لقد منحتها كل شىء ، دون أن تدرى أى شىء . كانت، بحق ، كروح حديثة عهد بالنعم، تستجيب للحب (أيا كان مصدره) ، ولكن ، فقط ، فى إطار ما يثيره من بهجة صداقة مضنية . لم يكن جسدها يعنى أى شىء بالنسبة لها . كانت غريرة ، جمة التواضع . وكان هذا النوع من العطاء يثير الجزع بحق . كان بسيطا كالعربى . فجا ، فظا كعادة شرب الماء عند الفلاحين . إنه عطاء ولد منذ زمن طويل ، قبل أن تتشكل فكرة الحب فى نفس الأوربى الممزقة ـ والتى جعلته، معرفته بها (أو أختراعه لها)، أشد الكائنات عرضة للجراح ، ولأنواع من الجوع لا تخمدها إلا التخمة ، لكنها لا تشبع أبدا . لقد غذت تلك الفكرة أدب

التصنع والتكلف ، والتى كـان يمكن لمادتها أن تنتمى إلى الدين ـــ مجال عملها الحقيقى . كيف يمكن للإنسان أن يقول مثل تلك الأشياء ؟

هل هنالك أى قيمة ، إن نظـر إلى الأمر بمعيار آخر ، لإقـدام امرأة ، لا تدرى أين وجهتها بسبب شطحات مشاعرها ، وعذاباتها المبرحة ، وغرقها فى فيض من مخاوفها بسبب عدم إدراكها لذواتها ، إقدام كإقدام جندى يخشى الموت، فتلقى بنفسهـا فى قلب المعمعة لتصيب بـالجراح كل الذين أحبتهم ، أكثـر من غيرهم ، وأعجبت بهم ، أكثـر من غيرهم ـ كليـا وأنا وأخيرا نسيم . إن بعض النـاس قد ولدوا ليجلبوا الخير والشر بقدر أكبر مما تفعله البقيـةمنا ـ إنهم حملة أمراض ، دون وعى منهم ، ودون قدرة على الشفاء . أعتقد أنه ربما كان علينا أن نتدارس حـالهم ، فهنالك إحتمال أن يكـونوا مصـدر خلق وإبـداع ، بنفس القدر الـذى ينشرون به ما هو ظاهر من فساد وإرباك . إننى لا أجرؤ ، حتى الآن، على القول بأنها كـانت حمقاء أو بـلا أحاسيس . إننى استطيع القـول ، فقط، أنها لم تكن تدرى بماتمور بـه أعماقها. (« غمـوض ما يصـوره العقل ») . لم تستطع أن تضع إطارا محددا حول الصورة المخيفة لما تعانية من ضياع ، فى عالم يقوم على الأفعال العادية الشائعة . كـانت الهاوية التى تحيط بها ذات خاصية منفردة ـ قصـور فى القيم ، قصـور فى الإمسـاك بمعنى الأشياء، ممـا يقتل الفـرصـة ـ خـاصية هى ذاتها الفضيلـة الـوحيدة لـدخيلـة نفسها التى إكتشفت الطـريق الخاص بها لإسعادها ، والذى لا تحس فيه بالخجل لعريها . إنه من السهل علىّ الآن أن أنتقد ، إذ غدا فى وسعى أن أرى ، بصورة أعمق ، حقيقة حيرتها وحيرتى. إننى أعـرف ، أنها لابد قـد أحست بخجل مـرير للخـدعـة التى مارستهـا معى والخطر الذى عرضتنى له . كنـا نجلس ذات يوم فى مقهى الباب، نشرب العرقى ونتحدث ، عنـدما انفجرت دمـوعها وقبلت يدىّ قـائلة . « إنك رجل طيب ، طيب بحق ، وإننى لجد آسفة». آسفة لماذا ؟ لدموعهـا ؟ كنت اتحدث عن جوته . يا لى من أحمق غبى ! لقـد اعتقدت أننى ربما أكـون قد أثـرتها عندمـا كنت أعبر عن نفسى بطريقـة تثير المشاعر . لقد كنت أقـدم لها الهدايا ، وكذلك كليا، وهـو ما تفعله الآن أيضا : إلا أن الشىء الغريب فقدان كليا ، لأول مرة ، لذوقها فى أختيار التحف الفنية القديمة ، ذلك الذوق الذى تتميز به موهبة الرسامين وحساسيته .

كانت تهديها أقراط ومشابك زينة من تلك الشائعة الاستعمال السكندرية الصميمة . إننى أحار فى فهم تلك الظاهرة، إلا إن كان الحب يعنى سلب عقل المحب وأرادته ..... ربما نعم .

لم أدرك ذلك فى حينه ، مما يذكرنى بتعليق بلتازار الهامشى الجاف ، على هذا الأمر ، حيث كتب يقول . « من دأب المرء أن يتحدث بنغمة أخلاقية عالية عن هذه الأشياء ـ ولكن من ذا الذى ينتقد نفسه ، فى الحقيقة ، إن مديده يقطف تفاحة ناضجة ترقد فوق جدار دفأته الشمس ؟ إن غالبية النساء اللواتى لهن مزاج جوستين وخلفيتها لا يمتلكن شجاعة تقليدها حتى وأن كن يمتلكن حرية فعل ما تفعل . أليس ثقيلا على النفس ،بصورة ما ، أن تعانى من الأحلام أو الآلام العابرة ، حتى يجد الطبيب ، دوما ، جبينا مرتفع الحرارة وجوا محيطا يتحمل وزر الإثم ؟ لست أدرى . إذ أنه من الصعب عزل صفة أخلاقية عن ممارسة فعل إرادى . ثم هنالك ، مرة أخرى ، تلك النشوة العذبة التى تبعثها مضاجعة من هم دون المرء علما والتى تنبع من ممارسة الإفساد عن قصد وعمد ، وجر هؤلاء إلى الوحل الذى ينبعث منه الشبق والهوى وقصائد الشعر والنظريات حول الله . أعتقد أنه من الحكمة ألا يصدر الإنسان حكمًا » .

إلا أنه خارج إطار كل هذا ، فى مجال الحياة اليومية ، كانت هنالك مشكلات تحتاج جوستين فيها إلى من يطمئنها . « إننى إلى حد ما ، أحس الدهشة والرعب. لقد عرض نسيم ، الذى أعرفه بالكاد ، الزواج منى . هل لى أن أضحك، أيتها الغالية كليا ، أم أخجل ، أم كلاهما معًا » . وإبتهجت كليا ، لبراءتها ، بهذه الأنباء . فقد كان نسيم أعز أصدقائها . وبدت لها ، فجأة ، فكرة إقدامه ، بما له من رقة ومكانة ، على حمل ما فى حياة جوستين من شقاء حقيقى فكرة مبهرة ـ وحلا لكل المشاكل . إن المرء عندما يحتاج إلى من ينقذه من ورطة خلقها بنفسه لنفسه ، فهل هنالك ما هو أروع من أن يمر به فارس يمتطى صهوة جواد ؟ ووضعت جوستين يديها فوق عينيها وقالت فى صعوبة ، « للوهلة الأولى قفز قلبى وأنا أكاد أصيح . « نعم ، أوافق » . آه ، يا عزيزتى كليا ، لابد سوف تخمنين لماذا ؟ لأننى أحتاج إلى ثرائه للبحث عن الطفلة ـ حقا ، إنها لابد موجودة ، فى مكان ما ، فى طول مصر وعرضها ، وحيدة ، تعانى بشدة وربما،

أيضـا، تعامل معـاملة سيئـة » . وأخذت فى البكـاء ، ثم توقفت فجأة وقـالت فى غضب ، « لقد قلت لنسيم ، حماية لكلانا مما قد يكون فاجعة فادحة ، «ليس فى وسعى ، أبـدا ، أن أحب رجلا مثلك . ولن يكـون فى مقدورى ، أبـدا ، أن أمنحك لحظة من السعادة . شكرا لك ووداعا ».

« أواثقة أنت مما تقولين ؟ » .

« لن استخدم رجلا من أجل ثروته ، تلك والله لن أفعلها أبدًا » .

« جوستين ، ماذا تريدين ؟ » .

« الطفلة أولا . ثم الفرار من عيون هـذا العالم إلى ركن هادئ حيث يكون فى وسعى امتلاك زمام نفسى . هنالك فى شخصيتى أجـزاء كاملة لا أدرك كنهها . إننى احتاج وقتا لذلك . لقد كتب نسيم لى اليوم مرة أخرى . ماذا يريد منى ؟ إنه يعرف كل شىء عنى » .

وخطرت بعقل كليا فكرة ، « أن أخطر ما فى الكون ، حب يقوم على الشفقة » . إلا أنها طـردت الفكرة ، وسمحت لنفسهـا أن تـرى ، مرة أخـرى ، صورة هـذا الـرجل المهـذب ، الحكيم ، غير المخادع أو المرائى ، وهـو يتصـدى لوابـل بلايـا جوستين يدرءهـا عنها . هل أكون ظـالما أن عزوت موقفها هـذا إلى رغبة أخرى يمكن أن يحققهـا هـذا الحل ؟ (إنها ، على التحـديـد، الـرغبـة فى التخلص من جوستين والتحرر من مطـالب أثقلت قلبها وعقلها . وكانت كليـا قد توقفت عن الرسم تماما) . إن لطف نسيم ورقته وشخصيته السمـراء طويلة القامة والتى تتحرك فى تـرو فى دهاليز المجتمع ، كـانت فى حاجـة إلى مثل تلك المهمة. إذ كيف لفارس أن يحس بأنه قد أدى ما عليه ، إن لم تكن هنالك قلاع ، وصبايا قانطات يائسات فى حبـائلها ؟ كان ما يشغل بالهما متماثـلا ، متطابقا ، إلا فيما يختص بالحاجة إلى الحب .

قـالت كليا ، « لكن المال ليس ممـا يعتـد به » . كـانت تتحـدث عما عرفتـه ، بالدقة، عن حقيقة نسيم . كان هو ، شخصيا ، لا يبالى ، حقيقة ، بثروته الهائلة. إلا أنه يجب أن يضاف هنا أنه كان قد أقدم ، بالفعل ، على حركة نحو جوستين ، مست شغاف قلبهـا ، واستحوذت على مشـاعرها . لقـد التقيا ، أكثـر من مرة ، بطريقة رسمية ، كالشركـاء من رجال الأعمال ، فى بهو فندق سيسيل ، ليناقشا

موضـو ع هذا الزواج ، بنفس التجـرد الذى يخطط بـه السماسرة السكندريين كيفيـة الغوص فى عمليـات الأقطان . ذلك هـو الأسلوب الـذى تتبعه المدينـة فى تعامـلاتها . إننا شعب عقلانى ، دنيوى ، أقـام ، دوما ، حدا فاصـلا بين الحياة العاطفية والحيـاة العائلية . إن هذه الفروق والفـواصل إنما هى جزء من كل فى الحياة المتشابكة للبحر المتوسط ، والتى تتميز بابتذالها المثير .

قال نسيـم وهو يخفض رأسه ، وقـد اصطبغ وجهه بحمـرة الخجل ، «إننى أقترح عليك ، حتى لا يكون التفاوت فى الثروة عامـلا مؤثرا عل قرارك ، أن أقدم إليك هدية عيد ميلادك ، بحيث تمكنك فى التفكير فى نفسك ، كشخصية مستقلة تمام الاستقلال ـ أى ، فى بسـاطة ، كامرأة يا جـوستين . دعينا نتحرر من ذلك النسيج الكريه الذى يـزحف على أفكار كل من فى هذه المدينة ، يسمم كل شىء، قبل أن نقـرر أى شىء ». . ووضـع على المائدة صكا مـاليا نحيـلا أخضر اللون كتب عليه ، «ثلاثـة آلاف جنية » . وحملقت فيه جوستين ، منـدهشة ، ردحا من الزمن ، إلا أنها لم تمسسه . وأخيرا قال نسيم فى عجلة ، وهويتلعثم قلقا ، «أرجو ألا يكون ذلك قد أثار استياءك » . وقابلت جوستين ، «كلا ، إنه مثل كل ما تفعل . ولكن ما حيلتى فى انعدام حبى لك ».

« يجب ، بالطبع ، ألا تحاولى ذلك أبدًا » .

«إذن ، أى نوع من الحياة يمكن أن نحيا ؟ ».

ونظر إليهـا نسيم بعينين خجلتين حارتين ، ثـم هبط بنظرتـه إلى المنضدة ، كأنما يعانى تأنيبـا قاسيـا . وقالت جوستين بعـد برهـة صمت ، « أرجوك أن تخبرنى ، أخبرنى يا نسيم ، فأنا لا أستطيع الانتفاع بمالك وجاهك دون أن أقدم لك ، فى المقابل ، شيئًا».

فقال فى رقـة ، « إن كنت تهتمين بالمحـاولة ، فإن مـا نحتاجـه هو ألا يخدع الواحد منا الآخر . فالحياة ليست طويلة للغاية ـ والمرء مدين لنفسه بمحاولة أن يجد للسعادة سبلا ».

وتساءلت جـوستين ، فجأة ، وقد انتـابها التقزز ، رغم أن لهجته قـد أثرت فيها تأثيرا عميقا ، « هل كل ما تبغى هو مضا جعتى ؟ أن ذلك فى مقدورك . نعم،

فى مقـدورك أن تفعله . أوه ، يـا نسيم ، إننى سأفعل ، من أجلك ، أى شىء ، أى شىء».

إلا أنـه أجفل وقال ، « إننى أتحدث عن التفـاهم الذى تحتل فيـه الصداقـة والمعـرفـة مكان الحب ، حتى يأتـى هذا الحب كما آمل ، ربما خـلال عـام . من يدرى ؟ فكل الزيجات السكندرية ، فى نهايـة الأمر ، مخاطرات تجارية. يا إلهى، أية حمقاء أنت يا جوستين ألا ترين أننا قد يحتاج الواحد منا للآخر دون أن نعى تلك الحاجـة تمام الوعى ؟ إنها مسألـة تستحق المحاولـة . ربما وقف كل شىء عقبة فى طريقنا . إلا أننى لا استطيع التغلـب على فكرة أنك المرأة التى أحتاجها، دون نساء هذه المدينة كلها ، أكثر الاحتياج . هنـالك عديد من نساء قد يريدهن الرجل ، إلا أن ما يـراد من النساء غير ما يحتاج الرجل إليه . قـد أريد أخريات ، لكننى أحتاج إليك أنت ! أنت التى لا أجرؤ أن أقول عنها نفس الشىء. ما أقسى الحياة وما أسخفها » . لم يكن أحد ، من قبل ، قـد قال لها مثلما قال نسيم ـ لقد قـدم لها مشاركـة صممت فى هـدوء بارد ، نـابعـة عن نيـة نقية تمام النقـاء . ولذافإنها كان لابد وأن تثير إعجابها من زاوية هذه الرؤية فقالت فى بطء ، «إنك لست من ذاك النوع ، من الرجال ، الذى يراهن بكل شىء فى رمية واحدة حمراء سوداء(*) . إن لدينا رجال بنوك لا معين تمامـا فيما يتعلق بالأمور المالية ، وقد إشتهر عنهم ، فى ذات الـوقت ، قبح ضعفهم إن كان الأمـر يخص النساء » . ثم وضعت يدها على رسغه .

« يجب يـا عزيـزى أن تعـرض نفسك على طبيب ليفحصك . فأى تهور ذلك الذى تقدم عليه بأخذك امرأة قالت لك أنها لن تستطيع أن تحبك أبدا ؟ آه ، كلا».

ولم يقل ، على الإطلاق ، أى شىء . كان مدركـا أنها لم تكن تتوجه ، حقيقة، بكلماتها إليه : كانت جزءًا من جدل داخلى طويل تجرية هى مع ذاتها . كم بدت تقاطيع وجهها النـافرة جميلة ـ كأنما خدرتها بسـاطتها : إنها لم تكن تؤمن أن هنالك من يثمنها لذاتها، إن كان لها ذات . كـان حقا ، كما يعتقد ، مقامرًا وضع كل شىء فى دورة عجلة القمار . كـانت تقف ، الآن ، بالضبط ، على حـافة اتخاذ قرار ، كـالسائر فى نومه فـوق جرف صخرى : أتستيقظ قبل أن تقفـز ، أم تدع

(*) بالفرنسية فى الأصل :

الحلم يدوم إلى نهايتـه ؟ كانت ما تزال تحس ، لكـونها امرأة ، ضرورة أن تضع شروطا ، أن تسحب نفسها بعيدا إلى مزيد من الكتمان ، وقد تجاوزها هذا الرجل برقته الخادعة . فقالت ، « استيقظ يا نسيم » . ثم هزته بلطف .

وقال فى هدوء ، «إننى مستيقظ » .

كان المطر ، فى الخارج ، فى الميدان بنخيله التى قرضتها رياح البحر ، يتساقط رذاذا . كان اليوم هو العاشر من ذى الحجة ، أول أيام عيد الأضحى، وجماعات متناثرة من الموكب الكبير تتجمع فى أرديتها الملونة ، تحمل البيارق الحريرية الكبيرة ومجامر البخور ، شعائر الدين الذى يتشرفون بالانتساب إليه، وينشدون مقاطع من الذكر والأدعية : ذكر وأدعية النوبيين المنسية ، والتى تعيد كل عام بعثها الكبير فى جامع النبى دانيال . كان الحشد متألقا، أرقطا . بألوان بدائية . وهددت الدفوف الهواء ، بينما جاءت ، من هنا ومن هناك، عبر فترات الصمت التى كانت ترين فوق الشدو والصرخات ، الثرثرة المفاجئة للطبول الطويلة ، وجلودها تشد فى بطء فوق فحيح الجمرات . وأنّت الخيول وأنتفخت الاعلام بشعاراتها كالأشرعة فى أمسية ترصعها الأمطار . ومرت عربة محملة ببغايا الحى العربى وهن فى أردية ملونة (وقد تعالى زعيقهن وصراخهن حادا مجلجلا) ، وشباب صبغوا أنفسهم بالألوان يغنون على صرير الصنج وخربشات الآلات الوترية . كان المنظر كله بديعا زاهى الألوان كحيوان استوائى.

وقالت جوستين فى حماقة ، « نسيم ، عندى شرط واحد ـ أن ننام الليلة، بتمامها ، معًا» وتقلصت سحنته عند الجمجمة ، وصر بأسنانه وهو يقول غاضبا ، « كان يلزم أن تكونى على قدر من الذكاء يعوضك ما إفتقديه من تربية ـ إين هذا الذكاء ؟ ».

وقالت وقد رأت عمق ما سببته له ، فجأة ، من ضيق ،« إننى آسفة . لقد أحسست بحاجتى للسكينة والطمأنينة » .وشحب وجهها شحوبا شديدا.

قال وهو يعيد الصك المالى إلى حافظته ، «لقد اقترحت عليك شيئا مختلفا تمام الإختلاف . إننى ذاهل من افتقادك القدرة على الفهم والإدراك . يمكننا،بالقطع ، أن ننام معا إن كنت تبغين وضع ذلك شرطا . لنأخذ حجرة فى

فنـدق ، هنـا ، الآن ، فى تلك الـدقيقـة » . كان يبـدو رائعـا بحق عنـدمـا تجرح أحساسيه على هـذا النحو . وفجأة اهتزت أعماقها وقد أدركت أن مـا يبدو عليه من هـدوء ليس ضعفـا ، وأن هنالك حسـاسيـة ما غير عـاديـة تكمن وراء تلك الأفكار المشوشة والكلمات المتزنـة المنزوية ، والتى ربما لم يكن أيًا منها خيرا فى جملته . واستمـر فى حديثة برقـة أكثر ، « ماذا فى وسع كل منا أن يثبت لـلآخر بهذا النوم معـا أو بعكسه : أى بعدم المضـاجعة على وجـه الإطلاق ؟ » . ورأت ، الآن ، كيف كانت كلماتها باعثة على اليأس ، بعيدة عن السياق ، فقالت ، «إننى ، حقا ، خجلـة ، خجلا مريرا ، من طـريقتى الخشنة الفظة » . قـالت هذا دون أن تعنى، معانى الكلمات . كان ذلك إقرارا منها وتنازلا لعالمه ولذاته ، أيضا ، بنفس القدر ـ عـالم يتعامل مع آداب وأخلاق دمثه ، مـا تزال هى عاجزةعـن تذوقه لما جبلت عليه من فظاظة . عالم فى وسعه أن يهذب مظاهر العواطف بالتذوق . عالم لا يمكن الإنقطاع عنه ، إلا إن كنت لصيقا به ، وهكذا الحديث عنه أيضا ! كلا ، ما كانت جـوستين تعنى ما قـالت من كلمات ، إذ رغم الفظاظـة التى رددت الفكرة أصداءها ، إلا أنها كانت تعرف صواب ما قالت ، طبقا لبنود حدسها وفراستها ، فقد كان ما إقترحته ، هو فى الحقيقية ، محك حيوى للنساء لمعرفة ماهية الرجل ، طعم شخصيته ونكهته ، لا لمعرفة صفاته التى يمكن تحليلها أو استنتاجها . لا شىء ينبئنا عن حقيقة كل منا غير ممارسة الحب الجسدى . أسفت أسفا مريرا لعدم فطنتـه بانكـاره عليها فـرصة حقيقيـة كان يمكن من خـلالها أن تتعرف بنفسها عما يكمن وراء وسامته وقدرته على استماله الآخرين . ولكن كيف للمرء أن يلح فى أمر كهذا ؟

قال ، « حسنا ، بالنسبة لزواجنا فإنه سوف يظل أمرا يتسم بالرقة ، بالآداب والسلوكيات فى الأساس ، حتى ..... »

قالت ، « إننى آسفـة ، فأنا لم أعرف ، فى الحقيقـة كيف أتعامل بشرف معك، وكيف أجنبك الشعـور بالخيبـة ».وقبلها ، فى فمهـا ، قبلة خفيفة وهـو ينهض واقفـا. « يجب أن أذهب ، أولا ، إلى والدتى لأحظـى بموافقتهـا ، ثم أخبر أخى ـ إننى سعيد للغاية ، رغم أنى قد إستشطت ، الآن ، منك غضبا » .

وخـرجا معـا متوجهين إلى السيـارة . وأحست جـوستين ، فجأة ، بالـوهن

الشـديد كأنما قـد حملت بعيدا عن أعماقهـا ، وتـركت هنالك مهجـورة فى قلب المحيط . « إننى لا أعرف ماذا علىّ أن أقول أكثر من ذلك » .

قال ، وقـد بدأت السيـارة فى الابتعاد ، « لا شىء . عليك أن تبـدأى الحياة!»، فأحست وكأنها قد صفعت على فمها ، فتوجهت إلى أقرب مقهى حيث طلبت كوبا من الشيكولاتـة الساخنة التى شربتهـا بيدين مرتعشتين ، ثم مشطت شعـرها وزينت وجهها . كانت تعرف أن جمالها إنما هو مجرد إعلان،فاختفظت به نضرا مترفعا . كلا ، إنها ، فى مكان ما فى أعماقها ، امرأة حقيقية .

واتخذ نسيم المصعـد إلى مكتبـة ، حيث جلس يكتب الكلمات التـالية فـوق إحدى البطاقات ، « كليا العزيزة . لقد وافقت جوستين على الزواج منى . ماكنت أقدم على ذلك لوجـال بخاطرى أن ذلك سوف يؤثـر ، بأى صورة من الصور ، على حبها وحبى لك ..... » .

إلا أنه فزع من فكـرة ، أنه مهما كان ما يكتبه لكليا فهو شـىء تافة ومقزز . فمزق البطاقة وطوى ذراعية . ثم تنـاول الهاتف المصقول ، بعد فترة طويلة من التأمل والتفكير ،أدار القرص طالبـا رقـم كابـود يستريا ، وقـال فـى هـدوء ، «دا كابو، هل تتـذكر خططى للزواج من جوستين . إن كـل شىء على ما يرام » . ووضـع السماعـة فى بطء وكأنها ثقلا يـزن طنـا . ثم جلس يحملق فى صورتـه المنعكسة فى مكتبه اللامع المصقول .

* * *

ـ ٤ ـ

أنجـز نسيم المهمـة الكبرى باقنـاع جـوستين ، وهنا أحـس بثقته فى نفسـه تهجره، تتركه وجها لوجه أمام إحساس جديد تمام الجدة عليه ، ألا وهو الخجل الشـديد والإحجـام الشديـد عن مواجهـة أمه مبـاشرة ومجابهتها بما إنتـوى. وأصابه هذا لإحساس بالحيرة ، فقد كانا ، دوما ، قريبين من بعضهما البعض ، تربطهما مودة عميقة لا تحتاج إلى الكلمات للتعبير عنهـا . وهو إن إنتابه الخجل أو الحرج يوما ، فلم يكن ذلك أبدا فى مواجهتها ، لكنه كان فى مواجهة أخيه الفظ الغليظ . ما الـدافع لهذا الإحساس ، الآن ، وهو لا يخاف أن تستنكر أمـه نيته ـ فقد كان يعلم أنه ما أن يفصـح عن رغبته حتى توافق عليها ؟ ما الذى كان يثبط عزيمتـه ؟ لم يكن يدرى . وهـو ، رغم ذلك ، يحس حمرة الخجل ، عندمـا يفكر فيها الآن . وأمضى كل ذاك الصباح فى أفعال آلية مضطربة ، إذ تناول رواية ثم ألقى بها جانبـا ، مزج شرابا ولم يشربه. بـدأ يرسم إلا أنه ألقى بـالفحم وخرج يسير فى حديقة المنزل الكبير ، قلقا منزعج الخاطر . كان قد اتصل هاتفيا بمكتبه يخبرهم أنـه منحرف الصحـة ، إلا أنه بـدأ، بالفعل ، يعـانى عسر الهضم ، كما يحدث له ، دوما ، إن قال كذبا .

سـأل عن رقم المنزل الـريفى القـديم حيث تعيش ليلى وناروز إلا أنـه غير نيته، وسأل عامل الهاتف أن يوصله بجاراجه ، حيث أخبروه أن سيارته سوف تعود عند الظهيرة وقد شحمت وتم تنظيفها . فـاستلقى وقد غطى عينيه بيديه . ثم دق الجرس ، يستـدعى سليم سكـرتيره الخاص .. ليطلب منـه أن يتصل هاتفيا بأخيـه يخبره أنه قادم إلى كرم أبو جيرج لتمضيه عطلـة نهاية الأسبوع هناك . يـاللسماوات ! ما الـذى يمكن أن يكون سلـوكا طبيعيـا أكثر مـن هذا ؟ «سوف تكون كوصيفة تمت خطبتها » ، هذا ما قاله لنفسه جادا . ثم عاد يفكر، للحظة ، فى أن يصطحب معه من يخفف عنه وطأة هذا اللقاء ـ أتكون جوستين ؟

كان ذلك مـن المحال . تناول روايـة لبورسـواردن وأخذ يقلبها حتـى بلغ فقرة تقول، «إن الحب أشبـه بحرب الخنادق ـ إنك لا تستطيع أن تـرى العدو ، لكنك تعرف أنه قابع هناك ، وأنه من الحكمة أن تبقى رأسك خفيضة ».

دق جرس البـاب . كان سليم وقد أحضر لـه بعض الخطابات لتـوقيعها ثم صعد إلى الطابق الثانى ليحزم حقيبته وحافظة أوراقه . كانت هنالك أوراق يلزم أخذها إلى ناروز ليراها ـ أوراق تتعلق بماكينة الرفع اللازمة لتجفيف الصحراء التى تتـاخم مزارعهم واستصـلاحها. كانـت الأمور المتعلقة بـالعمل هى دواءه الشـافى.

كـانت ثـروات الحصـانى تتـوزع فى إتجاهين ينفصـلان إلى مجالين من المسئوليـة ، حيث يقع كل مجال ومسئولية على عـاتق واحد من الأخـوين . كان نسيم يدير المصرف الرئيسى وفروعه الثانوية على امتداد البحر المتوسط، بينما كان نـاروز يعيش حيـاة كبار الملاك الأقباط ، لا يتـزحزح البتـة عن كـرم أبو جيرج، حيث تحد أطـراف الصحـراء أراضى الحصنـانى ، التى راحت تأكلهـا بالتـدريج ، تنتزع منهـا ، عامـا بعد عـام ،أجزاء تنتشر فيهـا زراعات الخروب والبطيخ والغلال ، وتضخ منها الأملاح التى تفسدها وتسممها.

قال السكرتير ، وقد عاد بوجهـه الذى يماثل وجه الصقر ، « جاءت السيارة. هل أقـوم بقيادتها يا سيـدى ؟ » . هز نسيم رأسـه وصرفه فى هـدوء ، ثم قطع الحديقة مرة أخرى ، واضعا يده على ذقنه ، حيث توقف إلى جوار بركة الزنابق، يتأمل الأسماك ـ لعبة الأباطرة اليابانيين غـالية الثمن ،وقد تواصلت منذ القدم، منذ زمن الترف والرفاهية ، وهو قد استوردها بمثل هذا الثمن لتموت بالتدريج من مـرض غـامض مجهـول ـــ ربما كان الشـوق والحنين إلى الـوطن ؟ كـان بورسـواردن يمضى الساعات يرقبهـا ـ كانت تعاونـه ، كما قـال ، على التفكير فـى الفن !

ووقفت السيارة الكبيرة الفضيـة أمام الباب ، ومفتاح الإشعـال فى موضعه. دخلها وهـو يفكر فى إمعـان ، ثم ساق فى بـطء عبر المدينة ، يتفحص حـدائقها ، ميادينها ومبانيها بعين آمنه وادعـة ، متباطئا عن عمد ، مترددا ، يحاول ، بوعى منه ، أن يبعد عن ذهنـه فكرة وجهته ومقصده كلما حومت حـوله . وما أن بلغ

البحر حتى استدار عبر الكورنيش ، اللامع فى ضوء الشمس ، ليرقب ، للحظة، البحر الناعم والسماء الخالية من الغيوم ، وقد كادت السيارة أن تتوقف . فجأة غير سرعة السيارة وبدأ ينطلق ، بخطى أكثر تصميما، فى حزاء البحر . لقد كان يتجه إلى منزله .

ما لبث أن استدار إلى الداخل تاركا المدينة بنخيلها يطقطق فى رياح الربيع، متجها نحو شبكة الفوالق القاحلة وطبقات البرك والبحيرات التى جففت ، حيث إنتهى الطريق الحجرى وحلت محله تربة بنية تمتد بحزاء حواجز مستنقعات سود ، تتاخمها نباتات الغاب والبوص كثيرة الأشواك ، وزراعات الأذرة الصفراء البازغة فى صفوف متقاطعة . وثار الغبار ، فيما بين العجلات ، ملأ هواء صالون السيارة ، مغطيا كل شىء بذرات رقيقة أشبه بحبات اللقاح . كذا تكاثف بالتدريج فوق زجاج السيارة الأمامى كطبقة من جليد ، فأدار المساحتين حتى يظل الزجاج صافيا .

اتبع دروبا صغيرة متعرجة ، كان يعرفها عن ظهر قلب ، حتى بلغ ، بعد ما يزيد عن الساعة ، طرف لسان تحيط به مياه تميل إلى الزرقة ، حيث ترك السيارة فى ظل بيت متداع ، ربما كان بقايا مبنى جمرك قديم ، أقيم زمن أن كان يجرى النقل البحرى فيما بين دمياط والخليج ، وقد أخذ الآن ينضب ، يوما بعد يوم ، يتآكل ، يتشقق تحت السماء المصرية اللافحة ، وقد نسيه المسئولون عن الحفاظ عليه .

أغلق السيارة بعناية ، ثم سار فى ممر ضيق عبر صفوف نبتات فول هزيلة وبطيخ غطته الأتربة ، تتاخمها زراعات الأذرة الهندية بأوراقها المشرشرة الصاخبة ، ليصل إلى مرسى سفن حيث كان فى إنتظاره رجل المعدية بقارب متهالك . رأى الخيول تنتظره على الجانب الآخر وقد وقف ناروز ، بقامته التى تبدو قصيرة ، إلى جوارها . وما أن رأى نسيم حتى لوح بذراعه مرحبا مرتبكا مبتهجا . خطا نسيم إلى القارب وقد تعالت نبضات قلبه .

« ناروز » . وتعانق الأخوان اللذان كانا جد مختلفين فى المظهر والبنية الجسدية ، وشعور ميز نسيم تمثل فى ألم ممض صامت صادر عن إحساس بالخجل جديد عليه .

كان الأخ الأصغر أقصر ، لكنه أمتن بنيانا من نسيم ، يرتدى قميصا ريفيا فرنسيا أزرق اللون مفتوحا عند الرقبة ، وقد ثنى أكمامه كاشفا عن ساعدين ويدين قويتين للغاية ، وقد غطاها الشعر الأسمر المجعد . كان يتمنطق بحزام جراب خرطوش ، أو طلقات ، قديم إيطالى الصنع يتدلى على ردفية . سرواله تركى منتفخ بخطوط أربطة عتيقة الطراز ، وقد حشيت أطرافه فى حذاء بال ناعم الجلد يصل إلى ما فوق الركبة . واندفع متحمسا مرتبكا إلى ذراعى أخيه ، ثم إرتد ثانية كملاكم يتفادى قبضة . إلا أنه ما أن رفع رأسه لينظر إلى نسيم حتى أصبح فى إمكانك أن ترى ، فى الحال ، ذلك الشىء الذى حكم حياة ناروز كنجمة داكنة . كانت شفته العليا مشقوقة من بدايتها حتى الأنف — وكأنها قد تلقت لطمه مرعبة : كان أشرم الشفة ، لم يتداركها أحد ويخيطها فى حينه . كانت تكشف عن سن بيضاء وتنتهى بشفرتين صغيرتين ، مبتلتين على الدوام، من لحم وردى فى وسط شفته العليا . وكان شعره مجعدا داكنا ، يتدلى على جبينه ، كما يتدلى شعر عِجلة البقر . كانت عيناه رائعتان : زرقاوان ، طاهرتان ، بريئتان مما جعلهما قريبتا الشبه بعين كليا: كان كل قبحه يستمد بهاءه وروعته ، حقا، منهما ، كان قد أطلق شاربا أشعثا غير متناسق فوق شفته العليا ، فبدا كمن إستنبت لبلابا فوق حائط قبيح — إلا أن الندبة كانت تبين حيثما كان الشعر خفيفا : أما لحيته القصيرة المجدبة ، فقد كانت تبدو ، أيضا ، كلحية تنكرية رديئة : بدت وكأنه قد تركها ، دون حلاقة ، منذ أسبوع واحد . لم يكن لها شكلها الخاص ، كانت تتداخل مع خطوط رقبته الشبيهة برقبة الثور وعظام وجنتيه الناتئتين . كانت له ضحكته الغريبة الخجولة التى تبدو كالفحيح ، مما جعله يتجه بها دوما نحو الأرض . كانت كل حركاته مضطربة ـ فذراعاه وساقاه مقوسة ، بعض الشىء ، وقد كساها الشعر كالعنكبوت ـ إلا أنها تعطى إنطباعا بقوة طاغية خاضعة لسيطرة قاسية . كان صوته عميقا مثيرا به شىء ما من سحر المرأة خفيضة الصوت.

كانا يحاولان كلما إلتقيا ، أن يكون معهما ، ما دام ذلك فى وسعهما ، بعض الخدم أو الأصدقاء ، حتى يخفف وجودهم من خجلهما . لهذا أحضر ناروز معه وكيله « على » ليلقاه ، مع الخيل ، عند المعدية وانحى الخادم العجوز مقطوع

الأذنين ليأخذ قبضة تراب من الأرض ، أمام قدمى نسيم ، وليضغطها إلى جبينه قبل أن يمد ذراعه يصافحه . ثم شارك ، على إستحياء ، فى العناق الذى أقدم عليه نسيم ـ باعتباره إنسانا أحبه منذ طفولته حتى الآن . واعجبت ناروز لفتة أخيه التى اتسمت بمشاعر البساطة والرفاقية ـ فضحك فى سعادة وقد أحنى رأسه إلى الأرض .

قال نسيم . فى صوت خفيض ، وهو يمر بأصابعه فوق فوديه ، «وماذا عن ليلى ؟» . قال ناروز فى نغمة كتلك التى تنطلق من قوس مشدود لتوه ، «إنها ، خلال هذين الشهرين الأخيرين ، فى حالة طيبة ، والحمد لله ».

كانت ، أمهما ، تمر ، أحيانا ، بفترات من عدم الاستقرار العقلى ، تمتد أسابيعا، ثم تعود ، دوما ، إلى الشفاء مرة أخرى . كان ذلك إقرارا بحقيقة لم تعد تثير دهشة أحد ، حتى هى نفسها تعرف الآن تلك النوبة عند إقبالها ، فتستعد لها . وهى ، فى مثل تلك الأوقات ، تقضى اليوم بطوله فى الكوخ الصغير الواقع عند نهاية حديقة الزهور ، تقرأ وتكتب الخطابات المطولة لماونت أوليف الذى يقرأها بحنان بالغ حيثما كان فى اليابان أوفنلندا أوبيرو . كانت تظل وحدها ومعها حية الكوبرا ، فقط ، فى صحبتها حتى ينصرف تأثير العفريت أوالروح التى تحل بها . لقد دامت هذه العادة ، حتى الآن ، أعواما عديدة ، منذ وفاة والدهما ومرضها ، ولم يعد أىّ من الإبنين يبالى بتلك التحولات عن مجرى الحياة الطبيعية فى الدار الكبيرة . قال ناروز ، مرة أخرى، فى ذلك الصوت المثير، « إن ليلى فى حالة عقلية طيبة . إنها ، أيضا ، سعيدة للغاية ، فماونت أوليف يرد على رسائلها . إنها تبدو أصغر عمرًا ».

« لقد فهمت ».

امتطى الأخوان جواديهما وبدءا السير فى بطء على امتداد شبكة الجسور والممرات التى تقودهما فوق بركة بما يحيط بها من مسطحات مزروعة . كان نسيم يحب ، دوما ، هذا الطريق الذى يبعث فيه طفولته الحقيقية ـ والتى كان تنوعها أكثر ثراء بكثير من تلك السنوات القليلة التى قضاها فى البيت فى أبو قير، والذى إنتقلت إليه ليلى ، مدة من الزمان ، بعد وفاة والدهما . صاح نسيم ، «كل مضخاتك الرافعة سوف تكون هنا فى الشهر القادم » . وضحك ناروز فى

سعادة. إلا أن جزءًا آخر من عقل نسيم كان ينساب إلى الوراء ، مباشرة ، إلى الكنوز التى تعيها ذاكرة طفولته ، فى هذا المكان ، والتى أيقظتها تلك السدود الترابية الناعمة السوداء التى تفصل مربعات الأرض الزراعية . كانت تلك هى مصر الحقيقية ـــ مصر القبط ـــ بينما كانت المدينة البيضاء ، كطيف عفره الغبار،ملأى بصور مزعجة لأراض غريبة عنها ـ لصيقة باليونان وسوريا وتونس.

كان النهار بديعا ، وقوارب النقل تنساب بين حقول الفول نحو روافد النهر، بصواريها الطويلة المعقوفة كالأشواك ، وقلوعها المثلثة المحنية كالأقواس الدافقة ـ ونرتى فى مكان ما ، يغنى تصاحبه نقرات طبل ، يمتزج صوته بزفرات السواقى، وطرقات صناع العربات والنجارين ، فى القرية البعيدة ، وهم يصنعون عجلات ، كالأقراص ، للعربات أو المحاريث قصيرة النصال والتى تستخدم فى حرث ضفة النهر الغرينية .

والطيور صائدة الأسماك تلمع متألقة فوق المياه الضحلة كالصواعق بأجنحة خفيفة سريعة ، بينما تطير البوم بنية اللون ، هنا وهناك ، بين ضفتى النهر ، وقد نسيت عادات أجناسها الليلية ، أو تقبع أزواجا صامته فى عشوشها بين الأشجار .وانبسطت الحقول ، على جانبى الموكب ، خضراء تفوح بعطر زراعات البرسيم والفول . والطريق يتتابع راسخا على امتداد ضفة النهر، حتى أن إنعكاسات صورهما كانت ترافقهما أثناء السير . وكفور ، هنا وهناك ، بيوتها من طوب لبنى تغطيها أسقفت مسطحة لامعة من أعواد الذرة الهندية فأضفت عليها صفار لونها . كانا يمران ، من حين لآخر ، بصف من الجمال الهابطة ، نحو المعدية ، أو بقطيع من الجاموس الضخم الأسود اللون وقد دفع بمناخره اللامعة فى المياه الناشعة الراكدة القذرة ، يذب الذباب من فوق جلده بذيول ثقيلة ، وقرونه الضخمة المعقوفة تبدو وكأنها تنتمى إلى لوحات ، حوائط، منسية .

وأحس نسيم بدهشة وسعادة ، وهو يتجه نحو أملاك الحصنانى ، فالحياة هنا تسير فى بطء شديد ـ نساء يمخضن جلود الماعز المعلقة فوق حوامل ثلاثية من عيدان الخيزران ، أو يسرن فى سرب إلى النهر يحملن جرارهن . ورجال فى

أردية قطنيـة زرقاء يغنـون عند السـواقى ،ونسوة تجاوزن سن الشبـاب وقد التفعن من قمة الـرأس إلى أخمص القدم فى مـلابس خفيفة سـوداء مترية ، كما تقتضى التقاليد والأعراف ، وعليها خرزات زرقاء درءًا لعين الشر ومنعا للحسد. وهنالك كل تلك المجامـلات البدائية المتبادلـة بين المارة على الطريق ، والتى كان يرد عليها ناروز فى صوت معبر رنان ، ينتمى إلى اللغة بقدر ما ينتمى إلى المكان : كـا ن يصيح مبتهجـا « نهارك سعيد » أو « سعيـدة مبـارك »(*) ، بينما المارة يبتسمون ويحيـونهما . وعبرت بخاطر نسيم تـرجمة تلك المعانى ، وهـو يومئ برأسه مبتسما ، وقد غمرته روعة تلك التحايا العتيقة والتى لا يسمعها الإنسان أبدا إلا فى الحى العربـى من المدينة : « فليبارك الرب يومـك » أو « فليبارك الرب اليوم كما بارك الأمس » .

استدار وهو يقـول ، « ناروز » . فسار أخوه إلى جواره فى رقـة وهو يقول : «هل رأيت سوطى » . ثم ضحك ، مـرة أخرى ، خافضـا رأسه وقد بـانت سنته خلال شق شفتيـه . كان يحمل سوطـا فاخرا مصنـوعا من جلد فـرس النهر ، ملفوفا لفا غير محكم على مقدم سرج حصانة : « لقد وجدت السوط الأمثل ـ بعد سنين ثلاث . لقد أرسله لى الشيخ بدوى من أسـوان . هل تعرفه ؟ » . رفع عينيه الـلامعتين الزرقـاوين إلى أعلى للحظة متفـرسا بفـرحة طـاغية فى عينى أخيـه الداكنتين . ثم قال كطفل هزه الإنفعال والطرب ، « إنه ، على أى حال ، أفضل من مسدس عيار ٩٩ . لقد كنت أتدرب عليه تدريبا شاقا ـ أتود أن ترى ؟ » .

أحنى رأسه دون إنتظار رد على ما قال ، ثم سار بجواده خببا إلى الأمام، إلى حيث كانت بعض الدجـاجات تخدش الأرض العارية قرب كوخ أحـد الرعاة، و جرى أحـد الديكـة وقد أصابـه الفزع ، أكثر من غيره ، فـانفرد بـه بين سنابك حصانـة . توقف نسيم يـرقب ما يجرى . وانطلق ذراع نـاروز إلى أعلى وانفرط السوط الطويل بطيئا فى الهواء ، ثم هوى فى ضربة فجائيةقاسية كئيبة الصوت، كلطمة غـاضبة ، ثم ترجل ضـاحكا يلتقط المخلوق الممـزق الذى كان مـا يزال يرتجف دافئا ، يكـاد جناحاه أن ينفصلا عن جسده، وقـد تهشمت رأسه . عاد به، إلى نسيم ، ظـافرا ، يمسح يـده ، دون إكتراث ،فى سرواله ، وقـال ، «ما رأيك

(*) كتبت فى الأصل عربية بحروف لاتينية .

فيما فعلت ؟ » أمسك نسيم بالسوط الطويل فى قبضته معجبا ، بينما ألقى أخوه بالصيد الميت إلى وكيله وهو ما يزال يضحك ، ثم عاد يمتطى جواده فى بطء . وسارا جنبا إلى جنب ، وكأن التعويذة التى تفصل إتصالهما قد تحطمت . وأخذ نسيم يتحدث عن الماكينة الجديدة التى أمر بشرائها. واستمع إلى معركة ناروز مع الجدب والجفاف وزحف الرمال السافية . كانا ينسيان نفسيهما ويتصرفان على سجيتهما عند الحديث فى مثل تلك الموضوعات التى لا يختلفان حولها .كانت مثل تلك الموضوعات تقربهما أشد القرب . كانا كأعميين يتبادلان الحب ، ولا وسيلة للتعبير عن نفسيهما إلا اللمس : أداة أيديهما .

بدت الأراضى حولهما أكثر ثراء وقد زرعت بنبات الإثل والخروب ، رغم أنهما كانا يعبران هنا وهناك ، بأملاك هجرها أصحابها ، إما لفقرهم الشديد أو لكسلهم الشديد فى أن يجاهدوا الصحارى التى أحاطت بالشريط الخصب من جهات ثلاث . كانت المنازل المتداعية خربة مهجورة ، تغطيها النباتات ، تحملق فى الماء بنوافذ خلت من أطرها وأبواب تحطمت وتكسرت . كانت بوابات مداخلها تكاد تخنقها نباتات الجهنمية ، صدئة تفتح على حدائق ذات جمال برى أشعت ، حيث النافورات الرخامية والتماثيل النخرة ما زالت شاهدة على مجد كان عندما بارحها أهلها . كان فى وسع المرء أن يرى الأراضى على جانبى الطريق ، بأشجارها الباسقة من النخيل والسنط والجميز ، التى تقوم على حماية الحياة ، المحفوفة بالمخاطر ، و التى ستفنى إن لم يتوفر لها الظل والماء، فتعود إلى الصحراء ، التى يحس بها المرء حقا وإن لم يكن فى مقدوره رؤيتها ـ صحراء بلا مذاق كرقائق هشة .

هنا جزيرة قديمة بها قصر غدا أنقاضا ، وممرات وقنوات مائية متعرجة حيث تعمل بها مراكب نهرية ، نحيلة ، أشبه بالطيور ، تنقل حمولات «التبن» (*). إنهما يقتربان الآن من القرية . وجسر ينهض عاليا ،فوق الضفاف الطينية ، تتوجه أيكة من نخيل ، وفى القرب منه صف من قوارب ملونة فى انتظار رفع السلسلة . هنا ، من هذا الارتفاع ، يمكن أن يلمح المرء للحظة أفق الصحراء الأزرق الغائم الساحر يرقد خلف هذا الشريط الذى يختزن قدرا كبيرا من الماء والنبت الأخضر .

(*) فى الأصل عربية بحروف لاتينية.

كـان فى إنتظـارهما ، عنـد أحـد المنعطفـات ، جمع من القـرويين ، هـللوا صائحين، « شرفتـم القرية » و « حلـت البركات» ، وسـاروا إلى جانبهما ، وهما يبتسمان ، وتقدم البعض من الأعيـان يمسكون باليـد يقبلونها ، بل وحتى لثم البعض ركـاب سرج نسيم .وهكـذا عبرا القـريـة التى تطل على بقـع من ميـاه زمردية، تشرف عليها مآذن رشيقة أشبه بثمرة التين ، القباب المبهرة العنقودية الأشبة بخلايا النحل التى تتميز بها كنـائس الأجداد القبطية . واستدار الطريق من هنـا ، مرة أخرى ، ليمـر عبر الحقول إلى الـدار الكبيرة التى خضب الطقس جدرانها الخارجية ، فتداعت وتحطمت أجزاء كثيرة منها بفعل الرطوبة ، وغطت أجزاء أخرى نقوش رسمها المتطيرون رقية تبعد «العفاريت»(*) ـ تمائم سوداء خطية أو عبـارة « بسم الله مـاشاء الله »(*) . لقد أقام سكان الـدار ، إرضاء للقرويين الأتقياء ، طواحين هواء خشبية صغيرة ، عند أركان الجدار ، على هيئة رجال بأذرع دوارة ، حتى تفـزع « العفاريت»(*)، وتدفعها بعيدا . كان هذا هو منزلهما فى ضيعة أبو جيرج .

كان ، أمين ، ناظر العزبة فى إنتظارهما عند البوابة الخارجية ، يستقبلهما، فى صـوت عميق بتلك التحايـا الى تتطلبها التقـاليـد والعادات ، وقـد أحاطت بـه مجموعـة من الصبيـة الخجولين ليمسكوا بـالجوادين ويعـاونوا راكبيهما على الترجل.

كانت البوابة الكبيرة لباحة الدار ، بمسـاميرها المكبوسة وألواحها المنقوشة، مفتوحة المصاريع ، حتى يستطيعون الدخول مباشرة إلى الفناء حيث بنى المنزل ذاته من طابقين ـ الطـابق الأول هوا لمضيفة التى تطل من الجانبين على أقواس ذات قبـاب ، وبـاحـة بها صـوامـع الغـلال ، وغـرف الأستقبـال ، والمخـازن والاسطبـلات . لم يتخط نسيم العتبـة قبل أن ينظر بـامعـان ، مرة أخـرى إلى النقـوش الشاحبـة ، و التى ما تـزال مـرئية تـزين الجانب الأيمن من المدخل ـ تصـور ، فى تسلسل ، أقرب للكتـابات الهيروغلـوفية ، رحلتـه المقدسـة إلى نهر الأردن لـلاستحمام فيـه : حصـان وسيـارة وسفينـة وطـائرة ، كلهـا رسمت

(*) كتبت فى الأصل عربية بحروف لاتينية

بطريقة فظة فجة . وتمتم بعض المقاطع الدالة على الورع والتقوى ، فتبسمت مجموعة الخدم الصغيرة فى رضا ، وقد أدركوا ، من هذا التصرف ، أن إقامته الطويلة فى المدينة لم تنسه طرائق الحياة فى القرية . لم يكن ينسى فعل ذلك البتة. كان أشبه بامرئ يبرز جواز سفره . وأحس ناروز ،أيضا ، بالامتنان لماتعبر عنه هذه اللفتة من لياقة وكياسة ـ فهى لم تحبب أخيه لخدم المنزل فقط، بل عززت ، أيضا ،مكانته كالسيد الآمر الناهى .

وكانت هنالك على الجانب الآخر من المدخل مجموعة أخرى من الرسوم تبين أن الأخ الأصغر قد قام ، أيضا ، بنفس الحج المقدس والذى هو واجب محتم على كل قبطى متمسك باهداب الدين ومبادئه .

وانتصب على كل جانب من جانبى البوابة الرئيسية برج حمام أشبه بعامود قبيح المنظر مبنى من قوارير فخارية ألصقت بالطين ، ببعضها البعض، كيفما اتفق . وتميز تلك الأبراج بيوت القرى المصرية ، حيث تمد مائدة كبير ملاك الناحية بأفضل أطباق الطعام وأشهاها . وكانت سحابة من حمام ترفرف وتهدل طوال اليوم فوق صحن الدار بأقبيته التى تشبه البراميل. النشاط هنا متصل لا يتوقف : الحارس الليلى الزنجى ، «الخفراء »(*)، الوكلاء والخولية وقد توالوا واحدا بعد الأمر ، يحيون الأخ الوارث الأكبر . وقدمت له طاسة نبيذ وباقة ورد بينما وقف ناروز مبتسما فى فخار .

سارا معا بخطى أشبه بالمراسم عبر الإيوان بنوافذة الزجاجية عديدة الألوان وقد إنعسكت عليهما ،فأظهرتهما للحظة كمهرجين . وخرجا من الإيوان إلى حديقة الزهور بتعريشتها الشعثاء وممراتها المتعرجة التى تقود إلى المنزل الصيفى الصغير ، حيث جلست ليلى تقرأ سافرة دون حجاب . ونادى ناروز باسمها ينبهها ، وقد اقتربا ، ثم أضاف قائلا، « خمنى ، من جاء معى؟» وللحال أسرعت المرأة تعيد وضع خمارها ملتفتة ، بعينيها الداكنتين الحكيمتين ، نحوا لباب الذى أضاءته أشعة الشمس ، وهى تقول ، « إن الصبى لم يحضر اللبن ، مرة أخرى . إننى أود أن تخبره بذلك يا ناروز . إنه لا عقل له . إن الحية

(*) كتبت فى الأصل عربية بحروف لاتينية

يجب أن تطعم باستمرار وإلا انحرف مزاجها » . ثم تعثر صوتها وهبط، كطائر حاد عن مساره فى قلب الهواء ، وانخفض إلى نغمة ثرية بالعذوبة، أقرب إلى شهقة النحيب ، وهى تنطق إسم « نسيم » . وكررت الاسم مرتين وهما يتعانقان برقة مرتعشة أثارت ضحك ناروز ، وهو يبتلع ريقه متذوقا فرحة أخيه بحب ليلى ، ومرارته هو لإدراكه أن نسيم هو إبنها الأثير لديها ــ إبنها الجميل . لم يحس الغيرة نحو نسيم ، أحس بالإكتئاب ، فقط ، لتلك النغمة العذبة فى صوت أمه ــ نغمة لم تستعملها قط وهى تتحدث إليه ـ لقد كانت دوما هكذا .

قال ، «سوف أتحدث مع الصبى » . وتلفت حوله باحثا عن آثار الحية . إن المصريين يعتبرون الحية ضيفا يحمل اليمن إلى المنزل الذى تقبل عليه فلا يقتلونها حتى لا يحل بهم سوء الطالع . وما كانت تكتمل مناجاة ليلى الطويلة لنفسها ، فى المنزل الصيفى الصغير ، دون هذه الكوبرا الكسول والتى تعلمت كيف تشرب اللبن من طبق كما تفعل القطط .

جلسا معا ، وما زالت أيديهما متشابكة ، وبدأ نسيم الحديث فى أمور سياسية ، بينما تلك العينين الذكيتين الشابتين تنظران بثبات فى عينيه . كانت ليلى تومئ برأسها بشدة وتصميم ، ما بين الحين والحين ، بينما الابن الأصغر يرقب كلاهما فى نهم وأعجاب بالطريقة الموجزة التى يلخص بها نسيم أفكاره ويعبر عنها ـ نتيجة ممارسته الطويلة للحياة العامة . وأحس ناروز بهذه الاستخلاصات تقع على أذنه ثقيله الفهم ، مشحونة بمعان ليس فى وسعه أن يخمن أكثر من نصفها . ورغم أدراكه أنها تعنيه بقدر ما تعنى أى أمرئ، فإنها بدت له وكأنها تنتمى إلى عالم ما نادر الوجود ، يقطنه السفسطائيون وعلماء الرياضيات ـ كائنات يمكن أن تصيغ وتعرب على أشواقه المبهمة ، ورغباته المشوشة ، التى يحسها تتشكل فى أعماقه كلما ذكرت مصر أو أملاك الأسرة . وجلس إلى جوارهما يستمع ، يمص مفصل سبابته ، ينظر إلى أمه ثم يعاود النظر إلى نسيم .

(*)كتبت فى الأصل عربية بحروف لاتينية

وأنهى نسيم حديثه قائلا ، « إن ما ونت أوليف فى طريقة ، الآن ، إلى العودة . ولسوف يكون مـا نحاول فعله ، مفهومـا لأول مرة . سيساعدنـا ، بالقطع ، إن كان ذلك ممكنا . إنه يدرك ما نفعل » .

كان لذكر اسم ما ونت أوليف وقع مزدوج . فقد أرخت المرأة عينيها ، ناظرة فى يديها البيضاوتين الـراقدتين أمامها فـوق خطاب لم ينته غير نصفه ـــ كانت عينـاها مكحلتين ببراعـة فـائقة حتـى أنه كـان من العسير أن يتبين المرء فيهما دموعا . ومع ذلك لم تكن هنالك أية دموع . كانتا تتلألآن بالمودة . أكانت تفكر فى تلك الخطابات الطويلة التى كتبتها بكل الوفاء والإخلاص خلال فترة إنفصالهما على امتـدادها ؟ واحس نـاروز ، فجأة بـالغيرة ، تثير كوامن نفسـه ، عند ذكـر الاسم ، الـذى كـان أشبـه بحجـر مقبرة دفنت تحتـه ذكـريـات مـرحلـة مختلفة،فأخفـاها ـ مرحلة سكـرتير المفوضية الشاب الـذى .. أمه (لم يتقبل ، ذهنيا البتة ، أن يستخدم كلمة « أحبته » . كان يترك فى أفكاره ، فى مكانها ، فراغا حيث كـان يتوجب أن تكـون) ، وكذا ذكـريات عن الـزوج المريض فى كرسيـه المتحرك ، يراقب ما يجرى دون شكاية .كانت روح ناروز تنتفض ، مع مشاعر أبيه ، كلما ذكر اسم ماونت أوليف ، كلحن مـوسيقى . كان ، الآن ، يزدرد ريقه، يتحرك قلقا ، وهو يـراقب أمه تطوى ، مرتجفة ، رسالـة تم وضعها فى غلافها . وسألت الأم نسيم . « هل فى وسعنا أن نثق به ؟ » ـ كان لابد وأن تلطمه على فمه إن أجاب بـ «لا» . كان كل ما تبتغيـه أن تسمعه ينطق الاسم مرة أخرى . كان سؤالها مجرد استنفار لـه ، لا أكثر ولا أقل . فقبل يدها ، ونـاروز يبدى اللهفة والاعجاب بـالجوا لذى يشيع من إبتسامتـه التى تشبه إبتسامة رجـال البلاط وهو يجيب ،« إن لم يكن هو موضع ثقتنا ، فمن يكون إذن ؟ » .

كـانت ليلى ، وهى صبيـة ، جميلـة وغنيـة أيضا . كـانت إبنـة سيـدة ذات اهتمامات أدبية ، ثقافية ، تربت فى دير للراهبات ، مغرقة فى علاقاتها بالمجتمع . كانت من أوائل القبطيات اللائى هجـرن الحجاب ، وبدأت فى دراسة الطب على غير إرادة والديها . إلا أن الزيجة المبكرة من رجل أسن منها بكثير ، وضعت حدا لكل تلك السبـاحـات فى عالم الآفـاق الـواسعة ، حيث كـان يمكن لقـدراتها أن تمنحها موطئ قدم. كان مزاج الحيـاة المصرية ، أيضا ، معاديا لحرية النساء ،

فتنازلت عن مستقبل تسلكه لحساب زوج أعجبت بـه أشد الإعجـاب ، ولحياة القرية التى تسير على وتيرة واحدة . إلا أنـه ، على نحو ما ، كانت تكمن تحت كل ذلك نار مشتعلة . لقد حافظت على إهتماماتها وعلاقاتها بأصدقائها ، وزارت أوروبا كل بضع سنوات ، واشتركت فى دوريات تصدر بلغات أربع. كان عقلها قد تشكل على الإنفراد والوحدة وأثرى بكتب ما كان فى مقدورها أن تناقش محتواها إلا فى خطابات لاصدقاء يقطنون أماكن نائية ، كتب ما كان فى وسعها أن تقرأها إلا فى خلوة الحريم . ثم جاء مقدم ماونت أوليف ووفاة زوجها. ووقفت تتنفس فى حرية على شفا عالم جديد ، وليس هنالك من حمل على عاتقها غير ولديها النامين . وظلت لعام مترددة ما بين اتخاذ لندن أو باريس مستقرا أساسيا لها . إلا أنها خلال تلك الفترة ، فقدت كل شىء ، إذ فجأة عاث الجدرى فى جمالها ، الذى لم يكن له حتى ذلك الحين اعتبار خاص لديها ، شأنها فى ذلك شأن كل الجميلات ، فأذاب تلك الملامح المحببة ، وترك لها ، فقط ، عينيها الرائعتين ، كعينى كاهنة مصرية ، وغدا الخمار الأسود البشع ، الذ طالما نظرت إليه كرمز للرق والعبودية ، ملاذها الذى يمكن أن تخفى وراءه أطلال جمال اعتبر خارقا فى صباها . ولم تعد لديها الشجاعة على إرتياد عواصم أوروبا تعرض هذا الوجه الجديد الذى ذابت ملامحه ،أو أن تواجه مواساة الأصدقاء الذين يتذكرونها كماكانت يوما ما . وقررت ، فى إيجاز ، وقد استدارت عل عقبيها ، أن تبقى فى أملاك العائلة ، وتنهى حياتها فى عزلة بالقدر الذى يمكن أن يسمح به لها . ولم يعد أمامها ، الآن ، من مخرج غير كتابة الخطابات والقراءة ـ ولم يعد هنالك من تعتنى به غير ولديها . وكان على القلق الذى ينتاب عواطفها أن يجرى عبر هذا المجال الضيق المحدود . كان عليها أن تتحكم فى عالم كامل من العلاقات ، واتخذت قرارها كما يفعل الرجال . وواجهت سوء الصحة والوحدة والضجر والملل ، وتغلبت عليها واحدا بعد الآخر ـ وأصبحت تعيش هنا معتزلة كامبراطورة خلعت عن عرشها ، تطعم حيتها ، وتكتب خطابات ، بلا نهاية ، عامرة بالبهجة وتوهج حياة تقبع الآن خلف قناع الحجاب ، والتى يمكن أن تطل ، فقط ، عبر تلك العينين اللتين ما زالتا داكنتين تشعان شبابا.

لم تعد تُرى ، الآن البتة فى المجتمع . غدت شيئا أسطوريا بين هؤلاء الذين يتذكرونها فى ماضيها ، هؤلاء الذين لقبوها ، ذات مرة ، بـ «عصفور الجنة الأسمر » . إنها تجلس ، الآن ، طوال اليوم ، إلى منضدة من خشب الصنوبر ، تكتب تلك المخطوطات الطويلة التى تتسم بامعان الفكر ، وهى تغمس ريشتها فى دواة ذهبية ، فقد غدت خطاباتها هى حياتها ذاتها . كانت قد بدأت تعانى من ذلك الشعور الغريب بتشوة الحقيقة ، والذى ينتاب الكتاب عندما يتناولون شخصيات حقيقية . كان عليها ، مثلا ، خلال السنوات التى كانت تخاطب فيها ماونت أوليف كتابة ، أن تعيد إكتشافة ، حتى غدت الشخصية التى يعيشها الآن ، بالنسبة إليها ، لا تتماثل كثيرا والإنسان الحقيقى . إنها ، فقط ، شخصية بزغت من خيالها هى . إنها ، حتى ، كادت أن تنسى الهيئة التى كان عليها ، وماذا تتوقع من تأثير وجوده المادى عليها . وعندما صلت برقيته التى تقول بتوقعه الحضور إلى مصر ، مرة أخرى ، فى غضون أشهر قليلة ، لم تحس ، فى البداية ، بأى شىء . أحست فقط بالحنق لما سيسببه إقحام نفسه جسديا على الصورة التى صاغها خيالها ، وتمتمت بغضب ، فى البداية ، « لن أراه » ، ثم أخذت تنتفض مغطية وجهها الذى عاث فيه المرض .

أخيرا قال نسيم ، وقد إنتقل حبل الحديث إليه ، «إن ماونت أوليف سوف يرغب فى رؤيتك ـ متى يمكننى إحضاره ؟ إن المفوضية سوف تنتقل قريبا إلى المساكن الصيفية ، وبذا فإنه سيتواجد طوال الوقت بالأسكندرية».

قالت وهى تحس بالغضب يتململ ، مرة أخرى ، فى جوانحها لاقتحام هذا المحبوب الذى إبتدعه خيالها ، « يجب أن ينتظر حتى أكون على استعداد للقائه بعد كل تلك السنين » . ثم سألت بهلفة قوية تثير الشفقة ، « هل تقدم به العمر ؟ هل وخط المشيب شعره ؟ هل ساقه على ما يرام ؟ ايستطيع السير ؟ تلك الوقعة بسبب الانزلاق على الجليد فى النمسا ..... » .

واستمع ناروز إلى كل ذلك برأس منتصبه وقلب مثقل بالهم ، فقد كان فى وسعه أن يتابع مشاعرها ، عبر صوتها ، كما يتابع المرء خطا موسيقيا .

قال نسيم ، « إنه أصبى من أى وقت مضى ، فالعمر لم يتقدم به يوما واحدا». ولدهشته أمسكت بيده ووضعتها على وجنتها وهى تقول فى صوت منكسر ، « أوه ـ إنك فظيع ، كلاكما كذلك ، إذهبا . اتركانى الآن وحدى ، فلدى خطابات يجب أن أكتبها ».

لم تعد تسمح بوجود مرايا فى الحريم ، منذ مرضها الذى حرمها من إجلالها لذاتها ، إلا أنها احتفظت بمرآة جيب ذات خلفية ذهبية كانت تستخدمها سرا فى تزجيج عينيها ، كنزهتها المتبقى لها ، وتجري مختلف أنواع التجميل عليها، وتجريب مختلف النظرات التى تناسب مختلف التعبيرات ، محاولة أن تعطى لما تبقى من نظراتها مفردات لها مغزاها وشمولها شمول عقلها المتوثب. إنها أشبه برجل أصابه العمى فجأة ، فأخذ يتعلم الكتابة باستخدام العضو الوحيد الذى تبقى له ألا وهو يديه .

وسار الرجلان عائدين إلى البيت القديم بحجراته الرطبة المتربة وقد علقت على جدرانها سجاجيد عتيقة وحصر مزركشة ، كما إزدحمت بأثاث عملاق ، كجثث الذبائح ، قديم الطراز ـــ نوع من ذلك العثمانى الذى يراه المرء فى البيوت المصرية العتيقة . وأحس نسيم ، أن خيوط قلبه تشدها ذكرى قبح ذلك الأثاث، وطرازه القديم الذى ينتمى إلى الأمبراطورية الثانية، والأسلوب الرتيب الدؤوب لصيانته والحفاظ عليه . كان المشرف على المنزل قد أوقف كل الساعات ، طبقا للعرف السائد ، والذى عبر عنه ناروز بقوله ، « إن إقامتك معنا قصيرة للغاية. علينا ألا ندع شيئا يذكرنا بفرار الساعات . لقد خلق الله الأبدية . دعنا نفلت كلية من طغيان الزمن واستبداده » . وملأت تلك الدماثة العريقة الموروثة نسيم بالعواطف . وبدت له المرافق الصحية ـ حيث لم يكن هنالك حمامات ـ متسقة ، على نحو ما ،مع كنه الأشياء ، رغم أنه كان يحب الماء الساخن . كان ناروز ينام عاريا صيفا وشتاء . كان يغتسل فى الباحة حيث يلقى أحد الخدم بالماء فوقه من إبريق فخارى . وكان عادة ما يرتدى ، وهو داخل المنزل، عباءة زرقاء قديمة وخفا تركيًا . ويدخن من نرجيلة طويلة كما سورة بندقية عتيقة الطراز.

وجلس ناروز ، بينما أخاه الأكبر ، يفرغ ملابسه على حافة السرير ، يدرس

الأوراق التى ملأت حقيبة ، مستغرقا يقرأ فى صمت . كانت الأوراق خاصة بالماكينة التى ستمكنه ، كما اقترح هو ، أن يحافظ على الأرض بل ويمد حربه فى مواجهة الرمال الميتة . كان فى وسعه أن يرى ، بعين خياله ، جيشا من الأشجار والشجيرات تسير قدما إلى الأمام فى هذا الخلاء ـ الخروب والزيتون ، العنب والعناب ، الفستق ، المشمش والخوخ ، وقد إنتشرت حولها ألوان الخضرة فى سرعة ، فى تلك المناطق الترابية الخالية ، والتى تغص بملح البحر . كان يتمعن صور المعدات فى الكراسات اللامعة التى أحضرها له نسيم ، بما يقارب الشبق ، وأخذ يتحسسها بأصبعه فى ود ومحبة . كان يسمع بخياله صوت امتصاص المياه الحلوة وكبسها فى المضخات وهى تزيل ، بالتدريج ، تلك الأملاح الميتة من الأرض ، وتعجل تغذية جذور أشجاره الظامئة إلى رشفة ماء ، جبل مريوط وأبو صير ـ وحلق خياله ، كعصفور الجنة ، إلى صحراء النطرون ذاتها ـ ليدحرها جميعا فى عقله .

قال ناروز ، « هلا ركبت معى غدا ، بمناسبة ذكر الصحراء ، إلى خيام أبو قار ؟ لقد وعدونى بحصان عربى ، أود أن أروضه بنفسى . ستكون نزهة ممتعة ». وأسعدت الفكرة نسيم فقال فى الحال «نعم » . وقال ناروز ، « علينا أن نبدأ مبكرا . يمكننا أن نمر عبر زراعات الزيتون لترى بنفسك أى تقدم قد أحرزنا . هل سنفعل ؟ أرجو أن تفعل ». ثم ضغط على ذراعه ، «إننا منذ بدأنا استخدام الشملالى التونسية ، ولم تقع لدينا أصابة واحدة . أوه يا نسيم ! إننى أود أن تبقى هنا معنا ، فمكانك هنا ».

كان نسيم ، كالعادة ، يتمنى نفس الأمنية . تناولا ، فى تلك الليلة ، عشاءهما على الطريقة القديمة ـ والتى تختلف تمام الإختلاف عن الرفاهية السفيهة التى تتسم بها الحياة المظهرية فى الأسكندرية ـ لقد تناول كلا منهما فوطة من فوق منضدة وتوجه إلى الفناء حيث مراسيم الإغتسال التى تسبق وجبة الطعام فى القرية . صب خادمان لهما الماء ، بينما وقفا كليهما إلى جوار بعضهما البعض . غسلا أصابعهما بصابون أصفر اللون ثم شطفاها بماء زهر البرتقال . وتوجها إلى المائدة حيث لم تكن هنالك من أدواتها غير ملعقة خشبية لكل واحد منهما ليتناول بها الحساء ـــ وأخذ كلا منهما فى تقطيع رغيف القرية ، الرقيق

المفلطح ، ليغمس أجزاءه فى أطباق اللحم المطهى . كانت ليلى تتناول ، دوما ، عشاءها بمفردها فى جناح النساء . وقد أوت إلى فراشها مبكرة ، فتناول الأخان طعامهما بمفردهما . كانا يأكلان على مهل مع وقفات طويلة بين ألوان الطعام . ولعب ناروز دور المضيف ، واضعا أفضل القطع أمام نسيم فى طبقة ، مفسخا الدجاجة والديك الرومى بأصابعه القوية كمضيف مضياف لضيفه. وأخيرا ، بعد أن قدمت الحلوى والفاكهة ، عادا ، من جديد ، إلى حيث كان الخادمان واقفين ، وغسلا أيديهما مرة أخرى .

أخليت المائدة ، فى تلك الأثناء ، من الأطباق ، وأعيدت إلى موضعها لتفسح مكانا للأرائك عتيقة الطراز وهى تنقل من الحجرة إلى الشرفة . رصت عدة التدخين ، نرجيلتان طويلتا الأنبوب وتبغ ناروز المفضل وطبق حلوى فضى. جلسا ، هنا معا ، مدة من الزمن ، يرشفان القهوة صامتين . كان نسيم قد خلع خفه ، وثنى ساقيه أسفله : جلس واضعا ذقنه فى يده ، يفكر كيف يفضى بأخباره ، بالزواج الناتئ ، كحلمة ثدى ، فوق ذبابة عقله ، وعما إذا كان ضروريا أن يكون صريحا فى عرض دوافعه لاختيار زوجة هى امرأة على غير دينه . كان الليل حارا ساكنا ، وشذى زهور المغنوليا تحمله ، إلى الشرفة ، دفعات وجرعات قليلة من هواء كان يجعل شعلات الشموع تخفق وتتراقص . كان التردد فى اتخاذ قرار ينهش أعماقه .

كان كل وعد باللهو والتسلية ، فى ظل مزاج كهذا ، يقدم إليه الراحة والسلوى، فأسعده أن يقترح ناروز استدعاء مغنى القرية ليعزف لهما ، وهى عادة كثيرا ما استمتعا بها فى شبابهما . لم يكن هنالك شىء أكثر مناسبة لهذا الصمت الثقيل ، لأمسية مصرية ، من كمان تشدو بأنغام تباريح وديعة. وصفق ناروز بيديه ، مرسلا يستعجل المغنى ، فجاء الرجل العجوز من جناح الخدم ، حيث كان يتعشى كل مساء من فضل هذا البيت ، يسير فى خطى وئيدة مستكينة تفرضها الشيخوخة المتقدمة والعمى الوشيك . كانت آلته الموسيقية ربابة : مكونها الصوتى نصف جوزة هندية . وقفز ناروز وأجلسه فوق وسادة عند نهاية الشرفة . سمع وقع أقدام فى الباحة ، وصوت مألوف هو صوت المدرس العجوز ، محمد شباب ، الذى صعد الدرج مبتسما بوجهه المتغضن ،

ليقبض على يد ناروز مسلما . كان له وجه قرد مشعر مشرق ، يرتدى ، كالمعتاد، بذة غامقة شديدة النظافة ، وقد وضع وردة فى عروة سترته. كان أنيق الملبس ، يحب الانغماس فى اللذات ، وكانت تلك الزيارات إلى المنزل الكبير هى تسليته الوحيدة . كان يعيش الجزء الأكبر من العام مدفونا فى أعماق الدلتا ، وكان قد أحضر معه فم نارجيلته العتيق الثمين والذى كان يمتلكه منذ حوالى ربع قرن من الزمان . إبتهج لسماعه شيئا من الموسيقى ، واصغى منفعلا ، إلى القصائد الفطرية التى كان يغنيها الرجل العجوز - أغان عن حياة العرب ، تفيض بشجن الصحراء الموحشة . كان الصوت العجوز يتساقط هنا وهناك ، يرتفع ثم يهبط فوق الليل ، يسير على نمط الأغانى العذبة المرتعشة ، كأنما يتابع المسالك العتيقة لأفكار وأحاسيس كادت تمحوها الأيام. كانت الربابة الصغيرة تبث شكاواها ، تعود بالأيام إلى الطفولة . وانطلق المغنى، فجأة ، يشدو بأغنية الحج العاطفية ، والتى تعبر عن شوق المسلم الرائع لمكة وهيامه حبا بالنبى — ورفرف اللحن العذب خفاقا فى قلب الأخوين ، كطائر حبيس يضرب بجناحيه . وأخذ ناروز ، رغم كونه قبطيا ، يكرر ، فى نشوة «الله، الله»(*).

وأخيرا صاح نسيم ، «كفى ، يكفى هذا . إذ لو كان علينا أن نستيقظ مبكرا، فعلينا أن ننام مبكرا . ألا ترى ذلك ؟ ».

قفز ناروز ، أيضا ، وهو ما يزال يمثل دور المضيف . ونادى يأمر بالماء واشعال الضوء ، وسار أمامه إلى غرفة الضيوف . وانتظر ، هناك ، حتى اغتسل نسيم وخلع ملابسه وتسلق السرير قديم الطراز وهو يئز تحته ، ثم حياه تحيه المساء . وقال نسيم ، مندفعا ، وقد وقف ناروز عند مدخل الغرفة، «ناروز، لدى ما أود قوله لك » . إلا أنه أضاف وقد غلبه حياؤه ، «لكنه يمكن أن ينتظر حتى الصباح - سنكون وحدنا . أليس كذلك ؟ » . وأومأ ناروز برأسه مبتسما ، «إن الصحراء عذاب للخدم ،لهذا أعيدهم دوما عندما نبلغ حافتها » .

قال نسيم ، «حسنا» . كان يعرف ، جيدا ، إيمان المصريين بأن الصحراء

(*) بالعربية فى حروف لاتينية

خـلاء تقطنه أرواح العفـاريت وضيوف أبليس ـــ شيطان المسلمين ـــ غريبـو الأشكال.

نام نسيم واستيقظ ليجد أخاه فى كـامل ردائه واقفا إلى جوار السرير يحمل له القهوة والسجـائر قال ، « لقد حان الـوقت ـ أعتقد أنك تنـام فى الأسكندرية حتى ساعة متأخرة .....»

قال نسيم . « كلا . أننى عادة ، وتلك مسألة غـريبةحقا ، ما أكون فى مكتبى فى الثامنة ».

فقال نـاروز معابثـا ، « الثامنـة ! أوه يا أخـى المسكين ». وأخذ يعـاونه على إرتداء ملابسه.

كان الجوادان فى الأنتظـار فأمتطياهما وسـارا فى فجر يغلفـه ضباب كثيف مائل إلى الـزرقة يتصـاعد من البحيرة . كـان الهواء منعشا وإن كـان يميل إلى البرودة القارصة ، إلا أن الشمس كانت قد بدأت تغمس فى الهواء العلوى أشعتها فتجفف الندى من مأذنة الجامع.

تقدم ناروز عبر الدروب الملتوية على امتـداد طرق الخيل والمشاة المتعرجة ، وعبر السـدود الترابيـة ، دون أن يخطئ أو ينحرف ، حيث كـانت الأرض كلهـا مرسومة فى عقله كخريطة دقيقة التفاصيل صنعة أستاذ فى رسم الخرائط .كان يحملها ، دوما ، فى رأسـه كخطة حـربية ، عارفا عمر كل شجـرة ، وطاقـة كـل بئر مـاء وكل جرف رملى بـوصة بـوصة . تلك الأمـور تمتلك تفكيره وتسيطـر عـليه.

دارا فى بطء حول الأراضى الـزراعية الشاسعة ، وهما يقيّمان مـا أُحرز من تقدم ، ويـناقشان خطط هجمتهما التـالية بعد تـركيب الماكينة الجديـدة . قال ناروز ، عندمـا بلغا بقعة منعزلـة قرب النهر يحجبها الغـاب والبوص مـن كل ناحية ، « إنتظـر ثانية » ثم ترجل وهو يخلع جراب الصيـد الجلدى القديم عن كتفيـة ، قال ، وهـو يبتسم فى حياء ، «لـدى هنا مـا أخفيه » . راقبـه نسيم ، فى تكاسل ، وهو يقلب جراب الصيد ليلقى بمحتوياته فى مياه النهر الباردة، إلا أنه لم يكن مهيأ لرؤية رأس آدمى ضامـر متقلص ، أحول العينين إلى الداخل ، وقد انفرجت شفتاه عن أسنان صفراء ، يتدحرج من الجراب ليغطس فى بطء ، يغيب

عن الأنظار فى المياه الخضراء العميقة ، أسفلهما . وتساءل نسيم ، « ما هذا بحق الشيطان ؟ » وأجاب نـاروز وهو يضحك ضحكته المكتومـة القصيرة كالفحيح نـاظـرا إلى الأرض ، «إنه عبـد القـادر . وتلك رأسـه ». ثم ركع يغسل الجراب ، يدفعه بعنف إلى الأمام وإلى الخلف ، يقلـب داخله إلى خارجه ، كما يقلب المرء كم ردائه ، ثم عاد إلى الحصان . كان نسيم يفكـر فى عمق عندا قال . «إذن فقد كان عليك أن تفعلها فى النهاية ، لقد كنت أخشى ذلك ».

واستـدار نارو ز إلى أخيـه بعينيه الـلامعتين لحظـة ، ثم قـال جـادا ، «إن مـزيدا من المتاعب مع العمال البـدو سـوف تكلفنا ألف شجـرة فـى العـام القادم. كـان القبول بذلك مخاطـرة كبرى ، ثـم أنـه بالأضـافة ،كـان ينتوى تسميمى».

ولم يقل المزيد . سار ا حتى بلغا أطراف الزراعة وقد خفت وتضاءلت ـ حيث خط المواجهة الأمامى وحيث كانت المعركة قد بدأت بالفعل ـ خط حدود مشرشر غير مستـو أشبـه بفتحـة الجراح . وقد ظهـر على طـول إمتـداده رشح الأرض الزراعية على جانب والمجارى الصحـراوية الجافة على الجانب الآخر ، وقد حُمل كلاهما بـالأملاح العطنـة التى سممت الأرض وصيرتها بلقعـا ، صورة نـاطقة للخراب .

هنـا كان ينمـو ، فقط نبـات الغاب والبـوص والحلفـاء العملاق فى دغـلات شوكية متنـاثرة لم يكن فى إمكان الأسماك أن تعيش فى تلك الميـاه الضاربة إلى الملوحة ، أما الطيور فقد أعرضت عنها . كانت ترقد مستوحشة فى النطاق الراكد لهوائها الكـرية الـرائحة ، تحيق بها الأرواح الشريرة ، صـامتة صمتـا مطبقا ـ النقطة التى تلتقى فيها الصحراء بـالأرض المزروعة فى عناق الموت. وسارا فيما بين نبات الحلفاء البـاسق الطول بسيقاته المائلة إلى البيـاض وقد غطتها قشرة من الملح تلمع فى ضوء الشمس . كان الجوادان يشهقـان ويخبان فى المياه الميتة التى كانت تتنـاثر عليهما ، متبلورة ، حيثما تسقط ، فى بقع ملحية . كـانت برك الوحل اللزج مغطـاة بقشرة من ملح تتكسر تحت سنابك الجوادين وهى تغوص فيها ، مطلقة روائح بشعـة من هذا الطين الأسود أسفلهما ،واسراب فجائية من ذبـاب صغير وبـاعـوض لاذع قـارص . إلا أن نـاروز بـدا مهتما . كـانت

عيناه تبرقان . كان قد استـزرع ، بالفعل ،فى خياله تلك الأرض البور بالخروب والشجيرات الخضراء ــ كـان قد تخيـل هزيمتهـا وإنتصـاره عليهـا . وأمسك كلاهما أنفاسـه ، دون حديث ، وهما يجتازان الحاجز الأخير الـوبيل وقد أخلى مكانه لبقع من التربـة الطويلة الامتداد أشبـه بمومياء تجعد جلـدها . وبلغا ،فى النهـاية ، طـرف الصحراء ، فتـوقفـا فى الظل بينما راح نـاروز يبحث فى جيـوب ملابسـه عن أصبع الطباشير الصغيرالأزرق الـذى يستخدم فى علامـات لعبة البليـاردو . ثم حكا قليـلا من الطباشير اسفل جفنيهما واضعين أصـابعهما فى مواجهة وهج الشمس ، كما كان يفعـلان ، دوما ، وهما طفلان. وعقد كل منهما قطعة قماش حول رأسه على الطريقة البدوية.

بدأت أولى هبات نسيم صحراوى نقى ، والمكان على إتساعه ، صاف كنظرية رياضيـة ، ممتد بعيـدا حتى السماء ، والصحراء غـارقة فى صمتهـا وجلالها ، خالية إلا مما اخترعه خيال الإنسان ، ليعمر هذه المساحات البرية التى لا تتسق وأهواءه ويثير نقاؤها عقله .

أطلق نـاروز صرخـة ، فتنبه الجوادان فجأة ، وأخذا ، وقد مـلأهما أحساس بالحرية مرة أخرى وبالفضاء حولهما، يسرعان عدوا ، بطريقتهما المتميزة ، عبر الكثبان الرملية ، يطوحان عرفاهما وشراشيبهما المزركشة ، وسرجاهما يزيقان . تسابقـا هكذا دقائق عـدة ونسيم يقهقه فـرحة وحماسا . كـان قد مضى زمن طويل منذ امتطى الخيل فى عدو برى كهذا العدو .

أوقفا إنطلاقهما مكملين السير فى بطء مـائلين نحو الشرق عبر أرض تغطيها النباتات وقد تفتحت الزهور البرية وترنحت الفراشات طائرة بين الكثبان المقفرة وأنواع من النباتات متماسكة كابية الألوان . قرقعت حوافر الجوادين فوق أرض تغطيهـا الحصباء عبر وديـان حجـريـة وكتل حادة كبيرة مـن الحجر الـرملى وســلاسل الطين الصفـائحى ، وردى اللــون ، تملأ الأفــاق . أنشغل نسيم بذكـريات المخيمات الليلية ، هنا ، فى شبـابه ، تحت سماء ترصعهـا النجوم ، فى خيمة تهدر فيها الرياح ، تتقاذفهـا تحت نجم النسر الواقع (ورباطها من حبال أصابها صقيع يتألـق كالماس) . والصحراء تترامى حـولهم كحجرة خـاوية . كيف يمكن للمـرء أن ينسى أعظم خبراته وتجاربـه ؟ إنها ، كلها ، تقبع هنـاك ،

كبيان يمكن للمرء أن يعزف عليه ، إلا أنـه ، لسبب ما ، نسى أن يلمسه سنوات . وشعشعت ذكرياته ومكامن أعماقه فتبع ناروز كالأعمى . كان يرى نفسه وناروز ، فى ذلك الاتساع غير المحدود، كبقعتين، كحمامتين يحلقان فى سماء خالية .

توقفا ، لاستراحة قصيرة ، فى ظل صخرة كبيرة ـ أشبه بواحة أرجوانية فى العتمة ـــ يلهثان فى سعادة . قال ناروز ، «إن حدث والتقينا بذئب صحراوى فسأطارده حتى أقتله بسوطى » . وأخذ يدلل سوطه الكبير فى محبة ، يربت عليه وهو يمرره بين أصابعه .

اتخذ ناروز ، عندما استأنفا السير فى بطء ، مرة أخرى ، ممرا مطروقا ، متبعا درب القوافل القديمة . إنه « المسرب » الذى سوف يقودهما إلى قصر العطش ، حيث يجب أن يلقاهما رجال الشيخ هنالك ، قبل الظهيرة .كان نسيم، أيضا ، يعرف ، ذات يوم ، تلك الطرق عن ظهر قلب ـ إنها طرق المهربين التى كانت تستخدمها القوافل لقرون خلت ، ما بين الجزائر ـــ «الطرق الميمونة » والتى قادت أقدار الرجال عبر قفر الصحراء ، يحملون التوابل والأقمشة من مكان إلى آخر فى أفريقيا ، أو التى كانت تقدم للورعين الأتقياء السبيل الوحيد لبلوغ المدينة المقدسة . وأحس نسيم فجأة بالغيرة من دربة أخيه بالصحراء ، والتى كان يمتلكها ،بذات القدر ، يوما ما . فسار خلفه يحتذيه فى حرص بالغ.

أطلق ناروز صرخة خشنة ، مشيرا بيده . بلغا المسراب بعد لحظة . إنه درب الجمال وقد غاص عميقا ، فى بعض الأماكن ، فى الصخر الصلب ، إلا أنه يجرى فى تواليات متموجة ، متماثلة ، عبر مختلف الآماد . هنا قاد الأخ الأصغر الخطى، مرة أخرى . كان قميصه الأزرق قد إصطبغ باللون البنفسجى ، تحت الإبطين ، وصاح ، «إنهم ، على وجه التقريب ، هناك » . وسبحت فى بطء أمامهما كتل البازلت الحمراء كعنقود بزغ من أطراف السماء اللؤلؤية المرتعشة، كتل تبدو كأبى الهول ، أبى الهول غائم المعالم يعذبه العطش (كوجه فى قلب نار) . وهنالك فى ظل الصخرة المعتم ، كانت تنتظر مجموعة صغيرة تبرطم وتتمتم لتقودهم إلى خيام الشيخ ـ كانوا رجالا أربعا طوالا نحافا ، كانما قدوا من ورق بنى اللون ، تنكسر أصواتهم عطشا عند حروف الكلمات ،ولهم ضحكات أشبه

بالغضب الجامح . سارا إليهم ، ليبدأ عناق أذرع أشبه بعصى جافة ، وحديث له تكتكة شائكة عسيرة هى لغة عربية غير مألوفة ، وناروز يقوم ، نيابة عن كليهما ، بكل الحديث والتوضيح .

انتظر نسيم ، وقد إنتابه ، فجأة ، أحساس الأوروبى ، أو ابن المدينة أو الزائر : كانت تلك المجموعة الصغيرة محملة بكل المشاعر الفطرية المتشددة لعالم العربان ـ بمجاملاته وضغائنه التقليدية ، وبدائيته . واندهش إذ وجد نفسه يبحث فى عقله ذكرى لوحة رسمها بونارد أو قصيدة كتبها بليك ـ كان يبحث كالظمآن الذى يتحسس نبع ماء فى الظلام . وتماثلت الحالة فى خياله مع رحالة فاجأته عشيرة جبلية فظة شرسة فيحس الأعجاب بأرجلهم الملتهبة المتورمة وسيقانهم الغليظة المليئة بالشعر ، إلا أنه يحس بالإمتنان أيضا لمجمل الثقافة الأوروبية التى لم تجد لها تعبيرا فى مجافاة تلك الحياة ، وذلك الحب الممقوت للقوة .

هنا أحس ، فجأة ، بأنه قد فقد أخاه ، وأنه قد فارق صحبته ،حيث انغمس ناروز فى حياة هؤلاء الرعاة العربان ، بنفس الإفراط الذى إنغمس به فى حياة أرضه وأشجاره . كانت عضلاته ، التى تشبه خيوطا غليظة ، فى جسد كثيف الشعر ، مشدودة تيهًا وزهوا ، فهو ، ابن الأسكندرية ، والنصرانى الذى يكاد يكون محتقرا ، فى وسعه أن يتفوق على أىّ منهم فى الرماية والحديث والعدو بالخيل . كانوا ينظرون إليه ، وهم العارفون بنخوته ومراسه ، على أنه من أرومتهم . أما نسيم الرقيق اللطيف والذى رأوه من قبل فى أزياء وأشكال عدة بيديه المعتنى بهما ، واللتان تفضحان كونه سيدا من سادة المدينة ، فإنهم كانوا ينظرون إليه ، رغم ذلك ، فى أدب وتهذيب .

كان الالمام بالأشكال والأساليب ، لا الفراسة وعمق البصيرة ، هو ، فقط ما يشكل ، الآن ، ضرورة . فهؤلاء القوم الصحراويين ، الذين يبعثون البهجة ، كانوا كالآلات ذاتية الحركة . وابتسم نسيم فجأة ،وقد جال ماونت أوليف بخاطره ، وتساءل فى عجب ، أين وجد البريطانيون مادة أساطيرهم الخرافية عن عرب الصحراء . إن قسوة حياتهم المألوفة ، تتسم بالضنك والضبط والربط الشديدين . وهم أن أثاروا فى نفس امرئ ما ، شيئا ما ، فهى إثارة تماثل تلك

التى تتركهـا زمامير القـرب ، إنها لا تعبر عن شىء يتجـاوز مستواه المستـوى البـدائى . وراقب أخاه وهـو يتعـامل معهم ، إنطلاقـا من معـرفته بأسـاليبهم وسلوكياتهم ، كما يتعامل رجل العرض فى السيرك مع البراغيث الراقصة . أيتها الأرواح البائسـة ! وأحس فى أعماقه بقوة مصدرهـا ومددها فطنة وذكـاء أبناء المدينة .

سار الكل راكبين فى مجموعة متماسكة ، يجتـازون منحدرات الرمال الممتدة كـالضلـوع الطويلـة ، عبر مـروج ومـراع سرابية ، صنعتهـا خيـالات السحب الممطرة، حتى بلغوا دائرة الخيام الصغيرة ، قبـاء من جلد يقضى فيها الإنسان كهولتـه ، إبتدعها رجـال عاشوا طفـولة مليئة بـذكريات مخيفـة ، فأرغموا على ابتـداع اسقف أكثـر ضيقـا مـن السماء ، حيث تـزرع بـذرة الجنس البشرى ، وحيث، فى هـذا المخـروط الصغيرة المصنـوع من الجلـد ، ولـد الطفل الأول ، واكتشفت خلـوة القبلـة الأولى ... وود نسيم ، وهـو يحس المرارة ، لـو كـان فى وسعه أن يجيـد الرسم كما تجيده كليا . إنتـابته الأفكار السخيفة غير المعقـولة والتى لا موقع لها فى هذا المكان .

كانت خيام الشيخ مديدة تغطى مسـاحة تقرب ألفى قدم مربع ، وبها خيمة من قماش نسج من شعر الماعـز ،به غرز عـريضة سوداء ، خضراء ، قرمـزية ، داكنة وبيضـاء ، وقد تدلت من ثنيـاته عنـد خطوط إلتقاء الحيـاكة ، شراشيب طويلة تتطاير فى الهواء .

كان الشيخ وأبناؤه يقفون كأوراق الكوتشينة المعروضة فى معرض للطيور، ينتظرانهما بتلك التحايا المعتادة المعتارف عليها . كان ناروز ، على الأقل ، يعرف كيف يرد عليهم تحياتهم . قادهما الشيخ بنفسه ، إلى خيمة ، وهو يقول ، « هذا البيت بيتكما ، خذا راحتكما ، ونحن فى خدمتكما ». وتـزاحم وراءه حاملوا المياه ليغسلوا لهما أيـديهما وأرجلهما ووجهيهما ـ وكانت الأخيرة قـد جفت ، إلى حد ما، وغطتها الفقافيق بسبب تلك الرحلة . استلقيا للراحة مدة ساعة ، على الأقل ، فى هذه العتمة البنية ، حيث كانت حرارة النهار فى أوجها . استلقى ناروز ، فوق الوسـائد ، يشخر فـاردا ذراعيه وسـاقيه ، بينما أغفى نسيم إغفـاءة متقطعة ، يستيقظ من وقت لآخر يـرقب أخاه ، نـائما ذلك النوم الذى يستسلم لـه البدن

دوما بعد جهد العمل. نظـر مهموما إلى قبح أخيه ، وقد برزت مجمـوعة أسنانه البيضـاء الـرائعـة من الشق الأحمر الـوردى فى شفتـه العليا . تـوافـد ، أثنـاء استراحتهم، مشايخ القبيلة ، من حين لآخر ، حيث كـانوا يخعلون أحذيتهم عند مـدخل الخيمة ، ويـدخلون ، فى هـدوء ، يقبلون يـد نسيم ، وكل منهم يتمتم ، هامسا ، كلمة واحدة « محبة » (*).

استيقظ ناروز فى سـاعة متأخرة مـن بعد الظهر. نـادى يطلب ماءً يستحم. وطلب ، فى نفس الوقت ، مـلابسا ، فأحضرهـا فى التو الابن الأكبر للشيخ . سار خارجا ، فى خطى واسعة ، إلى حيث حرارة الرمـال الساخنة ، وهو يقول، « هيا ، الآن ، نرى المهر . قـد يقتضى الأمر منا ساعتين .هل فى ذلك مـا يقلقك ؟ سنعود متأخـرين بعض الـوقت ، إه » . وضعت لهما الـوسـائد فى الظل. أحس نسيم بالسعـادة وهو يجلس متكأ عليها يرقب أخـاه يتحرك عبر الرمال التى تعشى الابصار ، متجهـا نحو مجمـوعة من المهـور ، كانـت قد أحضرت خصيصـا له لفحصها.

كانت المهـور تعبث فى براءة ورشاقة وقـد أخذت تطوح رؤوسها وأعـرافها «كزبد البحـر فى شهر يونيو » ، كما يقول المثل . توقف نـاروز وقد اقترب منها يتأملها بنظرة ثاقبة ، ثم صاح يقول شيئا ، فهرع أحد الرجال إليه يحمل لجاما وشكيمـة ، وصرخ فى صوت أجش ، « المهـر الأبيض » . ورد عليه أبنـاء الشيخ صائحين أيضـا ، إلا أن نسيم لم يستطع إلتقـاط الكلمات . استدار نـاروز مرة أخرى منسابا بين تلـك المخلوقات الفتية فى خفة ، غاطسا بينهـا على نحو غريب ليبلغ المهر الأبيض الذى إختار ويمتطى صهوته قبل أن يدرك المرء ما فعل ، بعد أن كان قد لجمه بحركة تكاد ، فى سرعتها ، أن تكون غير مرئية .

وقف المخلوق الأسطورى ساكنا تمام السكون ، وقد إتسعت عيناه وبرقت، كأنما يحاول استيعـاب هذا القدر الهائل ، الجديـد عليه ، من ذكـاء من امتطى ظهره . ثم سرت فى جسده رعشة بطيئة متموجـة ، كتيار ذعر يظهر ، دوما ، مـع مثل هـذا التلاطـم بين عالمى الإنســان والحيـوان . ووقف الحصان وراكبـه ،

(*) فى الأصل عربية بحروف لاتينية

غارقين فى أفكارهما ، كأنما هنالك من ينحت لهما تمثالا.

أطلق الحيوان صرخة خوف كالصغير الخافت .ثم نفض نفسه قافزا قفزات عديدة غريبة كالأقواس ، متخشبا كلعبة آلية، هابطا ، كل مرة ، فى وحشية على رجليه الأماميتين فى قوة إقتحامية . إلا أن كل ذلك لم يزح ناروز. مال، فقط ، إلى الأمام ودمدم شيئا ما فى أذن المهر ، فهاج وانطلق يلقى بنفسه فى خبب متعرج ، يدور ، يثب ، يقمص ويغطس . دارا حول الخيام دورة بطيئة غير منتظمة وعادا، أخيرا ، إلى حيث وقف جميع العربان أمام مدخل الخيمة الرئيسية ، يراقبون فى صمت . أطلق المخلوق البائس زفرة أخرى كالصغير الخافت، كأنمايعى أن جزءا كبيرا من حياته الحقيقية ـ لعلها طفولته ـ قد إنتهت إلى غير رجعة . ثم انطلق ، فجأة ، فى عدو طويل دؤوب سريع تتميز به سلالته . إنطلق كشهاب يخترق كبد السماء ، كدوامة عبر الكثبان الرملية ، وقد ثبت راكبه نفسه إليه آمنا، بساقية القويتين المتماسكتين كالمقص ــ كان ثابتا كصورة دقت إلى الحائط بمسمار متين . وتناقص حجمهما فى سرعة حتى اختفيا عن الأبصار. وارتفعت من الخيام صرخة إستحسان هائلة . وتقبل نسيم، إلى جوار الجبن الطازج والقهوة ، عبارات المديح والأطراء التى يستحقها أخوه.

عاد ناروز ، بعد ساعتين ، ومعه المهر ، الذى كان يلمع العرق على جسده ، حزينا لا يملك من إرادة القتال إلا أن ينفخ فى انكسار ويدق الأرض بحوافره ، وقد حلت به الهزيمة . إلا أن ناروز ذاته كان مرهقا إلى حد الهذيان ، دائخا كأنما كان يعدو راكبا عبر قرن مشتعل ، بينما تشهد عيناه المحمرتان كالدم ووجه المختلج المنتفض بعنف القتال . وخرجت كلمات التحبب والإعزاز ، التى وجهها للمهر ، من شفتين يابستين مشققتين . كان ناروز ، رغم كل ذلك سعيدا، متهللا بحق ، ينادى فى صوت كالنقيق يطلب ماءً ، راجيا أن يترك نصف ساعة للراحة ، قبل أن تبدأ رحلة العودة إلى المنزل مرة أخرى . ما من شىء ، فى النهاية ، كان قادرا على إرهاق هذا الجسد القوى ـ ولا حتى ذلك التهيج الجنسى الذى مر به فى معركته الطويلة الوحشية تلك .وأغلق عينيه وهو يحس بالماء يصب فوق رأسه ، فرأى، مرة أخرى ، الشمس الداكنة الدامية تتلألأ وراء جفنيه ،

تصور الإعياء فى خياله، وأحس بوهج الصحراء يلفح الماء ويفرقعه فوق جلده . اختلطت فى عقله الألوان والتوجسات حادة كالطعنات ، وكأن جهازه الحسى كله قد ساح من الحر وذاب كما تذوب ألوان الدهان ، فانفصلت وصلات الفكر والرغبة والارادة . استخفه الفرح فأحس أنه قد غدا خفيفا كقوس قزح . ورغم كل ذلك ، كان على استعداد لرحلة العودة قبل إنقضاء نصف الساعة.

انطلقا ، يشيعهما ، فى هذه المرة ، أناس غير الذين كانوا فى المرة السابقة . ساروا تغمرهم أشعة الشمس الغاربة وقد ألقت بظلالها الوردية ، الأرجوانية ، فى فجوات الكثبان الرملية وغذوا السير إلى قصر العطش . كان ناروز قد إتفق على الترتيبات اللازمة حتى يوصل أبناء الشيخ المهر له فى يوم آخر من أيام هذا الأسبوع . سار بجواده مسترخيا ، يغنى مابين الفينة والفينة ، مقطعا أو إثنين، من أحدى الأغانى . حل الظلام وقد بلغوا قصر العطش ، فودعا مضيفهما وإنطلقا ، مرة أخرى عبر الصحراء .

سارا على مهل وتؤدة ، يراقبان ا لقمر اللامع الشاحب ، وهو يصعد فى سكون ، لا تقطعه غير خبطات حوافر الجوادين فوق الحصباء ، فتبدو كالتهتهة، وذلك العواء الآتى من بعيد لأبناء آوى . ووجد نسيم ، فجأة ، أن الحائط الذى كان قائما بينه وبين أخيه قد أزيح ، فغدا فى وسعه أن يقول ، « ناروز ، لقد أزمعت الزواج ، وأود منك أن تخبر ليلى نيابة عنى . إننى لا أدرى لماذا ، فأنا أشعر بالحياء ، إن حدثتها بالأمر ».

أحس ناروز للحظة أنه قد تحول إلى قطعة من ثلج ـ كأنه تمثال فى معطف مدرع ـ بدا كأنه يتطوح فرحا فوق السرج ، إلا أنه كان فَرحًا مغتصبًا أجوفًا حتى أن صوته خرج يحمل الكلمات جافة خاطفة ، « ستتزوج كليا ، يا نسيم ؟ أهى كليا ؟ » . وأحس بالدماء تعود تندفع فى عروقة المنتفضة ، مرة أخرى عندما هز نسيم راسه نفيا وهو يتطلع إليه فى دهشة . وأجاب قائلا ، وهو ينطق الكلمات بطريقة بارعة الدقة والإحكام ، « كلا ، لماذا كليا ؟ إننى سأتزوج من مطلقة الأرناؤوطى ».

سارا وسرجا الجوادين يزيقان .صاح ناروز ، الذى كان يبتسم لنفسه

مكشرا عن أسنانـه فى إرتياح ، « نسيم ، إننى سعيد للغايـة . أخيرا سوف تسعد وترزق أطفالا ».

إلا أن حياء نسيم البالغ تغلب عليه ، مرة أخرى ، وأخبر نـاروز بكل ما عرفه عن جوستين وعن فقدانها لطفلها ، «إنها لا تحبنى الآن ولم تتظاهر بذلك ، ولكن من يـدرى ؟ فكل شىء ممكن أن استطعت أن أعيـد لها طفلتها ، وأن أوفـر لها بعضا من راحـة البال والشعور بالأمـان » . ثم أضاف بعد لحظـة ،« ألا تعتقد بذلك ؟ » . لم يكن ذلك رغبة منه فى أن يقدم له نـاروز رأيا حول الموضوع ، ولكن، فقط، لتجاوز الصمت الذى تدفق بينهما تـدفق كثبان رملى متحرك . ثم استمر فى حديثه ، « إن مشكلـة الطفلة مشكلة عسيرة . لقد حققـت الجهات المختصة ، باذلة أقصى جهـودها ـ هنالك أدلة محدودة يشير بعضهـا إلى المجذوب . كان هنالك مولد بالمدينة ، فى ذلك المساء ، وكـان هو هناك . كان قد إتهم مرات عديدة بخطف الأطفال ، إلا أن القضية كانت تحفظ دائما لعدم كفاية الأدلة ». وأرهف نـاروز أذنيه ثم إنتفش كذئب وتساءل ، « أتقصد ذلك الذى ينوم الناس ، كالمنوم المغناطيسى؟ »فقال نسيم بعد تفكير ، « لقد عرضت عليه مبلغا كبيرا من المال ـ مبلغا كبيرا حقا ـ لقاء ما أريد معرفته منه . أترى ما فعلت من أجل ذلك ؟ » وهز نـاروز رأسه متشككا ، وهو يشد لحيته القصيرة ،قال . «إنه ذلك المجنون . لقد اعتاد أن يأتى كل عـام إلى سانت هيلانـة . إلا أن جنونه غريب . إنـه يدعى زين العابدين . وهو رجل مبارك » .

قـال نسيم ، «إنه الـرجل الـذى أعنيـه ». أوقـف نـاروز الجوادين متحكما فيهما، وكأنما قد طرأت ببـاله فكرة ، ثم إحتضن أخاه ، وهو يقـدم له التهانى التقليديـة باسـم العائلـة . وابتسـم نسيم وقال ، « سوف تخبر ليلى ؟ أرجـوك يا أخى ».

« بالطبع » .

« بعد أن أرحل » .

« بالطبع ».

أحس نسيم ، فجأة ، وقد زال تـوتره وامتثل نـاروز لما أراد على الفور ، بأن عبئًا قـد انزاح عن كاهله . أحس ، فجأة ، أيضـا ، بأنه قد تعب للغايـة وأنه على

حافة النوم. انطلقا مسافرين فى خفـة ولكن دون عجلة . بلغا ، مرة أخرى ، وقد أوشك الليل أن ينتصف ، مكانـا تبدو منه أطراف الصحـراء على مرمى البصر . وهنا أفزع الجوادين أرنب برى ، حاول نـاروز أن يناله بسوطه ، إلا أنه أخطأه فى عتمة الليل .

صاح وهو يعود إلى جانب نسيم ، «هـذا خبر طيب للغاية » . بدا وكأن العدو عبر الكثبان الرملية التى يضيئهـا نور القمر قد منحه ما كـان فى حاجة إليه من وقت وعزله ليفكـر مليا، « هل تأتى بها ، الأسبوع القادم إلينـا ـ إلى ليلى ؟ أعتقد أنى لابد قد قابلتها . لكننى لا أستطيع أن أتذكر . أهى شديدة السمرة ؟ هل هى كما تقول الأغنيـة ، « لعينيها نـور اليراعات فى الظـلام ؟ » . وضحك ضحكته وهو يخفى رأسه كما اعتاد .

تثاءب نسيم في كسل ، « أحس الألم ! عظامى تؤلمنى . هذا ما نالنى من حياة الأسكندريـة . ناروز ، هنـالك شىء آخر كنت أنتـوى سؤالك عنـه . إننى لم أر بورسواردن . فماذا عن الإجتماعات ؟ » .

سحب ناروز نفسا كالفحيح واستدار بعينيه اللامعتين إلى أخيه وهو يقول، « حسنا ، إنها تسير على ما يـرام ، الاجتماع القادم سوف ينعقد فى مـولد سانت دميانة ، فى الصحراء » . شد عضلات كتفية الكبيرين ، « هل تصدق أن العائلات العشر كلها سوف تحضر هذا الإجتماع ؟ ».

قال أخوه ، « كن حذرا . تأكد أن يجرى كل شىء سرا ، وألا تكون هنالك أية ثغرات ».

صاح . « بالتأكيد » .

قال نسيم ، «أعنى أنه يجب ألا تتخذ المراحل المبكـرة صبغة سياسية . يجب أن تتطـور فى بطء ، مع تفهم الأمـــر وإدراكـه . إه ؟ إننى لا اعتقـد ، على سبيل المثال، ضرورة أن تكون أنت المتحدث إليهم بنفسك . والأصح أن تتناقش فقط . ليس هنالك مجال للمغـامرة ، فـالأمر ، كما ترى ، ليس قـاصرا على البريطانيين وحدهم».

طـوح نـاروز ساقه متبرمـا وهو يخلل أسنانـه . كـان يفكـر فـى ماونت أوليف ، وتنهـد . استمـر نسيم ، «هنـالك الفـرنسيـون أيضـا ـــ إن أهـدافهم

متعارضة . فـإن كـنا سنستفيد مـن كـليهما....»

قال نـاروز وقد نفد صبره ، « إننى أعـرف ، إننى أعرف» . نظـر إليه نسيم نظرة ثاقبـة ، قائلا فى حدة ، «إنتبه لما أقول، فـالكثير يتوقف على إدراكك للمدى الذى يمكن أن نمضى إليه فى هذه المرحلة ».

انسحق قلب ناروز لتأنيب أخيه ، فاحمر وجهه وشبك ذراعيه معا ناظرا إلى أخيـه ، قائلا فى صـوت أجش خفيض ، «إننى مـدرك لما تقـول » . أحس نسيم، للحال ، بالخجل من نفسه ، فأمسك بذراعه ، واستمر فى لهجة خفيضة واثقة .

«هنالك ، كما ترى ، ثغـرات غامضة تظهر مـا بين الحين والحين . فالعجوز كوهين ، مثلا ، الـذى مات الأسبوع الماضى ، كان يعمـل لحساب الفرنسيين فى سوريا . وعرف المصريـون ، عند عودته ، كل ما له عـلاقة بمهمته . كيف حدث ذلك ؟ لا أحد يـدرى . هنالك بالتأكيـد ، فى الأسكندرية ذاتها ، أعـداء لنا من بين أصدقائنا . ألا ترى ذلك ؟ ».

«أننى أرى » .

حان وقت عـودة نسيم ، فى صباح اليـوم التالى . سـار الأخوان راكبين ، عبر الحقول ، بخطى متمهلة ، إلى حيث المعديـة . قال نسيم . « لماذا لا تأتى البتة إلى المدينة ؟ تعالى معى اليوم . هنالك حفلـة راقصة عند آل راندیدى سوف تستمتع بها على سبيل التغيير ».

كسى وجه ناروز ذلك الإحساس الذليل الذى ينتابه ، دائما ، كلما أقترح أحدهم عليه أن يمضى إلى المدينة .قال فى بطء وهو ينظر إلى الأرض ، « سوف آتى فـى الكرنفال ». ضحك أخوه وهـو يمسك بـذراعه ، « كنت أعرف أنك سوف تقول ذلك . إنها ، دوما ، مرة واحدة فى العام ، فى الكرنفال . ليت شعرى ، لماذا؟».

إلا أنـه كان يعلم أن حيـاء نـاروز المفرط ، بسبب شفتـه المشقـوقة كشفـة الأرنب، هـو الذى دفعـه إلى الأنزواء ، إنـزواء يكـاد يكون متصـلا كذلك الـذى تعيشه أمه . كان لبـاس الدومينو الأسود الذى يرتديه فى حفـلات الكرنفال هو الذى يمكنـه من التنكـر وإخفاء وجهه الـذى يمقته أشـد المقت ، والـذى لم يعد يحتمل رؤيته حتى فى مرآة الحلاقة . كان يحس بحـريته فى حفلات الكرنفال .

ومع ذلك . كان هنالك سبب آخر لا يتوقعه أحد على الإطلاق ـ كان ناروز يضمر الهوى لكليا مند سنوات ، كليا التى لم يتحدث معها أبدا ،والتى لم يرها حقيقة إلا مرتين ، عندما جاءت مع نسيم لتركب الخيل فى العزبة . كان ذلك سرا لا يمكن انتزاعه منه ، حتى إن عُذب للبوح به . إلا أنه كان يذهب إلى المدينة ، فى كل كرنفال راقص ، يجرفه الزحام، آملا بطريقة مبهمة أن يلتقى مصادفة بتلك الشابة التى لم ينطق البتة اسمها أمام أحد بصوت مسموع ، إلا فى ذلك اليوم . (لم يكن يعرف أن كليا تمقت موسم الكرنفال ، وأنها تقضى الوقت فى هدوء تقرأ وترسم فى مرسمها).

افترقا بعد عناق حار . انطلقت سيارة نسيم تثير الغبار عبر هواء الحقول الدافئ ، تتشوق بلوغ الطريق الساحلى مرة أخرى . كانت هنالك بارجة فى حوض الميناء تطلق واحدا وعشرين طلقة تحية لأحد الشخصيات المصرية الكبيرة ، على ما يبدو . بدت القذائف وكأنها تبعث الرعدة فى السحب اللؤلؤية المعلقة ، دوما، فوق الميناء ، فى الربيع ، فتتغير ألوانها . كان البحر ، اليوم ، عاليا، وقوارب صيد أربعة تتجه فى سرعة إلى مرفأ المدينة بحملها من الصيد . لم يوقف نسيم سيارته إلا مرة واحدة ليشترى قرنفلة ، من بائع زهور متجول عند ناصية شارع سعد زغلول ، ليضعها فى عروة سترته . ثم توجه إلى مكتبه متوقفا فى الطريق إليه ليلمع حذاءه . بدت له المدينة أكثر جمالا من أى وقت مضى . جلس إلى مكتبه يفكر فى ليلى ثم فى جوستين. ترى ماذا ستقول أمه عن قراره؟

توجه ناروز ذلك الصباح إلى المنزل الصيفى ليقوم بمهمته . كان ، قبل ذلك، قد إنتقى كمية ورود حمراء وصفراء تكفى ملأ الفازتين الكبيرتين الموضوعتين على جانبى صورة والده . كانت أمه تنام إلى مكتبها ، إلا أن الضجة التى أثارها وهو يرفع سقاطة الباب ، أيقظتها على الفور .

فحت الحية فى صوت ناعس ، ثم عادت فخفضت رأسها إلى الأرض مرة أخرى.

قالت ، عندما رأت الورود . « فليباركك الرب يا ناروز » . ثم نهضت ، للتو، لتفرغ فازاتها . ألقى ناروز ، بينما يشذبان البراعم الجديدة

وينسقانها، بأنبـاء زواج أخيه . توقفت أمه سـاكنة مدة من الزمن طـويلة . لم يبدو عليها القلق ، وإن بدت جادة كـأنما تستشير إعمق أفكارها وأحاسيسها . أخيرا قالـت تناجى نفسهـا ، أكثر ممـا تتحدث إلى غيرهـا ، «ولم لا ؟ » . كررت العبارة مرة واثنين ، كأنما تختبر وقعها . ثم أخذت تعض إبهامها ، مستديرة إلى ابنهـا الأصغر قـائلة ، « إلا لـو كانت مغـامرة تسعى وراء مـاله ، فلن أقبلهـا . ولسوف اتخذ الخطوات لإبعادها . إنه ، على أى حال ، يحتاج إلى موافقتى » .

وجد نـاروز ، أن هذا الـذى تقول مضحك للغـاية ، فأطلق ضـحكـة توجس واشفاق ، فأمسكت بـذراعه كثيفة الشعـر بين أصابعها وقـالت ، «سوف أفعل ذلك » .

«أرجوك ».

«أقسم على ذلك ».

ضحك حتى بان سقف حلقه الوردى ، إلا أنها ظلت شاردة الفكر تنصت إلى مونولـوجها الداخلى . أخذت تربت على ذراعه ذاهلـة ، بينما استمر فى ضحكه، فهمست ، «صـه » . ثم قالت بعـد فترة من الصمت طويلـة وكأن أفكارهـا تثير دهشتها ، «إن الأمر الغريب ، هو أنى أعنى ما قلت بالفعل» .

قال ، وهو ما يزال يضحك وإن كانت كلماته تحمل بذور الجدية ، «لكنك لن تعتمدى علىّ، إه . لن تركنى إلىّ حارسـا على شرف أخى ». كان لا يزال منتفخا ، كالضفدع ، من الضحك ، رغم أن تعبيرات وجهه إتسمت الآن ، بالجدية . فكرت ليلى . « يا إلهى ، كـم هو قبيح » . تحسست أصـابعها خمارها الأسـود تضغط الندوب فى صفحة وجهها ، تلمسها فى عنف لعلها تنعم ملمسا.

قـالت وهى تكاد تبكى ، « يـا نـاروزى الطيب » . جرت بـاصـابعها خـلال شعره، وأثارتـه الشاعرية الرائعـة للغتها العربية ، وطيبت خاطـره . « يا قرص شهدى ، يـا يمامتى ، يا ناروزى الطيب ، قل له نعم ، مع حبى وعنـاقى ، قل له نعم ».

وقف ساكنا ينتفض كمهر ، ينهل موسيقى صـوتها وربتاتها النادرة بيدها الدافئة المقتدرة .

«لكن أخبره أنه من الضرورى أن يحضرها هنا إلينا » .

« سأخبره بذلك ».

«إخبره اليوم » .

سار بخطاه الواسعة المتشنجة كالمنشار إلى حيث الهاتف فى المنزل القديم . جلست والدته إلى منضدتها المتربة ، وهى تكرر لنفسها . مرتين ، فى نغمة خفيضة حائرة ، « لماذا كان على نسيم أن يختار يهودية ؟ ».

* * *

ـ ٥ ـ

أعدت بناء الكثير ، طبقا لما جاء فى متاهة الحواشى التى تركها لى بلتازار . إنه يقول فى إحداها ، «إنك عندما تتخيل ، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أنك مخترع ، كما لا يجرؤ امرؤ على الإدعاء بأنه العالم بكل شىء إن كان الأمر مرتبطا بتفسير وتأويل أعمال الآخرين. إن المرء ليزعم أن تلك الأفعال إنما نمت من أحاسيسهم كما تنمو الأوراق من فروع الشجر . ولكن ، هل يمكن للمرء أن يعود إلى الوراء مستنبطا هذا من ذاك ؟ ربما استطاع الكاتب الإقدام على ذلك أن امتلك ما يكفى من الشجاعة لتغطية تلك الفجوات الظاهرة فى أفعالنا بتأويلات من لدنه حتى تربط معًا . ماذا كان يجرى فى خاطر نسيم ؟ هذا سؤال جاد موجه إليك لتضعه أمام نفسك .

«أو ماذا كان يجرى فى خاطر جوستين ، أيضا ، حول هذا الأمر ؟ إن المرء ، حقا ، لا يعرف الإجابة . إن كل ما استطيع قوله ، أن أحترام الواحد منهما للآخر، كان يتنامى بقدر ما كان يتناقص تعلقهما ببعضهما البعض . لقد قبل كلاهما ، راضيا ، ألا يكون هنالك أى شكل من أشكال الحب فيما بينهما، كما سبق وأوضحت لك . ربما كان الأمر كذلك ، إذ أننى لم استطع أن أجد ، خلال مناقشاتى الطويلة معهما ، كل على أنفراد ، مفتاح هذه العلاقة التى فشلت بشكل واضح ـ كان فى وسع المرء أن يراها تغوص يوما بعد يوم ، كما تغوص الأرض ، كما يغوص سطح بحيرة ، دون أن يدرى لماذا . لقد طُلى مظهرهما الخارجى بطريقة بارعة متقنة للغاية ليخدع أغلب المراقبين ، أمثالك مثلا . كما أننى لا أشارك ليلى رأيها ـ فإنها لم تحب جوستين أبدا . لقد جلست إلى جوارها ليلة الحفل الذى أقامه ناروز لتقديم جوستين ، وقت المولد الكبير لأبو جيرج ، والذى يحل مع عيد الفصح كل عام . كانت جوستين قد تخلت عن ديانتها اليهودية وغدت قبطية انصياعا لرغبة نسيم، الذى ما كان فى وسعه إلا أن

يتزوجها سرا ، حيث أنها كانت قد تزوجت بالفعل من قبل . واكتفى ناروز بحفل تُقدم هى فيه إلى أهل المنزل الكبير وخدمه والذين كان يهتم ، دوما ، بأن تكون حياتهم جزءًا من نسيج العائلة .

« أقيم مخيم هائل وسرادقات حول المنزل دامت أربعة أيام ـ كانت تزينها السجاجيد والثريات والزخارف البارعة . وجردت الأسكندرية من كل زهور الصوبات فغدت عارية منها ، كما جردت ، بالمثل ، من شخصياتها الاجتماعية الكبيرة التى قامت بالرحلة الساخرة ، على نحو ما ، إلى أبو جيرج (إذ لم يكن هنالك ما يثير المتعة الساخرة فى المدينة قدر حفل زواج عصرى) ، وذلك ليقدموا الاحترام والتهانى لليلى . تقاطر المدراء المحليون والمشايخ وعدد لا حصر له من الفلاحين والشخصيات البارزة ، الدانى منها والقاصى ، ليشاركوا فى اللهو والمأدبة ـ بينما قدم البدو الذين كانت تتاخم أراضيهم العزبة ألعابا رائعة من الفروسية والعدو ، وكأن جوستين عروس فتية ، كأنها عذراء . ولك أن تتصور كيف كانت إبتسامات أثينا تراشا وآل سرفونى ! لقد جاء أبو قار ، العجوز نفسه ، ممتطيا جواده العربى الأبيض ، صاعدا به درجات سلم البيت إلى حيث حجرات الاستقبال حاملا باقة من الزهور .

« أما ليلى ، فإنها لم ترفع البتة (ولو للحظة واحدة) » عينيها الذكيتين عن جوستين . كانت تتابعها بعناية كمن يفحص لوحة تاريخية . وتساءلت وأنا أتابع نظراتها ، « أليست جميلة ؟ » . واستدارت نحوى بنظرة سريعة ، أقرب إلى نظرة الطائر ، قبل أن تعود مرة أخرى تراقب جوستين ، الموضوع الذى يستغرق إلتفاتها ودراستها ، وقالت ، «إننا أصدقاء قدماء ، يا بلتازار ، ولهذا ففى استطاعتى أن اتحدث إليك . لقد كنت أحادث نفسى ، إنها أشبه ، إلى حد ما ، بما كنت أنا عليه ذات يوم . إنها مغامرة ، أشبه بحية صغيرة داكنة ، تلتف حول نفسها ، تحتل مكان المركز فى حياة نسيم » . واحتججت على ما تقول بطريقة شكلية ، فحملقت فى عينى لوقت طويل ، ثم ضحكت ضحكة خفيفة ، بطيئة ، مكتومة . وأثار دهشتى ما قالته بعد ذلك ، « نعم ، إنها تشبهنى تماما ـ تلاحق المتعة بلا هوادة ، ومع ذلك فهى قاحلة مجدية ـ لقد تحول كل ما فى أعماقها إلى رغبة فى السيطرة ، ومع ذلك فهى ، أيضا ، مثلى ، ناعمة ورقيقة . هى

المرأة الحقيقية التى يريدها الرجل . إننى اكرها لأنها تشبهنى . هل تفهم ما أعنى ؟ إنى أخافها لأنها تستطيع قراءة ما يجول بخاطرى » . ثم بدأت تضحك منادية على جوستين ، «تعالى هنا يا حبيبتى . إجلسى إلى جوارى » . وقدمت إليها ذلك النوع من الحلوى الذى تكرهه أشد الكراهية ـ إنه حلوى البنفسج البلورى ـ وتقبلته جوستين على مضض ـــ لأنها هى أيضا ء كانت تكرهه . وهكذا جلست الأثنتان، واحدة كأبو الهول وعلى وجهه الخمار والأخرى أبو الهول سافرا ، تأكلان البنفسج المحلى بالسكر ، والذى لا تطيقه أيًا منهما . وشعرت بالبهجة أن اتيحت لى الفرصة لرؤية المرأتين، وهما فى أشد حالاتهما بدائية . إننى لا أستطيع أن أقول لك الكثير عن مدى صحة هذه الأحكام ـ إننا نصدرها جميعا على بعضنا البعض .

« والغريب فى الأمر ، هو أنه رغم هذا التنافر بين المرأتين ـــ والذى يمكن أن نطلق عليه تنافر التجاذب ـ فقد بزغ إلى جوار التنافر تعاطف غريب . إحساس بوحدة الشعور ، وتَعرفت كل منهما على ما بداخل الأخرى . إذ عندما تجاسرت ليلى، مثلا ، على لقاء ماونت اليف ، أخيرا ، تم هذا اللقاء سرا . وكانت جوستين هى التى قامت بتدبيره . كانت جوستين هى التى جمعتهما معا أثناء حفلة الرقص فى الكرنفال ،وقد إرتدى كل منهما قناعا ، أو هذا ما سمعت .

« أما عن نسيم ، ففى وسعى أن أقول عنه ، مع المخاطرة بالتبسيط الزائد عن الحد : أنه كان طاهر النفس إلى حد أنه لم يدرك أنه لا يمكنك الحياة مع امرأة دون أن تكون قد وقعت فى غرامها ، على نحو ما ـ وإن رغبة التملك تسعة أعشار الشعور بالغيرة . لقد فزع وأصابه الرعب من مدى غيرته على جوستين، وحاول، فى أمانة ، أن يمارس الشعور باللامبالاة ، وكانت شيئا جديدا عليه. هل كان ذلك الشعور صادقا أم زائفا ؟ لست أدرى .

« وإن أدرنا العملة على وجهها الآخر ، ففى وسعى أن أقول أن ما أضجر جوستين ، على غير المتوقع ، هو اكتشافها أن عقد الزواج الذى أعد بصورة عقلية منطقية ، وعلى مستوى الصفقة المالية ، كان ، على نحو ما ، أكثر الزاما من خاتم الزواج . إن المرأة تفكر مرتين قبل الأقدام على خيانة زوجها (إن جعلها الهوى أو الشبق تستبيح ذلك) . إلا أن خيانة جوستين لنسيم كانت أشبه

بسرقة مال من صندوق النقود . ما رأيك فى ذلك ؟ » .

إن شعورى الخاص (مهلا بلتازار ، أنظر إلى أين خطاك) أن جوستين قد أخذت تدرك بالتدريج أن هنالك شيئا ما خفيا فى طباع هذا الرجل المنزوى الذى يعزها ويعانى الكثير . إنها الغيرة التى تزداد بشاعة وخطورة حيث لا تسمح لنفسها بأى منفذ أو مخرج . فى بعض الأحيان ..... إلا أننى عرضة ، هنا، لخطر الكشف عما إئتمنتنى عليه جوستين خلال فترة ما سمى بالعلاقة الغرامية ، والتى جرحتنى بعمق ، وأنا أعرف الآن أنها كانت تستخدمنى لمآرب أخرى . لقد تناولت تطور تلك العلاقة كلها فى موضع آخر ، إلا أنه إن كان علىّ الآن أن أبوح بكل ما قالته لى عن نسيم ، بنفس كلماتها ، فإننى أتعرض للخطر، وذلك ، أولا : لأنى سوف أطرح أشياء ربما تمجها نفس القارئ ، كما أنها، حقيقة، توقع الظلم بنسيم ذاته . ثانيا : إننى لست واثقا ، بأى حال من الأحوال، بمدى صدقها النسبى ،إذ ربما كانت جزءًا من ذلك التخطيط الكبير المدبر للخديعة . إن تلك المشاعر ، أيضا ، قد تلونت (« دروس هامة مستفادة»..... الخ) بالشك الأساسى الذى أثارته ، فى خاطرى ، تعليقات بلتازار فيما بين السطور . «إن الحقيقة هى ما ناقضت نفسها أشد التناقض» . أية مهزلة تضم كل ذلك الذى حدث !

إلا أن ما يقوله بلتازار عن غيرة نسيم فهو ، على أى حال ، حقيقى ـــ لقد عشت زمنا فى ظلاله ، وليس هنالك من شك فيما تركه من أثر على جوستين . لقد وجدت من يتعقبها منذ البداية تقريبا . كانت موضوعة تحت المراقبة . وكان طبيعيا للغاية أن يبذر ذلك فيها الحيرة وفقدان الإحساس بالأمان ، والذى غدا رهيبا ، إذ أن نسيم لم يتحدث معها البتة ، صراحة ، حول هذا الأمر . لقد استقر هذا الشعور كثقل من الشك غير مرئى يلاحق تعليقاتها وينفى عنها أية صبغة أو لون ، حتى تلك التى كانت أكثرها براءة من نزهات ما بعد العشاء. كان يجلس بين الشموع الطويلة يبتسم لها فى رقة ، بينما يجلجل فى خاطره تحقيق كامل صامت يستقصى كل أفعالها . هذا ما كانت تقوله هى على الأقل.

إن أبسط الأفعال وأكثرها صدقا ـ كزيارة إلى مكتبة عامة أو قائمة مشتريات

أو رسالة على بطاقة ، قد غدتا عائقا يثير الخيبة فى عين غيرة قامت على عاطفة عقيمة . لقد تمزق نسيم أربا بطلباتها ، وتمزقت هى إربا بالشكوك التى كانت تراها فى عينيه ـ بتلك الرقة التى كان يضع بها دثارا فوق كتفيها . كانت تحس وكأنه يلف أنشوطه حول عنقها. وأصبحت هذه العلاقة ، على نحو غريب ، صدى لعلاقة التحليل النفسى التى وصفها زوجها الأول فى كتابه «عادات» ـ حيث غدت جوستين بالنسبة للجميع ، حالة تقتضى العلاج أكثر منها إنسانا . حالة تطاردها ، تكاد تخرجها عن جادة صوابها ، أسئلة مرهقة يطرحها عليها هؤلاء الذين لا يعرفون متى يتركون المريض وشأنه . لقد وقعت، بالفعل ، فى مصيدة . كانت الفكرة تتردد فى ظاهرها كضحكة مجنونة. إننى ما أزال أسمعها تتردد حتى الآن.

وسارا ، هكذا ، جنبا إلى جنب ، كمتسابقين متناظرين تمام التناظر . قدما للأسكندرية ما بدا النموذج المثالى لعلاقة يحسدهم كل الناس عليها ، كما يعجزون ، فى ذات الوقت ، عن تحقيق مثيلها . نسيم الزوج المتسامح ، شديد التعلق بزوجته ، وجوستين الزوجة اللطيفة الراضية .

ويكتب بلتازار فى تعليقاته وحواشيه ، « أعتقد أنه كان يبحث عن الحقيقة، فقط ، بطريقته الخاصة . ألا ترى أن هذه الملحوظة قد غدت سخيفة إلى حد ما؟ يجب أن نتفق جميعا على اسقاطها !إنها رغم كل شىء ، عمل شاذ . هل أعطيك مثلا آخر عن موضوع آخر ؟ إن تفسيرك لموت كابوديستريا فى البحيرة ، كان هو التفسير الذى قبلنا به جميعا ، بعقولنا بالطبع ، فى ذلك الوقت باعتباره الحقيقة .

«إلا أن الشهادات التى حصلت الشرطة عليها قد أجمعت على ذكر شىء واحد على وجه الخصوص ـ ذلك أنه عندما رفعت جثته من البحيرة التى كان يطفو على مياهها وإلى جوارها العصابة القماشية السوداء ، سقطت أسنانه الصناعية تقرقع فى قاع القارب ، مما أثار فزع الجميع . والآن إصغ إلى ما سأقول : بعد ثلاثة شهور من هذه الواقعة ، كنت أتناول طعام العشاء مع بيير بالبز طبيب الأسنان الذى كان يتردد عليه . وقد أكد لى أن أسنان داكابو كانت خالية من كل عيب ، على وجه التقريب . ولم تكن بها ، بالقطع ، أسنان صناعية

يمكن أن تسقط من فمه . من كـان إذن ذلك الغريق ؟ أنا لا أعـرف . وإن كان دا كابو، فى بساطة ، قد اختفى بعد أن دبـر استدراج أحدهم ليحل محله ، فقد كان لديـه كل الأسباب التى تدعـوه إلى ذلك : فقد ترك عليـه ، خلفه ، ديونـا تتجاوز المليونين من الجنيهات . أترى ما قصدت وما أعنى ؟

«إن الحقيقة بطبعهـا عرضـة للتقلب . فلقد قـال ناروز ذات مـرة أنه يحب الصحراء حيث « تمحـو الرياح آثار أقدام الإنسـان كما تطفئ لهيب الشموع ». والحقيقـة ، كما تبدو لى ، تفعل نفس الفعل . كيف يمكن إذن أن نبحث عما هـو صادق؟».

* * *

كان بومبال يجمع ما بين اللباقة الـدبلوماسية والخبث المتدنى لمدع عام من الأقاليم . كانـت العواطف المتضاربة فى أعماقة تـرتسم على وجهه السمين بينما جلس فى كرسيه الذى يجلس عليه كلما عاودته آلام النقرس ، وقد شبك أصابعه ببعضـها البعض . قال وهو يرمقنى بنظرة ثاقبة،«إنهم يقولون أنك تعمل ، الآن ، فى المكتب الثانى البريطانى ، إه ؟ لا تقل شيئـا ، فأنا أعلم أنه ليس فى مقدورك أن تتكلم ، وكذا الأمر معى أن سألتنى عن نفسى . أنت تعتقد أننى فى المكتب الثانى الفرنسى ـ إلا أننى أنكر الأمر كله تمام الإنكار . إننى أتساءل عما إذا كنت أدعك تسكن معى فى الشقة ؟ إن الأمر يبدو ..... كيف يمكن قولها ؟ هل نماثل بوكس وكوكس ؟ كلا . أعنى لماذا لا يبيع كل منا أفكـاره للآخر . اه ؟ إننى أعلم أنك لن تفعل ، وأنا كـذلك . إنها حاسة الشرف لـدينا .. إننى أعنى ، فقط، لوكـان كلينا فـى..... إحم . إلا أنك تنكر بالطبع ، وأنا أنكر أيضـا ، ولذا فإننا لسنا كذلك أنت لا تـرحب بمشاركتى نسـائى ، إه وأشيـاء أخرى أيضـا . أتـريد شـرابا ؟ إن زجاجة الجن هناك . إننى أخفيها من حميـد . إننى أعرف ، بالطبع ، أن هنـالك مـا يجرى ، ولن أيأس مـن إكتشـافه . شىء مـا أود معـرفتـه ..... نسيم.... كابوديستريا ....حسنا».

قلت محاولات تغيير مـوضـوع الحديث ، « مـاذا فعلت بـوجهك ؟ » كان قـد أطلق، منذ فترة قـريبة ، شاربـه . وأمسك به مـدافعا عنه ، وكأن سـؤالى كـان

تهديدا له بحلقه بالإكراه . « شاربى هذا . آه حسنا . لقد وجه اللوم والتقريع إلىّ، منذ فترة قريبة ،بسبب عملى ، وبأننى لا أوليه الاهتمام اللازم ، فقمت بتحليل نفسى حتى « أعمق الأعماق » (*) . هل تعلم عدد الساعات التى أفقدها كرجل بسبب النساء ؟ لن تستطيع الحدس أبدًا . ولذا اعتقدت أن أطلاق شاربى (ألا تراه بشعا ؟) سوف يبعدهن عنى قليلا ، إلا أن ذلك لم يحدث . واستمر الأمر كما كان . إنها ضريبة يجب أن أدفعها ، يا بنى العزيز لا لامتلاكى سحرا وجاذبية ، ولكن لانخفاض المعايير هنا . يبدو أنهن يحببننى لأنه لا يوجد هنا أفضل من هذا . إنهن يحببننى كدبلوماسى ، كالطير الفاسد ، «لماذا تضحك» (*)؟ إنك أيضا تضيع العديد من الساعات مع النساء ، إلا أن لديك الحكومة البريطانية تساندك ـ ومعها الجنية الاسترلينى ـ أه ؟ لقد جاءت تلك القناة هنا اليوم مرة أخرى . «يا إلهى »(*) ، كم هى نحيلة ، كما أنه ليس هنالك من يعتنى بها ! لقد عرضت عليها أن تتناول طعام الغداء ، إلا أنها لم ترغب فى البقاء ، وتلك الفوضى والقذارة فى غرفتك . إنها تتعاطى الحشيش، كذلك؟ حسنا ، عندما أذهب ، فى إجازتى ، إلى سوريا ، يمكنك أن تستخدم الشقة كلها ، شريطة أن تعتنى بحاجز المدفأة. إنه قطعة فنية متقنة . أليس كذلك،إه ؟ ».

كان لديه حاجز مدفأة زاه وضخم ، صنع خصيصا للشقة ويحمل نقشا كالوخزات ، « الخفة ـ البلاء ـ الأمومة» .

واسترسل قائلا ، « آه ، حسنا ، يكفى هذا عن الفن فى الأسكندرية . أما عن جوستين ، تلك البربرية التى تناسبك أكثر من غيرها ، ألا ترى أنت ذلك ؟ أننى أراهن على أنها .... إه ؟ لا تقل شيئا . لماذا لا تسعدك أكثر من غيرها ؟ أنتم أيها الانجليز مكتئبين على الدوام ، ممتلئين بالسياسة ، وليس هنالك ما يؤرق ضمائركم يا عزيزى (*) إمرأتان فى مقطورة واحدة ـــ من ذا الذى يريد أفضل من ذلك ؟ كما أن إحداهن شولاء ـ كما يسمى دا كابو السحاقيات ـ أنت تعرف سمعه جوستين ؟ حسنا ، إننى من ناحيتى أنبذ كل ..... ».

(*) بالفرنسية فى الأصل .

وهـكذا إنسـاب بومبـال فى مـرح ممتع طـويل ، سـابحا فى بحـر خبراتـه المضحكـة، بينما أقف فى الشرفـة أرقب السماء وهى تعتم فـوق الميناء وأسمع نعيق السفن المتجهم والذى يؤكد وحدتنا هنا ، وعزلتنا عن مجرى الخليج الدافئ للمشـاعر والأفكـار الأوروبيـة . إن كل التيارات تنـزلق من هنـا نحو مكـة أو الصحراء الغامضـة . وليس هنالك من موطئ قدم على الجانـب الآخر من البحر المتـوسط غير تلك المدينـة التى جئنـا إليها ، نستـوطنهـا ونكـرهها ، ونلـوثهـا باحتقارنا لذواتنا.

ثم رأيت ميليسا وهو تسير عبر الشارع ،فانكمش قلبى اشفاقا عليها وفرحا بمقدمها وأنا أستدير لافتح لها باب الشقة .

* * *

إن أيام الجزيرة الهادئة التى تصيب الإنسـان بالدوار لهى أنسب تعبير عن أفكار ومشاعر إمرئ يسير بمفرده على شـواطئ مهجوره ، أو يقوم بالواجبات المنـزلية البسيطـة فى دار تفتقـد الأم . إننى أحمل فى يـدى ما كتبـه بلتـازار من تعليقات وحواشى حيثما ذهبت ، سواء كنت أقوم بأعمال الطبخ أو تعليم الطفلة السباحـة أو قطع الخشب من أجل الموقد ..... إلا أن كل تلك القصص الخيـالية تعيش كنتـوء فى المدينة البيضـاء ذاتها ، والتى لا يقتحم سماؤها اللـؤلؤيـة ، فى الـربيع ، غير المنائر البيضـاء المختـالة وأسراب الحمام التى تتحـول إلى غمائم فضية أو زرقاء فى لـون الأماتست ، ومياه الميناء ، السوداء كـالرخام الطبيعى ، تعكس ظلال مقدمـات السفن الأجنبية الحاملة لرجـال الحرب وهى تستدير فى منحنيات بطيئـة توحى بـاتجاه الريح السـائدة ، أو تبتلع أنعكاسـاتها القاتمة كالأحبار ، تتلامس، تتداخل كاللغات والشيع والطوائف والأجناس التى تضفى عليها حمايتهـا المشوبة بالقلق ، فترمـز بذلك إلى الوجدان الغـربى، الذى تتمثل قوته فى الفولاذ ـ فى تلك المدافع المتجهمة المصوبة نحو البحيرة الصفراء المعدنية والمدينة التى تنتفخ عند الغروب كما تنتفخ الورود.

* * *

-٦-

ويكتب بلتـــازار ، « أمـــا عن بـــورســـواردن ، فإننى لن أقـــول لك أنك لم تنصفه..... فقط أقـول أنه لم يبعث حيا ، فى الورق ، بنفس الصـورة ، التى كان عليها ، كما عرفته . يبـدو أنه كان ، بالنسبة إليك ، نوعـا من الأحاجى والألغاز . (لعله ليس بكـاف أن يحترم المرء عبقرية إنســان ما ـ يجب أن يحبــه قليلا . ألا توافق معى على ذلك ؟) . ربما كان الحسد ، الذى تحدثت عنه ، هو الذى أعماك عن رؤيــة خصالــه . إلا أننى ، على نحو مــا ، أشك فى هــذا . إذ يبدو لى أنــه من العسير ، تمامــا ، أن يحســد الإنســان إمرئً كــان ، إلى حــد كبير ، حسن النيــة والطوية ، يتمتع بمثل هذه الغفلــة التى تجلت فى كثير من النواحى ، (فقد كانت النقود ، على سبيل المثــال ، تثير فزعه ورعبــه) ، ليصنع منه ، كل ذلك ، إنســانا مبدعا . إننى أعترف أننى كنت اعتبره رجــلا عظيما ، مبدعا حقيقيا . لقــد عرفته معرفة جيدة ، رغم أننى ، وحتى يومنا هذا ، لم أقرأ له البته ، ولا كتابا واحدا من كتبه ، ولا حتى ثلاثيته الأخيرة ، التى أثارت ضجــة عالمية ، رغم تظاهرى بأننى قــد قرأتها ، إن كــانت هنــالك صحبة مــن الناس . كنت أقلب صفحــاتها ، دون حاجة إلى القراءة أكثر من ذلك .

«لهذا ، كتبت هنا بعــض الملاحظات عنه ، لا لأتنــاقض معك ، أيها الحكيم ، ولكن لأجعلك ، فى بســاطة ، تقارن بين صــورتين غير متماثلتين . وإن كنت أنت قد أخطأت ، فيما يخصه ، فإنك لست أقل خطأ من بومبــال الذى كان يشهد له بمقدرتــه على « السخريــة السوداء » (*) ، والتى هى قــريبة للغــاية من قلــوب الفرنسيين. إلا أن الرجل ما كان يضمر ضغينة لأحد . كما لم يكن سأمه الظاهر من الــدنيــا تظــاهــرا ، بينما كـــانت قســاوة لســـانــه تــرجع إلى بســـاطتــه

(*) بالفرنسية فى الأصل

الشديدة، وإلى رغبة فى التخابث ،وهـى لم تكن ، دوما ، مصدرا للبهجة أو المتعة. إن بومبال ، كما أعتقد ، لم يندمل جرحه أبدا من ذلك اللقب التهكمى الذى أطلقه عليه ، « أشعر القلفة »(*) . وأنت ، أيضا ، إن غفرت لى ، لم تتجاوز ما أصابك من نقد بورسواردن لرواياتك . هل تتذكر ؟ . إن لهذه الكتب نزعة غريبة منفرة تقوم على القسوة وإفتقاد المشاعر الإنسانية ، ممـا حيرنى فى البداية . إلا أن تلك، فى بساطـة ، هى الطريقـة التى يلجأ إليها الإنسـان العاطفى ليـدارى ضعفه . إن القسوة ، هنـا ، هى الوجه الآخـر للرقة العاطفيـة المفرطة . إنـه يجرح الآخرين خشيـة أن يهصر تمام الهصر ! لقد كنت محقـا فى قولك أنـه كان يـزدرى حبك لميليسا ـ ولابد أن اللقب التهكمى ، والـذى يتفق والأحرف الأولى لاسمك، والذى أطلقـه عليك ، قد أصـابك أيضا بـالجراح (تقـاطيع وجه تعكس رغبـة تحققت فارتـاحت) . « ها هـو صاحب تقاطيع الـوجه الباليـة ، يمر فى معطفـه القذر الواقى من المطر » . أننى أدرك أنها مزحة منحطة ، إلا أن كل ذلك لم يكن يعكس الحقيقة فى تمامها.

«إننى أقلب ، اليوم ، محتـويات درج ملئ بـالمذكرات والتذكـارات ، كى أفكر فيـه،قليلا ، فـوق الورق . اليوم عطلة، والعيـادة مغـلقة . وأنا أعـرف أن هـذا العمل محفـوف بالخطـر ، لكننى ربما أتـوصل إلى إجابـة على سؤال ، لابـد أن تكـون قـد وجهتـه إلى نفسك ، بعـد أن قـرأت الصفحـات الإفتتـاحيـة مـن الحواشى والتعليقـات: «كيف تمكن بورسـواردن وجوستين .....؟ » ـــ إننى أعرف الإجابة .

« لقد جاء بورسواردن إلى الأسكندريـة مرتين قبل أن يلتقى بنا جميعا. كان قـد أمضى الشتاء ، ذات مـرة ، فى الأزاريطة ، يعمل فى واحـد من كتبه . إلا أنـه عندمـا عاد ، فى هذه المرة ، ليقـدم سلسلة محدودة من المحـاضرات فى الأتيليه ، كنت أنا و نسيم وكليا فى اللجنة ، و بذا لم يستطع تجنب هذا الجانب من الحياة السكندرية ، الذى أمتعه بقدر ما أحبطه .

«كان ، على قـدر ما أتذكـر ، من الناحية الجسديـة ، أشقرا ، ذا قامـة جيدة

(*) بالفرنسية فى الأصل

متوسطة ، متين البنيان ، وإن لم يكن ضخم الجثة . بنى الشعر والشارب الذى كان صغيرا للغاية . شديد العناية بيديه . ابتسامته لطيفة ، رغم أن وجهه ، إن لم يكن مبتسما ، يكتسى بتعبير ساخر يكاد أن يكون وقحا . كانت عيناه شهلاوتان بلون خشب البندق . كانتا أجمل ما فى وجهه ـ تنظران فى عيون الآخرين وأرائهم بصراحة حقيقية وصفاء يكاد أن يكون مخيفا . كان غير مهندم فى ملبسه ، إلى حد ما ، إلا أنه كان ، على الدوام ، نظيفا ناصعا ، يمقت الأظافر والياقات القذرة . هذا حق ، وإن كانت تلطخ ملابسه ، فى بعض الأحيان، نقاط الحبر الأحمر الذى كان يكتب به .

«إننى أعتقد ، حقيقة ، أن حاسة المزاح لديه قد عزلته ، عما يحيطه ، إلى عالم خاص به . أو أنه قد إكتشف عدم جدوى أن تكون له أراؤه ، ومن هنا تكونت لديه عادة أن يقول دوما ، بالمزاح والتنكيت ، عكس ما يفكر فيه . كان تهكميا يستهزئ بالغير ، ومن ثم فكثيرا ما بدا منتهكا لطيف المشاعر والأحاسيس . ومن ثم ، أيضا ، كانت طريقته المبهمة المتسمة بالخفة والابتذال الواضح الذى كان يتناول به الموضوعات الكبرى . إن هذا النوع ، من البهلوانية الجادة ، يترك بصماته الخاصة على أى حديث . إن أقواله المأثورة القليلة قد بقيت كآثار مخالب قطة طبطبت بلطف فوق سطح من زبد . أما الأحاديث الغبية فقد كان يجيب عليها بكلمة « كواتز » (١)

« كان يؤمن ، كما اعتقد ، بأن النجاح لصيق بالعظمة . وكان إفتقاده للنجاح المالى ، كفيل بأن يثير شكوكه فى قواه وقدراته . (إذ أنه حقق ، من أعماله، عائدا ماليا محدودا للغاية ، كان يرسله جميعه إلى زوجته وطفليه اللذين كانا يعيشان فى انجلترا) . ربما كان عليه أن يولد أمريكيا ؟ لست أدرى .

« أتذكر ذهابى ، ومعى كيتس لاهثا ، إلى المرفأ لاستقبال سفينته .كان ينتوى عقد لقاء صحفى معه . وصلنا متأخرين ، فلحقنا به بينما كان يملؤ استمارة الهجرة . وكان قد كتب أمام كلمة « الدين » بروتستانتى ، قاصدا من ذلك أن يقول ، بصورة مطلقة ، « أنا أحتج».

---

(١) kwatz

« دعونـاه إلى شراب كي يتمكن من إجـراء حواره معه على مَهَلٍ . كـان الفتى المسكين حائرا . مرتبكا إلى أقصى الحدود . كان لبـورسواردن إبتسامة خاصة يتعامل بها مع مـع الصحافة . إننى مـا زلت احتفظ بالصـورة التى أخذهـا له كيتس ذاك الصباح . كانت إبتسـامة أشبه بتلك الإبتسامه المتيبسـة التى تراها على وجه طفل ميت . لقد اعتدت إبتسامته تلك فيما بعد ، وتعلمت أنها تعنى ، أنه موشك ، بطريقته الساخرة ، على إنتهاك كل مـا هو مسلم به من مشاعر طيبة . كان يحاول أن يسلى نفسه ، فقط ، لا أن يسلى الآخرين . إنتبه كيف يتعامل مع الآخريـن . كان كيتس يلهث ، يغـالى فى مديحه ، يبـدو «مخلصا» ، يحاول سبر غوره ، ولكن دون جدوى . ولقد طلبت منه ، فيما بعد ، نسخة طبق الأصل ، من هذا اللقـاء الذى كتبه على الآلـة الكاتبة ، فأعطاهـا إلى وهو حائر ، مـوضحا أن الرجل لم يقدم له أى «جديد» ، كان بورسواردن قد قال أشياء من مثل ، «أنه من واجب كل وطنى أن يكره بلـده بطريقـة خلاقة»، « إن انجلترا تستنجـد ببيوت الـدعارة » . وقـد صدمت هـذه الجملـة الأخيرة كيتس المسكين ، على نحو مـا ، فسأله إن كان يرى أن « الرخصة المفتوحة بلا ضابط ولا رابط »، تصلح للعمل بها فى إنجلترا ، كذلك سأله إن كان يود تقويض الدين ؟

«إن فى مقـدورى وأنـا أكتب أن أتبين الأسلـوب الخبيـث الـذى أجـاب بـه صديقى، فى نبرات جزعة مهزوزة « كلا ، يـا إلهى . إن كل ما أريده ، فى بساطة، أن يوضـع حـد للقسوة التى يعامل بها الأطفـال ، والتى تشكل ملمحا يثير الهم والغم فى الحياة الإنجليزيـة ، وكذا بالمثل ذلك الحب المتفانى الـذليل للحيوانات المنزلية المدللة ، والذى يقارب العهر والفحش » . ولابد أن كيتس قد تعثر عبر كل هـذا الذى قيل . كـان يكتب ، بـأُختزال ، نقطـا وفواصل خطيـة قصيرة ، بينما بورسـواردن يتأمل الأفق البعيد . إلا أن الصحفى الذى يجد فى مثل هـذا النوع من الحديث المتبـادل ، غموضـا وإبهامـا ، سوف تتضـاعف حيرتـه من بعض الإجـابـات التى يتلقـاهـا على اسئلته السيـاسيـة . إذ أن كيتس عنـدمـا سأل بورسواردن ، مثلا ، عما يراه بالنسبة لمؤتمر اللجنة العربية ، والذى كان سيبدأ فى القاهرة ، فى ذاك اليوم ، فإنه أجاب ، « عندما يحس الأنجليز بأنهم مخطئون ، فإن ملاذهم الوحيد ، أن يقولوا ما لا يؤمنون به أو ينوون فعله» . «هل أفهم من

ذلك أنك تنتقد السياسة البريطانية ؟ » . « كلا بالتأكيد ، فإن إدارة أمور الدولة لدينا رشيدة لا عيب فيها » . وأخذ كيتس يروح ، لنفسه ، بالمروحة ترويحا شديدا ، مستبعدا ، على الفور ، كل الأسئلة السياسية من حديثهما. وقد أجاب بورسواردن عن السؤال « هل تنوى كتابة رواية أثناء وجودك هنا ؟ » ، بقوله ، « سوف أفعل ذلك ، إن حرمت أنا نفسى من كل متعة تريحنى وترضينى».

« وقال كيتس المسكين ، فيما بعد ، وهو ما يزال يروح جبينه الملتهب بالمروحة ، «إنه ابن زنا ، مزعج ومتعب ، أليس كذلك؟ » . لكن الشىء الغريب ، أنه لم يكن كذلك البتة . أين يمكن لمفكر حقيقى ، أن يتخذ له ملاذا ، فيما يسمى بالعالم الحقيقى ، دون أن يحصن نفسه ضد الغباء ، بالتدريب المستمر على الغموض والمغالطة ؟ أخبرنى إن عرفت الإجابة . الشاعر ، على وجه الخصوص، هو الذى يمكنه أن يفعل ذلك ، بصورة عملية . ولقد قال بورسواردن ذات مرة، «الشعراء لا يأخذون الناس أو الآراء مأخذ الجد . إنهم ينظرون إليهم ، كما ينظر الباشا إلى حريمه الزاخر بالنساء . إنهن حقا جميلات. إنهن للمضاجعة . إلا أنه لا مكان للتساؤل ، إن كن مخلصات أو زائفات أولهن مشاعر أو ضمائر . والشاعر ، بهذه الطريقة ، يحتفظ بطلاوة وجدة رؤيته . ويرى الإعجاز فى كل شىء . وهذا ما عناه نابليون عندما وصف الشعر بأنه « علم أجوف »(*) . لقد كان محقا تماما من وجهة نظره » .

« كان هذا العقل الضليع بعيدا عن أن يكون سوداويا ، وإن كانت أحكامه نابية قاسية . لقد رأيته شديد التأثر وهو يصف عَمَى جويس المؤلم ومرض د.هـ . لورنس ، حتى أن يده إرتعشت وشحب لونه . لقد أطلعنى ، ذات مرة ، على خطاب من لورنس إليه ، جاء فيه ، « إننى أرى فى كلامك نوعا من الكفر - يكاد أن يكون كراهية للرقة التى تنمو سريعا فى أعماق الأشياء ، الآلهة الداكنة.... » . وضحك ضحكة خفيفة مكتومة . كان يحب لورنس بعمق . إلا أنه لم يتردد البتة ، فى أن يرسل إليه ، كتابة على بطاقة ، « عزيزى د . هـ . ل . إن

(*) بالفرنسية فى الأصل .

هذ الجانب يماثل عبـادة الأصنام ـ إننى ، فى بساطة ، لا أحـاول تقليد نهجك فى بناء صرح ، كتاج محل ، حول أى شىء بسيط بساطة المضاجعة الجيدة»

« لقد قال لبومبال ، ذات مرة ، « أنت تمارس الحب ، تصعيدا للكبت وإحباطا للآخرين »(*) . ثم أضاف ، «إننى شديـد القلق على سباقى فى الجولف؟. وكان بومبـال يحتاج ، على الدوام ، لبعض الـوقت حتى يستنبط معانى هـذه الأشياء غير المترابطـة ، فيتمتم من بين أسنـانـه ، « أى خبيث ماكـر ، هـذا الطـراز من الناس»(*) . وحينئذ ، وحينئذ فقط ، كان بورسواردن يسمح لنفسه بأن يقهقه ضاحكا ـ وقد حقق إنتصاره الشخصى . كانا زوجا رائعا ، وقد إعتادا أن يشربا الكثير معًا ,

« وتأثر بـومبال لموتـه تأثرا شـديدا ـ قهـره هذا الحدث ، فـالزمـه الفراش أسبوعين . ما كان فى وسعه أن يتحدث عنـه ، إلا وتنساب الدموع من عينيه . و كان هذا يثير حنق بومبال نفسه ، فكان يقول ، « إننى لم أدرك البتة . كم أحببت هذا الـرجل الذى يشبه اللغم ». وكنـت وأنا استمع إلى بومبـال ، اسمع قهقهات بورسواردن الشريرة من كل ما يقول . كلا ، إنك مخطئ فى تقديرك له . فقد كان نعته المفضل لك « أوفيش »(١) ، أو هكذا قال لى .

« كانت محاضراته العامة ، كما تتذكـر مخيبة للآمال . ولقد إكتشفت ، فيما بعد ، لما ذا هى كذلك . كان يتلوها من كتاب . كانت محاضرات شخص آخر . إلا أننى عندما إصطحبته ، ذات مرة ، إلى المدرسـة اليهودية ، وسألته أن يتحدث إلى أطفال الفريق الأدبى ، كان ممتعا . لقـد بدأ معهم بأن عرض عليهم بعض خدع أوراق اللعب . ثم هنأ الفائز بالجائزة الأدبية ، طالبا منه أن يقرأ الموضوع، الذى نـال عنـه الجائز ، بصـــوت مـرتفع . ثم طلب من الأطفـال « أن يـدونـوا من كراساتهم، أشياء ثلاث يمكن أن تفيدهم ، يـوما ما إن لم ينسوها . وها هى تلك الأشياء الثلاث :

ـ إن كل من حواسنا الخمس يحوى فنا .
ـ يجب فى قضايا الفن ، مراعاة قدر كبير من السرية .

---

(١) UFFISH

(*) بالفرنسية فى الأصل .

ـ يجب أن يمسك الفنان بكل قبضة ريح .

« ثم أخرج من جيب معطفه الواقى من المطر ، لفة حلوى هائلة ، إنهال الجميع عليها وهو معهم . وهكذا أكمل أنجح لقاء أدبى ! إنعقد فى هذه المدرسة.

« كان له بعض العادات الطفولية . كان ينقر أنفه ،ويستمتع بخلع حذائه، أسفل مائدة المطعم ، أثناء تناوله الطعام . إننى أتذكر مئات الإجتماعات التى كانت سلسة ومفيدة ، بما إتسم به من المرح والتصرف على سجيته . إلا أنه ما كان يبقى على أحد ، وبذا خلق الأعداء لنفسه . كتب ذات مرة إلى د .هـ .ل . ، وهو الأثير لديه ، « أيها الأستاذ ،أيها الأستاذ ، راقب خطاك ، إذ ليس فى إستطاعة ثائر أن يستمر طويلا فى عصيانه ، دون أن يتحول هو نفسه إلى مستبد طاغية ».

«كان يقول ، فى استحسان دافئ ، عندما يرغب فى مناقشة عمل ردئ من أعمال الفن ، «إنه مؤثر للغاية » . كان ذلك تظاهرا كاذبا . إذ أنه لم يكن مهتما بالفن إلى الحد الذى يجعله راغبا فى مجادلة الآخرين حوله ، («كلاب تشمشم فى كلبة أصغر من أن يمتطيها أحد ») ، ولذا فإنه كان يقول « إنه مؤثر للغاية » . وقد أضاف ، ذات مرة ، وكان ثملا ، «إن ما هو مؤثر فى الفن ، هو ذاك الذى يغتصب عواطف من يستمع إليك دون أن تغذى فيه ما لديه من قيم ».

«هل ترى ؟ هل ترى ما اعنى ؟ » .

« كل ذلك شكل ثقلا ضاغطا على جوستين ، أشبه بطلقة وجهت إلى أوزة عراقية ، فتناثرت أحاسيسها ، وهو يقدم لها ، لأول مرة ، شيئا كانت قد فقدت الأمل فى أن تلقاه أبدا ، ذلك هو الضحك . ولك أن تتصور ، ماذا يمكن للمسة واحدة ساخرة أن تفعل بعاطفة سامية من عواطف الإنسان . قال لى بورسواردن ، وكان ثملا ، « أما عن جوستين ، فإننى أنظر إليها كعجوز تثير الغيظ . إنها أشبه بباب للجنس دوار ، يلزم ، على الأرجح ، أن نمر به جميعا ـ إنها ، على نحو ما ، فينوس سكندرية ماكرة . بالله عليك ، أى امرأة كان يمكن أن تكون ، إن تصرفت بطريقة طبيعية حقا ، دون أن تحس بالذنب . إن سلوكها يؤهلها للبنثيون ـــ هيكل كل الآلهة . إلا أن المرء لا يمكنه إرسالها إلى هناك

بتوصيـة من مجلس الحاخامات ـ وكأنها حـزمة من هذيان « العهـد القديم » . ماذا يمكن أن يقول زيوس العجوز ؟ » . ولمح فى عينىّ نظرة تأنيب وتوبيخ لهذه القساوة ، فقال ، فى شىء من الخجل والإرتبـاك ، « إننى آسف يا بلتازار . إننى، فى بساطـة ، لم أجرؤ على أن تكـون علاقتـى بها علاقـة جديـة . سوف أخبرك بالسبب يوما ما ».

« أما جوستين ، نفسها ، فقد رغبت ، رغبـة حقيقية ، فى أن تكون علاقتها به علاقـة جديـة . إلا أنه رفـض بصورة مطلقـة أن يستخوذ على تعـاطفها أو أن تشاركه توحده وانعزاله الذى كان يستمد منه الكثير من هدوء باله وتماسكه.

« وجوستين ، نفسها ، كما تعلم ، لم تكن تطيق الوحدة .

« كان عليه ، كما أتذكر ، أن يحاضر فى القـاهرة فى عدة جمعيات تنتسب إلى جمعيتنا الفنيـة . وطلب نسيم ، الذى كان مشغولا ، من جـوستين أن تصطحبه بالسيـارة إلى هناك . وبهذا وجـدا نفسيهما معا فى رحلـة ألقت عليهما نوعـا من صور كـالظلال السخيفة المضحكـة لعلاقة حـب ، وكأنها صورة بارعـة لمنظر طبيعى صادر عن مصباح سحرى . والغـريب فى الأمر أن جوستين لم تكن هى التى خلقت هذه الصورة . كـان صانعها أكثر خبثا ، كان الـروائى ذاته ـ فـقد قـال بـورسـواردن ، فى حسرة ، فيما بعـد ، « حسنا ، لقـد كنـا أشبـه ببـونش وجـودى»(١)

« كـان فى ذلك الوقت غـارقـا حتى أذنيه فى الـروايـة التى يكتبها . ووجـد ، كالمعتـاد ، أن حياته قد بـدأت تتبع ، بصورة مشوهـة ، نفس الخط الذى يسير عليه كتـابه . وقـد فسر ذلك بقولـه ، « أن أى تركيـز للإرادة يصبح بـديلا عن الحياة، ويـؤدى إلى انحراف حركتهـا (حمام ماء ارشميدس) . كـان يعتقد أن الحقيقة التى إنبثقت عن خيال الإنسان ، تحاول دومـا أن تتطابق وهذا الخيال. وأنت ترى من هذا ، أنه تحت ما كان يظهـر منه من أعمال بهلوانية ، كان هنالك إنسان جاد لـه آراؤه ومعتقداته الجامعة الشـاملة . إلا أنه كان أيضـا قد شرب كثيرا فى هذا اليوم ، كما كان يفعل دوما عندما يكون غارقا فى عمله . أما فيما بين

---

(١) كوميديا بالدمى . (المترجم)

كتابته لكتبه فإنه لم يكن ليتذوق قطرة من شراب . وأحس ، وهو يركب السيارة الكبيرة إلى جانبها ، وهى الجميلة السمراء التى يزوق وجهها عينان واسعتان كمقدم سفينة إغريقية ، بأن كتابه يمر سريعا تحت أحداث حياته وكأنه صفحة من ورق عليها برادة حديد هى الأحداث الدنيوية وكأن هنالك مغناطيس كما فى التجارب المدرسية ، ينشأ عنه مجال يجذب ما حوله ويشده إليه ، ليلتصق به .

« لم يكن يغازل أو يداعب جوستين . خذ بالك من هذا . كان إن تقرب إليها ، فما ذلك ، فى بساطة ، إلا محاولة لإجراء بعض الأحاديث معها والتعرف على توجهاتها ، حتى يتحقق ويتيقن من بعض النتائج التى توصل إليها فى كتابة قبل إرساله إلى الطباعة . إلا أنه كان ، بالطبع ، يؤنب نفسه ، فيما بعد ، مر التأنيب ، لإغراقه فى ذاته . كان يحاول ، فى ذلك الوقت ، الفكاك من إسار سخافة الشكل السردى للنثر الروائى ، مثال : « قال » ، « قالت » « مال بعينه تدللا ، أطلق صفعة ، رفع رأسا كسولا ..... الخ » . هل كان فى إمكانه أن ينجح فى تعريف شخصياته ، دون الاستعانة بمثل تلك الدعامات ؟ كان يساءل نفسه ، هكذا ، وهو يجلس هنالك فوق الرمال . (وهفت أهدابها فوق وجنته . « يا لهذا الهراء»(*). هل هو من كتب هذا ؟) . إن أهداب جوستين الكثيفة السوداء أشبه بـ ..... أشبه بماذا ؟ ولهذا كانت قبلاته دافئة حقا ، نابعة من أعماق قلبه ، إلا أنه كان يقبلها وهو شارد البال ، لأن تلك القبلات لم تكن ، بأى حال من الأحوال ، موجهة إليها . (تلك واحدة من تناقضات الحب الكبرى . ففى التركيز على المحبوب والعمل على امتلاكه يكمن مقتله) . لقد كشف لها حقيقة أنها كانت مضحكة ، وذلك بحكيه لها سلسلة من الفكاهات والنوادر التى كانت تمس عواطفها وتجعلها تأنس إليه فتضحك فى إرتياح يكاد يكون إثما . لم تكن نضارة بشرته وشعره ولا إقدامه على مطارحتها الغرام بطريقة كسولة لاحياء فيها ، هو ما يثيرها فقط ، بل كان تكامله الغريب فى ذاته هو ما أثار فيها فضول عواطفها بطريقة لم يكن لها بها عهد . ثم تلك الأشياء التى كان يقولها ، « قرأت بالطبع كتاب « عادات »(*) . وتعرفت عليك فيه مئات المرات باعتبارك شخصيته

(*) فى الأصل بالفرنسية

المأساوية المحورية . كل ذلك جيد . كتبه ، بالطبع ، كاتب مفطور . تفوح منه ، طبقا للموضة ، رائحة الإبط وماء الكلور . ولكن الآ ترين أنك ، بالقطع ، قد نسجت حول نفسك جوا من الأهمية ، إلى حد ما ، بهذا العمل فى مجمله ؟ لقد تطاولت لتدسى نفسك علينا كمشكلة ـ ربما لأنك لا تملكين ما تقدمين غير ذلك؟ وهذا سخف وحماقة . أو ربما لأن اليهودى يجب أن يعاقب ويعود دوما لينال المزيد ؟» وفجأة أمسك بها بقوة من قفاها ، وطرحها فوق الرمال الساخنة قبل أن تكون قادرة على إدراك مدى المهانة التى حلت بها ، أو تعد فى عقلها رد فعلها. وقال، بينما يقبلها ، شيئا مضحكا للغاية ، فاختلط الضحك بالدموع فى عقلها ، فتماثلت الأشياء ، وغدت شيئا واحد ، هو مزيج من الصفات التى يصعب على المرء أن يتحملها .

« قالت وقد قررت أن تتصرف كأنها غاضبة . « ما هذا بحق السماء ! » . لقد فأجأها ، إن شئت الحق ، وعقلها نصف نائم .

« ألم تكونى راغبة فى المضاجعة ؟ هل كان الخطأ خطأى !».

ونظرت إليه وقد جردها تعبير وجهه الذى اتسم بالندم الساخر ، من مقاومتها إلى حد ما .

«كلا ، بالتأكيد كلا . نعم » . وأخذ شىء ما فى أعماقها يكرر «نعم نعم » . إنها علاقة لا تترك وراءها أثرا ولا بصمة . إنها شىء ما سهل وميسور كانسياب قارب فى مياه عميقة . وصرخت « أيها الأحمق » . إلا أنها ، لدهشتها، أخذت فى الضحك. هل هزتها قلة حيائه ووقاحته ؟ لست أدرى . إننى فقط أضع على الورق ما أرى من رؤى .

« ولقد عللت الأمر لنفسها ، فيما بعد ، بقولها أن الجنس بالنسبة إليه ، كان الشىء الأقرب للضحك ـ إنه متحرر تماما من أية خصوصية . لا هو بالمقدس ولا هو بالمبتذل . ولقد كتب بورسواردن نفسه بأن الجنس فى اعتقاده شىء هزلى خبيث وفائق الروعة فى آن واحد . إلا أنها لم تتمكن من الإمساك بمعنى أو تحديد تعريف لما تبتغيه ، لأنها عندما قالت له ، « إنك مثلى . مشوش العلاقات الجنسية بطريقة لا يرجى صلاحها » ، ثار ثورة حقيقية ، وغضب غضبا

(*) بالفرنسية فى الأصل .

حقيقيا، وقال ، «أيتها البلهاء ، إن لك روح الكتبة ، لأنه لا شيء يضارع الشعر الحر (*) عند من يحبون الشعر ». ولم تفهم مما قال شيئا .

«ثم زجرها قائلا ، « أوه ، كفى عن التصرف وكأنك وسادة قديمة للخطيئة تتسم بالورع والتقوى ، وعلينا جميعا أن نغرس فيها دبابيس أعجابنا الصدئة». وأضاف فى يومياته بطريقة جافة ، «الفراشات يجذبها لهيب الشخصية ، وهكذا النساء مصاصات الدماء ، وعلى الفنانين ،أن يدركوا ذلك ، وأن يكونوا على حذر » . ولعن نفسه وهو ينظر فى المرآة ، على هذه الغفلة ، هذا الإغراق فى الذات الذى جلب عليه أشد ما يثير ضجره ـ أن يكون على علاقة وثيقة حميمة بأى أحد . إلا أنه رأى ، أيضا ، فى وجه جوستين النائم تلك الطفولة التى تسكن أعماقها فى أول ليلة حب لها ـ وقد تناثر شعرها منسابا فوق الوسادة كيمامة سوداء منفوشة الريش ، وأصابعها رقيقة دقيقة ، وفمها الدافئ يستنشق أنفاس النعاس ، كانت دافئة كتمثال من عجائن طازجة خارجة من الفرن لتوها . وصرخ بأعلى صوته ، « يا للعنة ».

« كانا معا فى الفراش فى فندق ملئ بمن يعرفهم من السكندريين ،والذين يمكن أن يلحظوا ، فى سهولة ، تهورهما وينقلوا الأقاويل إلى المدينة التى تركها هذا الصباح . وأخذ بورسواردن يسب ويلعن مرة أخرى . كان لديه ، كما تعرف، الكثير الذى يخفيه ويداريه . لم يكن هو فى الحقيقة كما كان فى ظاهر الأمر . لم يكن يجرؤ ، فى ذلك الوقت ، على المساس بعلاقاته بنسيم . إننى أكاد اسمع صوته وهو يلعن تلك المرأة !

« إصغ .....» (*)

« ولا كلمة ـ اسكتى» (*).

« ولكن يا عزيزى ، إننا بمفردنا » (*).

« كانت ما تزال ناعسة . وألقت نظرة على الباب المغلق بالمزلاج . وأحست ، لحظة ، بالتقزز من هذا الخوف البورجوازى الذى ينتابه ، الخوف مِن مَن ، مِن الدخلاء ، من الجواسيس أم من الزوج (*).

« ما الأمر ؟» (*).

« إننى استمع إلى نفسى» (*). عينان صفراوتان لا أثر فيهما للألوهية . كان

(*) بالفرنسية فى الأصل .

أشبه بالاه صخرى ممشوق القوام ، أشعث الشارب . أى ذكرى أيام مضت؟ « القلب النابض »(*). وانتقى أغنية شعبية أخذ يغنيها ساخرا .

« أنت لست المرأة التى تصلح لى ـ أو الطراز الذى أحبه» (*).

« وأحست هى إحساس الكلب الذى نالته الأسواط ، خاصة وأنه كان ، منذ فترة وجيزة ، يقبلها ، يخضعها بالحاح لصور متتالية من اللذة والألم ، تدرك هى الآن ، إنها لم تكن تعود إلا إلى شبقه ولا تعود إلى شخصه بذاته .

« قالت ،« ماذا تريد ؟ » . ولطمته على وجهه لتحس ، على الفور ، بالرد الحاد يلسع وجنتها كرذاذ إنهمر عليها . وعاد مرة أخرى إلى بهلوانيته حتى أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك .

«إن هذه الترجمة الغريبة للمشاعر بحركات وايماءات تناقض ما تقول من كلمات ، والكلمات التى تناقض ما تأتيه من حركات وإيماءات ، قد أربكتها وأفقدتها القدرة على تحديد توجهها ، فغدت فى حاجة لمن يرشدها ، متى تضحك ومتى تبكى .

« أما بالنسبة لبورسواردن ، فقد كان يؤمن بما يؤمن به « ريلكه » من أنه لا توجد امرأة يمكنها أن تضيف شيئا إلى مجمل المرأة ـــ واتخذ مما امتلأت به نفسه ملاذا يفيض بوافر الخيال ـ وهو المجال الحقيقى الذى يتميز به الفنان. ربما كان هذا ما جعله يبدو ، إلى حد ما ، باردا بلا إحساس وقالت له ، « هنالك فى أعماقك ، فى مكان ما ، يكمن رجل دين أنجليكانى ، قمئ وكريه » . وفكر باهتمام مليا فى ملاحظتها المتميزة وقال . « ربما » .ثم أضاف بعد فترة صمت، «إلا أن إفتقادك للدعابة والمرح قد جعل منك عدوة للمتعة . أنت العدو ذاته . إن لك رؤية مسبقة للتجربة والمعاناة . أما أنا فإننى وثنى حقيقى » . وأخذ يضحك. إن الصدق الصريح يمكن أن يكون أشد قسوة من أى شىء آخر .

«إننى اعتقد أيضا أنه كان برما من كل هذا « الطين الذى تقذفه عجلات الحياة» ـ كما كتب« لقد فعل كل ما فى وسعه ليمسح أكبر قدر منه ، ليرتب حياته وينظمها . فهل كان عليه أن يربط نفسه الآن كالسرج إلى فضول هذه

(*) بالفرنسية فى الأصل .

الجوستين ورغباتها المتأججة ـــ وهى الشخصية التى إنتهت إلى المستنقع، تلك النهاية التى كان قد تجاوزها وتفوق عليها . لقد قال لنفسه ، « لا ، والله » . أترى أى أحمق كان ؟

« كانت حياته زاخرة متنوعة . كان قد تعاقد على العديد من المراكز الوظيفية لأحد الفروع السياسية لمكتب أجنبى هو فى الغالب ، كما عرفت ، مرتبط بالعلاقات الثقافية . وقد مكنه هذا العمل من السفر إلى بلدان عديدة ، كما أنه يجيد لغات ثلاث على الأقل . كان متزوجا وأبا لطفلين . ورغم أنه كان منفصلا عن زوجته ـ وحقيقة لم يكن يتحدث عنها أبدا إلا وتلعثم ـــ فإ نهما كانا، كما فهمت ، يتراسلان بودو حنان . كان ، على الدوام رقيقا للغاية فى إرسال نقود إليهما . وماذا غير ذلك ؟ حسنا ، كان اسمه الحقيقى بيرسى ، إلا أنه كان يعانى الحساسية ، إلى حدا ما ، لما فى هذا الاسم من جناس ، ومن هنا ، كما أعتقد ، جاء إختياره لاسم لودفيج يوقع به على كتبه . كان يسعد ، دوما ، عندما ينظر إليه الصحفيون ، الذين يجرون معه الأحاديث ، باعتباره من أصل ألمانى .

« إننى أعتقد أن أكثر ما أسعد جوستين وأخافها منه ، على أى حال ، كان رفضه فى إزدراء إلى حد ما ، للأرناؤوطى وكتابه « عادات » . خذ بالك ، لقد كان هذا ، أيضا ، مبالغة منه ـ فقد كان ، فى الواقع ، معجبا بالكتاب أشد الإعجاب . إلا أنه استخدمه كعصا يوسع بها جوستين ضربا ، واصفا زوجها السابق بأنه كان ، « سجانا متعبا يميل إلى التحليل النفسى ، وقد تمنطق بحزام ملىء بالعقد النفسية الصدئة». يجب أن أذكر أن هذا القول كان يسعدها . إنها ، كما ترى ، قد عثرت على إمرئ لا يلجأ إلى الرطانة ، كما يأبى النظر إليها باعتبارها حالة من الحالات المرضية . كان بورسواردن بالطبع ، وهوا لغبى الأبلة ، يحاول ، فى بساطة ، أن يتخلص منها ،ولم تكن تلك الطريقة ناجعة تماما . ومع هذا ، فإننى، كطبيب ، أشهد بما للإهانات من آثار علاجية حيثما يفشل الدواء فى تحقيق أى تقدم نحوا لشفاء . وفى الحقيقة ، لو كانت جوستين قد نجحت فى

(*) بالفرنسية فى الأصل .

إثارة إهتمامه العقلى ، لتعلمت منه الكثير من الدروس القيمة . أليس هذا أمرا غريبا ؟ لقد كان هو بالفعل الرجل الذى يناسبها بصوره ما . و لكن ، كما لابد تعرف ، وطبقا لقانون الحب ، فإن ما يسمى بالرجل المناسب يأتى ، دوما، مبكرا للغاية أو متأخرا للغاية . أما عن بورسواردن فقد تراجع عنها بطريقة فجائية للغاية ، حتى أنه كان فى العسير عليها أن تتعرف على قوة شخصيته كاملة.

« كان ، فى الوقت الذى أكتب عنه ، مشغولا بإهانتها فى إنجليزية أو فرنسية فطرية متقنة .(كان له عدد قليل من كلمات التدليل التى إبتدعها ، والتى كان يسعده استخدامها ـ كانت إحداها كلمة «قشرة الكستناء » ، وهو قد إشتقها من كلمة هجاء تقاربها فى الحروف هى كلمة « زائف » . « يا لها من زائفة ملعونة»)(*) . كان يهينها ، إن كان فى وسع المرء استخدام هذا التعبير ، ليثبط من عزمها . إلا أنه يجب القول أنه كان من العسير علىّ أن أكتم ضحكتى عندما أفكر فى ذلك . إذ أنه يمكنك أن تثبط عزيمة جوستين إن أنت أثبطت عزيمة الشمس فى مدارها . كما أنها لم تكن على استعداد للتخلى عن هذه التجربة قبل أن تكون قد تعرفت ، بأكبر قدر ممكن ، على نفسها من خلالها . إنها صفة يهودية يحكمها السلب والنهب. لقد كان بورسواردن كالطبيب فوستر فى أغنية غرفة الأطفال .

« كان فى وسعه أن يبتعد عنها فى سهولة مما كان يمنحه جدة القلب وحيويته. إن جوستين لم تعرف من قبل احدا لا يشتهيها أو يستطيع العيش بدونها ! إن كل الأصوات والأصداء ، الجديدة عليها ، كانت تنساب كالينبوع عندما تضاجع مثل هذا الرجل . (هل تظننى أخترع ذلك ؟ كلا ، فأنا أعرفهما جيد المعرفة ، وقد ناقشت رأى كل منهما فى الآخر) . ثم أنه كان يستطيع إضحاكها ـ واضحاك المرأة هو أخطر ما يمكن أن تفعله بها ، إذ أنهن يعلين من قدر الضحك كثيرا ، فلا يتفوق عليه غير الهوى . هل تظن أن هذا هو الهلاك بعينه ! كلا ، فإن بورسواردن لم يكن مخطئا عندما كان ينظر إلى نفسه فى المرآة ويقول ، «لودفيج، إنك أبله » .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

« والأسوأ من ذلك ، أن السخرية التى كانت تصاحب قسوته ، كانت تصيبها بالأذى . كانت بعد أن تضاجعه ، مثلا ، تفكر على هذا النحو ، « إنه يفعل ما يفعل فى بساطة ، مثلما يصبح السلوك فى المنزل عادة . كتنظيف حذائه على الحصيرة .كانت تصدر عنه ، فجأة ، جملة شديدة السخرية ، كأن يقول مثلا ، «إننا جميعا نبحث عن شخص ظريف ممتع حتى نخونه ـ هل ظننت أنك مبدعة لا نظير لها ؟ » ، « يا لهذا الجنس البشرى ! إنك إن لم تستطيعى تحقيق رغبتك وأنت تضاجعين هذا الذى فى متناولك ، فلماذا لا تغلقين عينيك وتتخيلين ذلك الذى لا تستطيعين أن تناليه . من ذا الذى يدرى ؟ الأمر مشروع تماما ، كما يحيطه الكتمان . إنه الزواج الحقيقى للعقول » . كان يقف عند حوض الغسيل ينظف أسنانه بالنبيذ الأبيض . وكان فى وسعها أن تقتله لما كان يبدو عليه من مرح وتحكم فى ذاته .

« وتشاجرا عدة مرات أثناء عودتهما من القاهرة . كان يقول لها ، « ألم تفكرى ولو لمرة واحدة ، أن ما يسمى بمرضك ، قد يرجع إلى شعورك الحاد بالإشفاق على ذاتك ؟ » . واشتد بها الغضب حتى كادت تخرج بالسيارة عن الطريق وتصطدم بإحدى الأشجار . وصرخت وهى تكاد تبكى ، « أيها الأنجلو ساكسونى الحقير . أيها القواد العربيد ! » .

« وفكر فيما بينه وبين نفسه . « يا للسماوات ! ها نحن نتشاجر كزوجين حديثا عهد بالزواج . وعما قريب سوف نتزوج ونعيش فى انسجام ووئام قذر ، نقتات وجوه بعضنا البعض . أف ! . ما ابشع التماثل للزواج النموذجى . بيرسى ، لقد إنتهيت وفعلتها ثانية » . فى استطاعتى إعادة بناء كل هذا ، حيث كان ، أن سكر ، تحدث إلى نفسه بلغة أهل لندن ، تماما كما كان يحدث نفسه عندما يكون منفردا .

« قال لها ، وهو يحس السعادة ، « إن أنت حاولت ضربى فسوف تتسببين فى حادثة تحطم السيارة » . وفكر فى موضوع قصة قصيرة مريرة ، يمكنه إدخالها فى ثناياها . وتمتم لنفسه ، « هنالك حاجة لتحديد معامل التقلبات المفاجئة للعلاقات العاطفية ، توطيدا لدعائم الجنس فى الفن » . كانت ما تزال غاضبة ، فسألته ، « ماذا تتمتم ؟ ! فقال ، « إننى أصلى ».

« لم يكن ما تبقى لها ، بعد أن ضاجعها تقززا أو يأسا ، كما اعتادت ، بل كان ضحكا . ومع أنها كانت تستشيط منه غضبا ، إلا أنها وجدت نفسها تبتسم لحماقة قالها أو رقاعة فعلها، رغم أنها كانت تدرك ، فى ألم ولوعة ، أنه ليس بالرجل الذى يمكنها أن تقتنصه أو حتى تحوز صداقته إلا بشروطه الخاصة . كان يقدم لها رغبة بلا عاطفة أو حسن مؤانسة ، لكن العجيب أن ذاك الأمر كان يجعل لقبلاته معها وقعا مثيرا . كان كلاهما يتمتع بصحة جيدة أشبه بصحة طفل جائع يقضم تفاحة مطهية . وكانت ، وهى تحس الندم فى جزء آخر من عقلها (إذ كانت هنالك فى مكان ما من أعماقها ، إمرأة صادقة مستقيمة) ، تأمل ألا يهجر هذا الوضع الذى يتحصن وراءه أو يتراجع عنه . إن جوستين ، مثلها مثل كل النساء ، تكره الرجل الذى يكون طوع بنانها ، وعليك أن تتذكر أنه لم يكن فى حياتها البتة ، من أعجبت به هذا الإعجاب الكلى ـ رغم أن هذا قد يبدو غريبا على مسامعك . هنا ، أخيرا ، وجدت إنسانا لا تستطيع أن تعاقبه بخياناتها له ـ شخص لا يطاق ولا يحتمل ، لكنه كالبدعة يتسم بالجدة . إن النساء غبيات للغاية ، وهن بالمثل أيضا ، بعيدات الأغوار .

« وأدهشت جوستين تلك المشاعر الجديدة عليها ، والتى يبدو أنه كان قادرا على استثارتها فيها . إنها تتجسد فى أشياء بسيطة للغاية ـ فقد وجدت ، مثلا ، أن حبها له قد امتد ليشمل أشياء تخصه ، أشياء لا حياة فيها كغليونه القديم المصنوع من الطين وعنقه المصنوع من لحاء الشجر ، أو قبعته العتيقة التى أبلاها الاستعمال وصبغتها التغيرات الجوية ـــ كانت معلقة هناك خلف الباب ، كلوحة للرجل ذاته ، رسمت بالألوان المائية . لقد وجدت نفسها تتعلق فى حدب بالأشياء التى كان قد لمسها أو ألقى بها جانبا . كان يثير غضبها ما بدا لها نوعا من وقوعها تحت إساره العقلى . كأن تجد نفسها تمسح بيدها فوق واحدة من كراساته القديمة وكأنها تملس على جسده ، أو تتابع بأصابعها كلمات كتبها فوق المرآة بفرشاة الحلاقة (كلمات مأخوذة عن ستندال) : « يجب أن تواجه بشجاعة شيئا من تشريح الذات إن كنت تبغى إكتشاف مبدأ لم يكتشف بعد » و « إن النفوس العظيمة تحتاج إلى ما يغذيها ويخصبها ».

« وعثرت ، ذات يوم ، على بغى عربية فى فراشه (بينما كان يحلق ذقنه فى

الغرفة الأخرى ، ويصفر لحنا من الحان دونيزيتى) . وأدهشها أنها وجدت نفسها لا تحس الغيرة وإنما تحس الفضول . فجلست على الفراش وأمسكت بذراعى الفتاة المنكودة تضغطها ، وهى تستجوبها فى دقة عما أحسته بينما كانت تضاجعه . وقد أفزع ذلك ، بالطبع ، البغى فزعا شديدا . وأخذت جوستين تكرر لتلك المخلوقة التى كانت تنتحب بصوت مرتفع « أنا لست غاضبة ، إننى حائرة ، وعليك أن تجيبى عما أسألك عنه » .

« وجاء بورسواردن ليحرر زائرته . ثم جلس ثلاثتهم معا فوق السرير ، وجوستين تطعم الفتاة الفاكهة المسكرة لتهدئ من روعها .

« هل استمر فيما أكتب ؟ قد يصيبك هذا التحليل بالألم ـ لكن إن كنت كاتبا بحق ، فعليك متابعة الأشياء حتى نهايتها . أم أنك ترى غير ذلك ؟ إن كل هذا يبين كم كانت الأمور شاقة على ميليسا .....

« ولإن كان قد نجح فى إثارة غضبها الجامح ، فذلك لأنه كان فى وسعه الاهتمام بها دون أية مودة حقيقية . لم يكن على الدوام بهلوانى التصرفات ، أو بعيدا عن متناول يدها ، وهذا ما أعنيه بصدقه واستقامته . كان يولى النقود أهمية ذهنية ـ وهو ، فى الواقع ، قد أخبرها بالسر الحقيقى الذي يكمن وراء لغز مسلكه . سوف تجد ذلك فى واحد من كتبه . إننى أعرف ذلك لأن كليا قد ذكرته لى كاقتباس عنه ، يعكس أعمق عبارة له عن العلاقات الإنسانية لقد قال لها ذات ليلة ، « إننى أؤمن ، كما ترين يا جوستين ، بأن الآلهة رجال ، والرجال آلهة . إنهم يتطفلون على حياة بعضهم البعض ، يحاولون التعبير عن أنفسهم من خلال بعضهم البعض . ومن هنا جاء هذا الارتباك والخلط الظاهر فى حالتنا العقلية البشرية ..... ثم (واستمعى إلى ما أقول) أننى أعتقد أن عددا قليلا للغاية من الناس يدركون أن الجنس إنما هو فعل نفسى وليس فعلا جسديا . وأن المضاجعة الخرقاء التى يقوم بها البشر إنما هى مجرد صياغة بيولوجية أخرى لهذه الحقيقة ـ إنها وسيلة بدائية لتعريف العقول وربطها ببعضها البعض . إلا أن غالبية الناس تتمسك بوجهة النظر الجسدية ، غافلين عن الشاعرية التى يحاول هذا الفعل الجسدى أن يعلمها لهم بطريقة فجة . وهنا يكمن السبب وراء كل ذلك التكرار الخالى من أية بهجة ، لنفس الخطأ . إنه ، فى

بساطة ، يماثل تكرار جدول الضرب الممل ، وسوف يظل كذلك حتى تخرجين برأسك من أوهامه ، وتبدأين التفكير بطريقة مسئولة ».

« من الصعب أن أصف لك تأثير هذه الكلمات عليها : كانت إنقاذا ونجدة ألقت بحياتها وأفعالها فى طريق جديد تمام الجدة . وتراءى لها فجأة ، فى ضوء جديد ، كرجل يمكن للإنسان أن يحبه « حبا حقيقيا » . ولكن واأسفاه، كان هو قد انسحب بالفعل من حياتها .

« وعندما ذهب إلى القاهرة فى مرة تالية ، آثر أن يذهب بمفرده . وقلقت هى لغيابه ، فوقعت فى خطأ كتابه رسالة عاطفية مطولة إليه ، حاولت فيها ، بطريقة فجة ، أن تشكره على صداقته . كان هو غافلا تماما عن القيمة الحقيقية لتلك الرسالة بالنسبة إليها ـ وهو ، مرة أخرى ، أمر يصدق على كل حب . ورأى فى رسالتها مجرد محاولة أخرى لفرض تدخلها فى حياته ، فأبرق إليها يقول: (كانا يتراسلان عن طريقى . وما زلت أحتفظ بهذه البرقية) .

« أولا ، لا يستطيع أى إنسان أن يمتلك الفنان ، فكونى على حذر ، ثانيا ، ما جدوى أن يكون الجسد وفيا والعقل خائن بطبعه ؟ ثالثا ، كفى عن النواح والشكوى كامرأة عربية ، فأنت تعرفين ذلك خيرا منى . رابعا ، أن مرض الوسوسة العصبية ليس عذرا أو مبررا . فالصحة يمكن أن تنال وتكتسب بالقتال والمجاهدة . وأخيرا ، فإنه لأشرف لك ، إن لم تستطيعى الفوز أن تشنقى نفسك ».

« ولقد عثرت هى عليه ، ذات مرة ، فى مقهى الأقطار . كنا ، أنا وأنت ، كما اعتقد ، قد غادرناه للتو . هل تتذكر ذلك المساء ؟ كان ميالا إلى توجيه الإهانات . إنه ذلك المساء الذى حاولت أنا فيه أن أشرح لك كيف يدار مشروع القابال ذا النقاط التسع . ولم أكن أدرى حينئذ أنك سوف ترسل بكل هذا إلى دائرة الإستخبارات السرية . يا لها من مزحة لا تصدق ! إلا أننى أحب الإحساس بالأحداث وهى تتداخل ، تزحف فوق الأخرى ، كسرطانات بحرية مبتلة موضوعة فى سلة . ما أن غادرنا المقهى حتى دخلت جوستين . كانت هى التى ساعدته كى يعود إل الفندق ودفعته سالما إلى فراشه ، وصرخت فيه وهو مستلق. « أوه ، إنك أكثر الرجال مدعاة لليأس » . وهنا رفع ذراعيه مستجيبا

لإنفعالها « إننى أعرف ذلك ! إننى أعرف ذلك ! فما أنا غير لاجئ من الحياة الإنجليزية البطيئة الأشبه بألم الأسنان . ما أبشع أن يحب الإنسان الحياة بهذا القدر حتى أنه يكاد ألا يتنفس ! » . ثم بدأ يضحك ضحكة طغى عليها شعور بالغثيان . وتركته هنالك عليلا يتقيأ فى حوض الغسيل .

« توجهت إليه مبكرا فى صباح اليوم الثالى ، ومعها بعض الكتابات النقدية الفرنسية والتى اشتمل إحداها على مقال حول كتابه . لم يكن يرتدى شيئا غير سترة المنامة وعويناته . كان قد كتب فوق المرآة بفرشاة حلاقة مبتلة ، بعض الكلمات نقلا عن تولستوى . « إننى لن أكف عن تأمل الفن وإمعان الفكر فى كل الأشكال المغرية التى تطمس الروح » .

« أخذ الكتب منها دون أن تصدر عنه كلمة . بدا وكأنه سوف يغلق الباب فى وجهها ، فقالت ، « كلا ـ سوف أدخل » ـ فتنحنح قائلا ، « سوف تكون تلك هى المرة الأخيرة . لقد سئمت أن أزار كما يزور البعض قبر قطيطة ميتة . فأخذته بين ذراعيها ، فقال بطريقة أكثر رقة ، « سوف تتوقفين عن زيارتى نهائيا ، وبصورة كاملة . هل فهمت ما أعنى ؟ » .

« فجلست على حافة الفراش واشعلت سيجارة وهى تتأمله كما يتأمل المرء عينه من العينات . « إننى حريصة ، بعد كل ما قلته أنت عن إمتلاك الذات والمسئولية ، على التعرف على نصيبك من انجلو ساكسونيتك ـ وأنت العاجز عن إكمال أى شىء تبدأه . لماذا تبدو وكأنك تختلس شيئا ما ؟ » . كان هذا ، منها، خطًا هجوميا رائعا .فإبتسم . « سوف أعمل اليوم » .

« حينئذ سوف أحضر لك غدا » .

« سوف أصاب بالزكام غدا » .

« أحضر بعد غد » .

« سأكون فى طريقى إلى حديقة الحيوان ».

« وأنا أيضا » .

« أصبح بورسواردن شديد الوقاحة . كانت تدرك أنها قد سجلت نصرا ، وكان ذلك يبعث البهجة فى صدرها . واستمعت إلى إهاناته ، الحلوة كالشهد ، وهى تدق السجادة بقدمها . وأخيرا قالت ، « حسنا جدا . سوف ترى » .

(أخشى أنه يجب عليك أن تدبر حيزا فى كتابك عن المهزلة الأساسية للعلاقات الإنسانية . إنك لم تعط لها إلا مكانا محدودا للغاية) . وأخرجها فى اليوم التالى من حجرته بالفندق ، ممسكا بها من عنقها ، كما تمسك بقطة مستأنسة . وأفاق فى اليوم الذى يليه ليجد السيارة الكبيرة تقف خارج الفندق . وصرخ ، «يا للقرف » . وإرتدى ملابسه وذهب إلى حديقة الحيوان، فقط ، لأثارة غيظها . وتبعته إلى هناك . وأمضى الصباح يتفرج على القردة فى إهتمام بالغ . ولم تكن هى عمياء عما لحق بها من إهانة . وتبعته إلى دكة كان يجلس إليها يأكل الفول السودانى الذى كان قد اشتراه خصيصا للقردة . كانت تبدو دوما رائعة عندما تكون غاضبة ، وفتحتا أنفها ترتعشان ، وقد إرتدت تلك البذة الناصعة من الشارك سكين، وقد وضعت زهرة فى طية سترتها.

« قالت وهى تجلس ، « بورسواردن » .

« فقال ، « لم تصدقى أنت ما قلت لك ، يا سيدة المجتمع اللعينة المتعبة المتسلطة . دعينى منذ الآن ، وفيما بعد ، لحالى . إن مالك لن يجديك نفعا » .

« كان استخدامه مثل هذه اللغة معها دليل غبائه . كانت سعيدة أنها قد استثارت رعبه إلى هذا الحد . إنت تعرف بالطبع كم هى قوية العزيمة . إلا أنه كان هنالك سبب آخر ـ واستطاعت هى أن تستشف وجود مسألة حقيقية تكمن وراء تلك الإهانات ـ مسألة تتعلق بعلاقتهما كما كانت عليه . إنها شىء آخر . ما هو هذا الشىء ؟ .

« لقد لاحظت أنت أنها تتمتع بقدرة ، لا تخطىء ، على قراءة الأفكار . قالت، وهى تجلس إلى جواره تراقب وجهه كمن يقرأ متنا ردئ الصياغة ، «إنه نسيم. هنالك شىء له علاقة بنسيم . أنت خائف ..... لكنك لست خائفا منه » . وفى سرعة البرق تواصلت فراستها وحدسها ، فأندفعت تقول ، «هنالك شىء ما يتعلق بنسيم ، وأنت لا تقبل بالمساومة حوله . إننى أفهم ذلك » . ثم أطلقت زفرة عميقة ، « أيها الأحمق ، لماذا لم تخبرنى ؟ هل علىّ أن أهدر صداقتك بسبب هذا الشىء ؟ كلا بالقطع . إننى لا أعبأ إن كنت تبغى أولا تبغى النوم معى . ولكن أنت نفسك ـــ ذاك أمر آخر . حمدا لله أننى قد إكتشفت ما كنت تخفيه!»

« وبهت مما سمع حتى أنـه لم ينطق حرفـا . أدهشته قراءتها لأفكـاره أكثر ممـا أدهشه أى شىء آخـر له بها عـلاقة . فـأخذ يحملق فيهـا مدة من الـزمن طـويلة، دون أن يقـول شيئـا . واستمرت تقـول ، « أوه ، إننى سعيـدة ، فتلك مسألة يمكن تدبيرها فى سهولة شـديدة . كما أنها لن تمنعنا من اللقاء . إننا لن نحتاج البتة للنوم معا ، مرة أخرى ، إن لم تكن ترغب فى ذلك . لكنه سوف يكون، فى مقدورى ، على الأقل ، أن ألقاك » . إنه نـوع آخر من « الحب الوحشى » الذى يعجز المرء عن تعـريفه . إنها على استعـداد ، الآن ، لأن تخوض ، من أجله ، عبر النيران.

« كان صمت نسيم قد فرض نفسه على أجزاء كبيرة من عقلها . كان يمتد إلى كل جانب كما تمتد الصحـراء ـ يفل من عزيمتها . ولما كـان ضميرها بطبيعته ، ودون سبب ما ، ضميرا آثما ، فإنها كانت قد بدأت ، بـالفعل ، بناء حلقة دفاعية من الأصدقـاء حولها . أصدقاء لا ضير مـن وجودهم ، إلا أن هذا الوجـود يبعد الشبهة عنها ـــ كان هذا البلاط المحدود مكـونا من الشواذ جنسيا أمثـال توتو وعمار ، اللذين كانت نشاطاتهم وميولهم معـروفة لكل امرئ تمام المعرفة حتى أنها لا تثير أية حرقة فى القلوب . كانت تتحرك ككوكب نافر فى الحياة الاجتماعية للمدينة ، تتقبل اهتمام هؤلاء الخناث كأداة دفـاعية خالصة ، إنها نفس الطريقة التى يتبعها جنرال فى الحرب ، مستفيدا من معالم المدينة التى يود الدفاع عنها ، وذلك ببنـاء حلقـة وراء حلقة من ركـام التراب كمتـاريس للتحصين. ولم تكن تدرى أن صمت نسيم لم تكن له دلالـة غير اليأس ، لا التربص ـ لأنه لم يخرج أبدا عن صمته .

«إنك فى مخطوطاتك نادرا ما تذكـر مشكلة الطفلة ـ ولقد أخبرتك ، ذات مرة من قبل ، أننى اعتقد أن ارنـاؤوطى قد تجاهل هـذه المسألة فى كتابـه «عادات» ، لأنها بدت لـه كتمثيلية ميلو درامية . يقـول بورسواردن فى مكـان ما ، «إن كل الأشياء بـالنسبة لهؤلاء الـذين لم ينجبوا أطفـالا ، إنما هى أشيـاء بلا طنين أو رنين» . إلا أن مشكلة الطفلة بـالنسبة لنسيم كانت هامـة ، كأهميتها لجوستين ذاتها ـ كانت الطفلة هى وسيلته الوحيدة للحصول على الحب الذى إشتهاه منها ـــ أو هكذا كـان يفكـر . وانقض على لب المشكلـة فى حدة ، معتقـدا أن ذلك هـو

السبيل الوحيد لأختراق الدرع الحصين لزوجته الجميلة الصامتة ، الزوجة التى تزوجها وعلقها من معصمها فى ركن حياته كبيت العنكبوت ، أشبه بعروسة من عرائس المسرح تمسك بها الخيوط . حمدا لله أننى لم « أحب » ولن « إحب » قط ، أيها الرجل الحكيم ، حمدا لله !

« ويكتب بورسواردن فى مكان آخر (نقلا عن كليا مرة أخرى) . «تحتوى اللغة الإنجليزية على كلمتين عظيمتين طواهما النسيان : « الرفيق المعاون » ، وهى كلمة أعظم بكثير من كلمة « العاشق » : والكلمة الأخرى «رقة المحبة» ، وهى كلمة أعظم بكثير من كلمة «الحب» أو حتى «الشهوة».

«وسمعت جوستين يوما ، مصادفة ، محادثة هاتفية جعلتها تعتقد أن نسيم يعرف مكان الطفلة المفقودة أو يعرف شيئا عنها ولا يود الكشف عنه لها . إذ بينما كانت تعبر القاعه رأته يضع سماعة الهاتف بعد أن قال ، «حسنا إذن . إننى إعتمد على تقديرك للأمر . يجب ألا تعرف هى بذلك أبدا ». ألا تعرف أبدا ، ماذا ؟ ومن المقصود بهى تلك ؟ ولها عذرها إن قفزت إلى النتائج . وعندما لم يحدثها نسيم عن المكالمة الهاتفية بعد عدة أيام ، جابهته . وهنا وقع فى ذلك الخطأ القاتل ، خطأ إنكارها تمام الإنكار . قال لها ، أن ما سمعته إنما كان محادثة ، اخطأت فهمها ، مع سكرتيره الخاص . ولو أنه أخبرها ، بأن المكالمة كانت تتعلق بموضوع آخر مختلف تمام الإختلاف ، لكان ما فعله هو الصواب بعينه ، لكن إتهامه لها بأنها لم تسمع الكلمات التى كانت تجلجل فى أذنيها منذ أيام عديدة ، كجرس الإنذار ، كان خطأ قاتلا.

« وفقدت ثقتها فيه دفعة واحدة . وبدأت تتخيل وقوع كل أنواع الأحداث. لماذا يود أن يخفى عنها ، أى نبأ توصل إليه عن طفلتها ؟ لقد كان وعده الأساسى ، رغم كل شىء ، أن يفعل كل ما فى وسعه للتعرف على مصيرها . هل اكتشف شيئا بشعا إلى حد ألا يتحدث عنه ؟ بالقطع إن كان حقا قد توصل إلى شىء فهو لابد سوف يخبرها به . لماذا يخفى عنها أى نبأ يفترض معرفته ؟ إنها، فى بساطة ، عاجزة عن التخمين . إلا أنها فى أعماقها ، كانت تحس ، على نحو ما، أن النبأ قد أمسك به عنها كما يمسك بالرهينة ـــ فى مقابل شىء ما ـ ما هو هذا الشىء ؟ أن تسلك سلوكا طيبا ؟

«إلا أن نسيم الذى كان قد حطم بهذا التصرف الأخير الفج ، آخر مسحة تقدير كانت تكنها له ، كان يصارع مجموعة جديدة من العوامل . كان هو نفسه قد علق آمالا كبارا على استرجاع الطفلة كوسيلة لاسترجاع جوستين نفسها . إنه، فى بساطة ، لم يجرؤ على إخبارها — أو فى الحقيقة إخبار نفسه ، فقد كان الأمر شديد الألم — إذ أن ناروز بعد أن استنفذ كل وسائل البحث محاولا الوصول إلى الحقيقة ، إتصل به هاتفيا فى ذلك اليوم ليقول له ، « لقد رأيت المجذوب ، مصادفة ، فى الليلة الماضية ، واستخلصت الحقيقة منه قسرا . لقد ماتت الطفلة».

« وقد وقف ذلك الحديث بينها كسور الصين العظيم ، فاصلا فيما بينهما ، باعثا فيها الخوف خشية أن يكون قد إنتوى بها شرا . وهنا دخلت أنت مسرح الأحداث » .

* * *

نعم ، ويا للأسف ، أدخل أنا مرة أخرى ، ففى هذا الوقت ، تقريبا ، جاءت جوستين لحضور محاضرتى عن كافافى . وأخذتنى من هنالك لألقى نسيم المهذب الرقيق . فعلت ذلك فى بساطه ، لكنها كانت كفأس شق حياتى إلى نصفين. كم أحس اليوم بمرارة اعجز عن التعبير عنها ، وقد ادركت أنها كانت تستخدمنى لغرض خاص بها . هذه الوحش المسخ تسحبنى أمام نسيم كما يسحب مصارع الثيران العباءة لأكون ساترا يخفى لقاءاتها بالرجل الذى لم تكن هى ذاتها راغبة فى النوم معه . إلا أنى سبق وتناولت كل ذلك بالوصف التفصيلى ، وأنا أحس الألم العميق ـ محاولا ألا أحذف كلمة مهما كانت أو نكهة يمكن أن تعطى الصورة ذلك التلاحم الذى أحسست أنها تحتويه . ومع ذلك ، وحتى الآن ، فإننى أكاد ألا أشعر بالندم على تلك العلاقة الغريبة الرفيعة التى غمرتنى بها ـ دون أن تدرى ، كما أعتقد ، مدى قدرتها وسيطرتها ، والتى تعلمت أنا نفسى منها الكثير . نعم ، لقد أغنتنى حقا ، لكنها ما كانت إلا لتحطم ميليسا . يجب أن نواجه مثل تلك الأمور . إننى اتساءل لماذا أُخبر الآن، فقط ، بمثل كل تلك الأشياء ؟ أن أصدقائى ، بالضرورة ، كانوا يعلمون كل ذلك منذ زمن طويل . ومع ذلك فإن أحدا منهم لم ينطق بكلمة . والحقيقة التى لا جدال

فيها ، أن أحدا لا يتلفظ بكلمة ، وأحدا لا يتدخل ، واحدا لا يهمس ، بينما لاعب الأكروبات يسير فوق الحبل المشدود ـ إنهم يجلسون ، فقط ، يرقبون المشهد ، ليظهروا الحكمة بعد إنتهاء الحدث . ولكن ، من وجهة النظر الأخرى ، كيف كنت سأتلقى تلك الحقائق الثقيلة على النفس ، فى حينها ، وقد أعمانى حبى لجوستين وولهى بها ؟هل كان يثنينى ذلك عن غايتى ؟ إننى أشك فى ذلك .

إن ما فعلته جوستين فى كل ما حدث ، كما أعتقد ، هو تنازلها لى عن واحدة من ذواتها العديدة التى تمتلكها وتأهل بها ـ تنازلت لهذا المحب الخجول المتبحر فى العلم والذى يعلق الطباشير بكم ردائه !

أين يجب على المرء أن يبحث عن المبررات والأعذار ؟ إنها تتواجد ، كما أعتقد، فى الحقائق وحدها ، فهى التى قد تعيننى، الآن ، على رؤية أعمق قليلا لجوهر ذلك اللغز الذى يدعى « الحب » . إننى أرى ، الآن ، صورته تنحسر ، تتلوى بعيدا عنى فى سلسلة لا نهائية كأمواج البحر ، أو أشد برودة من قمر ميت ينهض فوق الأحلام والأوهام التى إختلقتها ـ إلا أنه يحتفظ دوما ، كما يحتفظ القمر الحقيقى ، بجانب واحد من الحقيقة ، مخفيا عنى الوجه الآخر السفلى لنجم جميل فقد الحياة . « حبى » لها ، «حب » ميليسا لى ، « حب» نسيم لها وحبها لبورسواردن . يجب أن يكون هنالك معجم للصفات والنعوت حتى يمكن تحديد معنى هذا الإسم (الحب) ، حيث لم يتضمن عند أى إثنين منا نفس الصفة والمعنى ـ فى حين كان يحمل عند الجميع خاصية يتعذر تحديدها ، خاصية واحدة مجهولة مشتركة فى الخيانة . إن لكل منا ، كما للقمر ، وجه مظلم ـ كل منا يستطيع أن يدير وجهه الكاذب «البغيض» نحو الشخص الذى يحبه كل الحب ويحتاج إليه أشد الحاجة . كما استخدمت جوستين حبى لها ، استخدم نسيم ميليسا ..... كل يزحف فوق ظهر الآخر « كما تزحف السرطانات المائية فى سلة » .

ومن الغريب أنه ليس هنالك مقومات بيولوجية لهذا الوحش المسخ الذى يعيش دوما بين الناس المنفردين ، رغم أن كل ما أحطناه به من قصص رومانسية كان يجب أن تجعله يتخذ النظراء المتماثلين موطنا له: كالأرقام النموذجية التى يستخدمها النساك فى وصف الزواج !

« وما الذى يحمى الحيوانات ويجعلها قادرة على الاستمرار فى الحياة ؟ إنها خاصية تميز المادة العضوية . فما أن يلتقى المرء والحياة حتى يلتقى وهذه الخاصية المميزة ، إنها ملازمة للحياة . وهى ظاهرة لها قطبيها ، شأنها فى ذلك شأن غالبية الظواهر الطبيعية ـ هنالك دوما قطب سالب وقطب موجب . القطب السالب هو الألم ، والقطب الموجب هو الجنس ـ إننا نجد أنه يمكن إيقاظ الجنس فى القرد والإنسان والحيوانات التى تأتى فى المرتبة الأولى ، باستثناء الحيوانات الأليفة ، دون حاجة إلى حافز خارجى ..... والنتيجة ، أن أعظم قوانين الطبيعة، ألا وهو المعاشرة الدورية ، قد ضاع عند الجنس البشرى . إن الشرط العضوى الدورى الذي يقوم بإثارة الحس الجنسى قد غدا ظاهرة مرضية ، عديم الجدوى على نحو مطلق ، منحطا وقد فسد طيب أصله . (بورسواردن مهموم ببيت القردة فى حديقة الحيوان ! كابوديستريا فى مكتبته الهائلة بما فيها من كتب آداب وفنون الفحش والفجور ، فاخرة التجليد ! بلتازار فى عالمه الغيبى ! ونسيم يتصدى لصفوف بعد صفوف من الأرقام والنسب المئوية) .

وميليسا ؟ كانت حقا مريضة ، فى أشد حالات المرض ، حتى أنه يمكن القول، بطريقة ميلو درامية إلى حد ما ، أننى أنا الذى قتلتها ، أو أن جوستين هى التى قتلتها . ومع ذلك فإن أحدا لا يستطيع تقدير ثقل الإغفال والإهمال والألم الذى كنت أنا سببه المباشر . إننى أتذكر ، الآن ، عندما جاء اماريل ، ذات يوم ، ليرانى وهو جياش العاطفة ككلب ضخم . كان بلتازار قد أرسل ميليسا إليه كى يفحصها بأشعة إكس ويعالجها .

كان اماريل رجلا يتسم مسلكه بالشذوذ ، زد على ذلك أنه غندور إلى حد ما. كان لديه مسدسين فضيين من مسدسات المبارزة ، وبطاقات زيارة منقوشة موضوعة فى أغلفة فاخرة . ملابسه رشيقة أنيقة طبقا لأحدث الموضات ، منزله ملئ بالشموع ، يفضل الكتابة بحبر أبيض على ورق أسود . وكان أروع ما فى الدنيا بالنسبة إليه ، إمتلاكه امرأة تسير طبقا لأحدث الموضات ، وكلب متفوق من كلاب الصيد أو زوج من الديكة المقاتلة التى لا تقهر. إلا أنه كان رجلا مقبولا ذو رهافة وإحساس كطبيب ، رغم كل تلك النواقص الرومانسية.

كان أبرز ما فيه هو تفانيه ، إخلاصـا ووفاء للنسـاء . كان كل ما يرتديه إنما إرضاء لهن . ومع ذلك فقد كـان هذا التفانى مصحوبا برقـة تكاد أن تكون عفة وطهارة عند التعـامل معهن ـ أو هكذا كان ، على الأقل ، فى مدينـة يُنظر فيها إلى المرأة وكأنها نوع من العلف أو أشبـه بطبق ملئ باللحم الضأن ، مدينـة تطالب النساء فيها بأن تساء معاملتهن .

إلا أنه نسب الكمال إليهن ، وبنى عنهن فى خياله قصصا رومانسية . وعاش دوما يحلم بحب كامل وفهم نموذجى مع واحدة من بنات تلك القبيلة . إلا أن كل ذلك كان عبثا . كان يقول لى أو لبومبال ، « أننى غير قادر على فهم هذا الأمر ، إذ قبل أن ينال حبى فـرصته حتى يتبلور ، يتحـول إلى صداقة عميقة طـاغية . إن ذلك التفانى فى الوفاء والإخلاص أمر لا يخص من كان مثلكم زئر نساء ، أنتم لا تفهمونه . إذ مـا أن توجد الصداقـة حتى يفر الهوى من النافـذة . إن الصداقة تستنفدنا وتصيبنـا بالشلل . ويبدأ نوع آخـر من الحب . ما هو ؟ لست أدرى . إنه نوع من الرقة والحنان ، شىء ما يذوب كاقراص الحلوى » . وتطفر الدموع من عينيه . « أنا حقا رجل المرأة . والمرأة تحبنى . لكن ..... » ويهز رأسه الرشيقة بينما ينفث دخـان سيجارتـه إلى أعلى نحـو السقف . ثم يضيف مبتسما، دون حسرة على ذاته ، « أنا الوحيد بين الرجال الذى فى مقدوره أن يقول ، إنه بينما كل النسـاء يحببنى فإن واحـدة منهن لم تحببنى كما يجب أن يكـون الحب . إننى بـرئ من الحب (ولست أعنى الحب الجنسى بالطبع) بـراءة عذراء . يـالك من تعس يا اماريل ! » .

كان كل ذلك حقيقيا . فقـد كان تفانيه مع النسـاء على وجه التخصيص هو الذى أملى عليه أختياره دراسة الطب ـ طب النسـاء . وكانت النساء تنجذبن إليه إنجذاب الأزهار نحـو أشعة الشمس ، فيعلمهن ما يرتـدين وكيف الخطا أثناء السير . يختار لهن عطورهن ويرشـدهن إلى أحمر الشفاه الذى يستعملنه . كما لا توجد امرأة فى الأسكندرية لا تفخر بـرؤيتها معه تستند إلى ذراعه ، ولا توجد إمـرأة واحدة منهن لا تحس السعـادة إن سئلت (وهو لم يسألهن ذلك أبـدًا) خيانة زوجها أو حبيبها من أجله . ومع ذلك فهنالك خيط اتصال إنقطع فى مكان ما ، وصلـة إنقصمت . كان يخمـد تلك الرغبات ، كما يعـرفها ، رغبـات الجسد

الخانقة فى الصيف فى مدينة الشهوة ، وبين فتيات الحوانيت ومن هن دونه مقاما . ولقد اعتادت كليا أن تقول ، « إن المرء ليحس بأن الأيام تدخر لاماريل ، أماريل العزيز ، مصيرا من نوع خاص ».

نعم . نعم . ولكن ما هو ، أى مصير يقبع مختفيا فى انتظار مثل ذلك الرومانسى — مثل ذلك المتفانى ، المحب ، الدارس المتأنى للمرأة ؟ تلك هى الأسئلة التى أطرحها على نفسى عندما أراه يلبس ، متأنقا ، قفازيه وقبعته ، يسوق سيارته ومعه بلتازار فى طريقهما إلى المستشفى لاجراء عملية جراحية.....

لقد شخص لى حالة ميليسا مضيفا ، « سوف يساعدها كثيرا أن تحظى ببعض الحب » . وملأتنى هذه الملاحظة بالخجل . كنت قد إقترضت ، فى ذات الليلة ، نقودا من جوستين حتى إرسلها ، رغما عنها ، إلى مستشفى فى فلسطين.

وسرنا معا إلى الشقة بعد أن قضينا بضع دقائق ، فى الحديقة العامة ، نناقش حالتها . كانت أشجار النخيل تلمع فى ضوء القمر والبحر يتلألأ تحت رياح الربيع . وبدا المرض الخطير وكأنه شىء ما خارج المكان ، خارج إطار هذا النسق للأشياء . وأمسك أماريل بذراعىّ ونحن نصعد السلم وضغطهما برقة ، قال ، « الحياة صعبة » . وأضاف وهو يرفع قبعته عندما دخلنا حجرة النوم مرة أخرى لنجدها ترقد هناك فى غيبوبة وقد إتجه وجهها الشاحب المتقع الضامر نحو السقف ، وأنبوب الحشيش إلى جوارها فوق المنضدة . « الأمر دوما هكذا .... لا تظن أننى أوجه اللوم إليك ..... كلا ، إننى أغبطك على جوستين..... إلا أننا نحن الأطباء نقدم دوما فى الحالات التى أشرفت على النهاية ، آخر وصفة طبية يائسة لامرأة عليلة ، فنقول ، « ليتها ، فقط ، حظيت بالحب » . ثم تنهد هازا رأسه الرشيقة .

هنالك ، دوما ، مئات السبل التى يبرر بها الإنسان ما فعل ، إلا أن سفسطة المنطق الهش ومغالطاته لا يمكن أن تبدل حقيقة أنه بعد مثل هذا النوع من المعلومات التى جاءت فى الهوامش والحواشى ، فإن ذكرى تلك الأيام تعاودنى من جديد ، تعذبنى بآثام ، ربما لم أكن أعيها البتة من قبل ! إننى اسير ، الآن ، إلى جوار الطفلة التى أنجبتها ميليسا من نسيم خلال تلك الفترة القصيرة من

الحب (هل كان ، مرة أخرى ، حبا ، أم أن نسيم كان يحاول استخدامها للوصول إلى معرفة كل ما يريد معرفته عن زوجته ؟ ربما أتوصل إلى ذلك يوما ما) . أقول أننى كنت أسير إلى جوار الطفلة فوق تلك الشطئان المهجورة ينتابنى إحساس بالجرم وأنا أستعيد مرة بعد الأخرى ، شظايا حياة تلك المدينة البيضاء ، بأسف وندم أعمق من ألا يبين فى نبرة صوتى وأنا أحادث الطفلة . أين يمكن للإنسان أن يعثر على مفتاح هذا النمط من الحياة ؟

كان من الواضح أننى لم أكن وحدى الذى يعانى مثل هذا الشعور بالإثم . لابد أن بورسواردن نفسه كان ، أيضا ، يعانى الشعور بالإثم ـ والا كيف يمكن أن أفسر ما تركه لى من أموال ، فى وصيته ، محددا لها غرضا خاصا هو إنفاقه على ميليسا . تلك ، على الأقل ، واحدة من المسائل التى أمكن حلها .

وأحست كليا ، أيضا ، كما أعرف ، بالأثم من ذلك الجرح الذى سببناه جميعا لميليسا ـ رغم أنها كانت تحس به ، إن جاز القول ، نيابة عن جوستين . لقد اعتبرته ، إن جاز القول أيضا ، إثمها هى ـــ إذ هالها الأذى الذى سببته حبيبتها لكلينا دون داع حقيقى . إنها هى التى غدت الآن صديقة ميليسا ، نصيرتها ومشيرتها والتى ظلت أقرب خلصائها حتى مماتها. إن كليا البريئة التى لا تعرف الأنانية ، هى حمقاء أخرى . إنها ما كانت تنتظر جزاء لإخلاصها فى حبها ! لقد قالت عن ميليسا ، «إنه لأمر رهيب أن يعتمد المرء كلية على أناس لا يحبون له الخير . أن ترى ، دوما ، امرئ ما لصيقا بأفكارك ، كالبقعة فوق الحقيقة.. » إننى أعتقد أنها ، ربما ، كانت تفكر أيضا فى جوستين ، وهى هناك فى منزلها الكبير تحيطها الشموع الطويلة واللوحات الزيتية لفنانين طغى النسيان على اسمائهم .

لقد قالت ميليسا لها عنى ، « أنه برحيله ، أختفت كل الأشياء من الطبيعة». قالت ذلك وهى على فراش الموت . إلا أنه لا يحق لأى إمرئ أن يحتل مثل هذه المكانة فى حياة إمرئ آخر ، لا أحد يحق له هذا الحق ! فى وسعك الآن أن ترى أية مادة خام اعمل بها خلال تلك المناجاة العاطفية الطويلة التى أجريها مع نفسى عبر بحر الشتاء . لقد قالت كليا فى مرة أخرى ، « لقد أحبتك لضعفك .هذا ما حببك لديها .ولو كنت قويا لأثرت مخاوف مثل هذا الحب الواجف الخجول » .

وأخيرا قبل أن أطوى صفحات مخطوطى فى غضب واستياء ، هنالك ملحوظة أخيرة لكليا تحرقنى كالحديد . لقد قالت ميليسا لها ، « كليا ، لقد كنت صديقتى، وإننى لأود أن تحبيه بعد ذهابى . نامى معه وأنت تفكرين فىّ . هل تفعلين ذلك؟لا تبالى بكل تلك المسائل البهيمية حول الحب . ألا يمكن لصديقة أن تمارس الحب نيابة عن صديقتها ؟ إننى أسألك أن تنامى معه ، كما أسال «الباناغيا » أن تهبط وتباركه أثناء نومه ـ كما فى الأيقونات القديمة » . كم أنت نقية طاهرة يا ميليسا ! كم أنت يونانية حقيقية !.

إننى أتذكر عندما كنا نسير معا أيام الأحاد لزيارة سكوبى ، وقد إرتدت ميليسا فستانها القطنى اللامع ، وقبعتها المصنوعة من القش ، تبتسم فى حماس لفكرة قضاء يوم عطلة بطوله بعيدا عن الكباريه المترب ، كنا نسير على الكورنيش الكبير ، والأمواج تتقافز ، تتراقص عبر الحاجز ، وعربات الحنطور المتداعية ذات الصرير والتى يطلقون عليها تاكسى الغرام ، تجرها خيول عجوزة ، يسوقها حوذيتها السود بطرابيشهم الحمراء وهم ينادون علينا عندما يمرون بنا ، « سيدى ، سيدى ، تاكسى الغرام بعشرة قروش فقط لا غير للنزهة ساعة واحدة . إننى أعرف مكانا هادئا..... » وكانت ميليسا تضحك فى فتور ، وتستدير ، بينما نسير ، نرقب المآذن تتألق فى ضوء الصباح ، وطائرات الأطفال الورقية زاهية الألوان تستقبل ريح الميناء .

كان سكوبى عادة ما يقضى أيام الأحاد فى فراشة . كان طوال الشتاء عرضة للإصابة بالزكام . كان يرقد متدثرا بأغطية كتانية خشنة ، بعد أن يكون عبد الله قد دلكه دعكا بالقرفة (لم استطع البتة إكتشاف حقيقة هذه العملية) . وكان يضع له أيضا ، بطريقة أشبه بالمراسيم الرسمية ، قالبا من الطوب الأحمر الساخن عند قدميه ليحافظ عليهما دافئتين ، وعلى رأسه طاقية من غزل مجدول. ولما كانت قراءاته قليلة محدودة ، فإنه ، شأن القبائل القديمة ، كان يحتفظ بكل محصوله الأدبى فى رأسه ، وكان يقوم ، مدة ساعات ، بالتلاوة لنفسه ، عندما يكون بمفرده. كان يحفظ قدرا كبيرا من التمثيليات الغنائية يلقيها فى حماس شديد مزمجرا كالرعد ، وهو يطرق بيده طرقات متتالية . وكانت قصيدة « وداع العربى لجواده الأصيل » تدفع بالدمع إلى عينه السليمة.

وكذا قصيدة « القيثارة التى عزفت ذات مرة فى قاعات تارا » ، بينما كانت هنالك قصيدة مدهشة أقل شهرة من غيرهـا وكان وزنها الشعرى الأشبه بعدو الخيل يستثيره فيلقى بنفسه خارج فراشـه ليقف فى منتصف الحجرة يلقى القصيدة كعاصفة قاصفة .

عندما شدد أونيل الحصار عليهم ، كادت تزوى أرواح
ثلثمائة ساكسونى سدت عليهم كل المنافذ
حتى إمتشق باجنال حسامه الطليطلى وأقسم
على سيف الجندى أن ينجد بورتيمور
كان جنوده المتمرسون الذى أختبروا فى حروب أجنبية ،
يسيرون قدما بملامحهم البرونزية وخطاهم الواسعة المتكبرة ،
آه ، كم كان مثيرا أن يرى المرء،
تلك السحابة الرعدية تخيم فوق بيل ـ أناثا ـ بويده !
بلاد أوين بو ! واندفع الأيرلنديون مهاجمين .
وأطلق العدو رشقة نارية واحدة ـ وولى رجال مدفعيته هاربين .
وفرت سترات الصلب أمام الصدور العارية ،
ورغم الخوذة والدرع رقدوا موتى أو فى النزع الأخير .
وغنم الإيرلنديون ملابسا ، نقودا ، بيارقا ، دخائر هائلة ،
أسلحة ، أعلافا ـ وانطلق السلب والنهب .
قضموا الخبز الأبيض ولاكوا اللحم البنى اللذيذ ،
يا له من يوم ، أكل الأهل فيه حتى الشبع .

لم يكن فى وسع سكوبى أن يخبرنى بأى شىء عن تلك القصيـدة ، مما أثار خيبة أملى . كـانت ترقد هنالك فى ذاكـرته ، منذ نصف قرن ، كقطعـة ثمينة من فضة عتيقة لا تخرج للنـاظر إلا فى المناسبات الاحتفاليـة . وكان من بين كنوزه المثيلة القليلة التى عرفتها ، ذلك المقطع الذى ينتهى:

إن جاءوا من أركان الأرض الأربعة مدججين بالسلاح ،
فلسوف نصرعهم .
كن على ثقة أن يوشع سكوبى سوف يصرعهم !

(كان ينشد تلك الخاتمة ، دوما ، فى حماس ملتهب).

كانت ميليسا تحبه أشد الحب . وكانت ترى فيه رجلا غريب الاطوار فى أقواله وسلوكياته . وكان هو من جانبه مفتونا بها ـ واعتقد أن مرجع ذلك ، بصورة أساسية ، أنها كانت تناديه دوما برتبته ولقبه الكامل ـــ بمباشى سكوبى ـ مما كان يسعده ويشعره بأهميته لديها « كموظف عالى القدر والمقام» .

إلا أننى أتذكر يوما وجدناه فيه يكاد يبكى . واعتقدت أنه قد أثار عواطفه بانشاده واحدة من قصائده القوية (كانت إحدى القصائد الأخرى الأثيرة لديه قصيدة « نحن سبعة ») ، إلا أن الأمر لم يكن كذلك . « لقد تشاجرت لأول مرة مع عبد الله » ، هكذا أقر لنا وهو يطرف بعينه بطريقة تثير الضحك . « أتدرى السبب أيها الرجل العجوز ، إنه يود احتراف مهنة الختانة » .

لم يكن من العسير فهم مقصده : إذ عندما يتحول المرء إلى حلاق ـــ جراح بدلا من كونه مجرد حلاق يقص الشعر ويحلق الذقون فإنه يكون قد أقدم على خطوة طبيعية كما يفعل إمرئ كعبد الله ، إنها أشبه بحصول دارس على درجة الدكتوراة . إلا أننى ، بالطبع ، كنت أعرف ، أيضا ، كم يمقت سكوبى الختان . واستمر فى حديثه غاضبا مستنكرا ، « لقد ذهب واشترى وعاء كبيرا قذرا مليئا بدود العلق . العلق ! وأخذ فى فتح عروق الدم . ولقد قلت له : إن كنت تعتقد ، يا بنى ، أننى قد وفرت لك عملا حتى تقضى وقتك فى ختان الأطفال الصغار ، مقابل قرش لكل حالة ، فأنت مخطئ » . وتوقف يلتقط إنفاسه . كان من الواضح أنه شديد التأثر من هذا التطور . وقلت أنا محتجا ، « ولكن يبدو لى ، أيها البحار ، أن رغبته فى أن يصبح حلاقا ـ جراحا ، أمرا طبيعيا للغاية . فالختان ، رغم كل شىء ، يمارس فى كل مكان ، حتى فى إنجلترا ذاتها الآن » . إن الختان كطقس من الطقوس كان مألوفا تماما فى واقع الحياة المصرية ، حتى إننى لم أفهم لما تكدر بهذا القدر من تلك الفكرة . وأخذ يبرطم متجهما محنيا رأسه إلى أسفل ، يطحن أسنانه الصناعية فى صخب . ثم قال معاندا ، « كلا ، لن أقبل بهذا الأمر » . ثم نظر فجأة إلى أعلى وقال ، « ألا تدرى ماذا سيفعل ؟ أنه يود أن يتعلم ، بالفعل ، على يد ذلك الجزار العجوز ـ محمود عناية الله ! ».

وعجـزت عن فهم هذا الإهتمام بتلك المسألـة . ففى كل عيد أو مـولد كـانت هنـالك العشة التى يجرى الختـان فيها كجـزء دائم من مظاهـر العيد . كـانت اللوحات الضخمة الملونة ، تزينها الرايات الكثيفة بالوانها الوطنية ، تحمل صور الحلاقين ـ الجراحين يعملون مشارطهم فى الشبـاب المسكين الممدد فوق مقاعد أشبه بمقاعد أطباء الأسنان ، تشكل سمة طبيعية غريبة فى العروض الإحتفالية الجانبية . كان محمـود شخصيا هو رئيس رابطـة الحلاقين ـ الجراحين . كان رجلا ضخما بيضـاوى الشكل ، له شارب طويل مـدهون بالزيت ،يـرتدى على الدوام أفخر الثياب ، يعطى ، بدون الطربوش ، إنطباعا غائما أشبه بطبيب ريفى فرنسى يقضى عطلته . كان يلقى على الدوام خطبا رنانة فى لغة عربية فصحى ، يقوم فيها بإجراء عملية الختان مجانا للمؤمنين الفقراء الذين يعجزون عن دفع الأجر المطلـوب . وعندمـا يتقدم ، فيما بعـد ، بعض من سيجـرى الختان لهم ، يدفعهم والديهم فى لهفـة إلى الأمام ، كان مهرجـاه الزنجيين بوجهيهما الملطخين ومـلابسهما العجيبة المضحكـة ، يتنططـان فى مـرح ليسليا الصبيـة ويصرفـا أنظارهم ، يستـدرجانهم بهذه الطـريقة إلى الكـرسى القاتل ، حيث كـانوا ، كما يصور سكوبى الأمر ، «يشرطون » ،وتغـرق صرخاتهم فى جلبة الزحام ، وهم لا يكادون يدركون ما يجرى لهم وحولهم .

لم استطع تبين خطأ أن يـرغب عبـد الله فى تعلم كل مـايستطيع تعلمـه من رئيس هـذه الرابطـة ، عن عمليـة التشريط تلك . وفجأة أدركت مـا كان يعنيـه سكوبى عندما قال ، « ليست المسألة مسألة الصبية ، فليفعلوا بهم ما يشاءون. إن مـا يهمنى هن الفتيـات أيها العجـوز . إننى لا أحتمل التفكير فيما يمكن أن يصيب هذه الكائنات الصغيرة . إننى رجـل إنجليزى عجوز ، وفى مقدورك أنت أن تفهم مشاعرى . إننى لن أقبل بهذا » . وغاص إلى الخلف فوق وسادته ، وقد أرهقه ما بذل من جهد فى الحديـث ، ثم استمر ، لقد أخبرت عبد الله فى عبارات لا تقبل اللبس أو الغموض بما هو أكثر من ذلـك . لقد قلت له : «ضـع أصبعك فوق واحدة من الفتيـات ولسوف أدخلك السجن..... جـرب لترى ما سـأفعل بك . إن هذا الأمر يمزق القلب، إنهما دون شك ، أيها العجوز . صديقاى الحميمان . ولذا فإن الفأر المسكين لم يفهمنى . إنه يعتقد بجنونى » . وتنهد مرتين فى تثاقل،

« لقد كـانت صداقتهما أفضل ما عرفت من صـداقة ما عدا صـداقتى لبدجى . إننى لا أبـالغ فيما أقول ، أيها العجـوز . لقد كـانت كذلك بـالفعل . إنهما،الآن ، حـائران ، لا يفهمان مشاعـر رجل إنجليزى . كما أننى أكـره استخدام سلطـة وظيفتى » . وتسـاءلت فى عجب عما يعنيـه بـالضبط ، فـاستمر قـائلا ، « لقـد أمسكنا بعبـد اللطيف فى الشهر الماضى فقط ، وأدخلناه السجن محكومـا عليه بسته شـهور لاستخدامه أمواس قذرة . كان ينشر الزهرى ، أيها العجوز . وكان علىّ أن أفعل ذلك رغم أنه كان صـديقى . إنه الواجب . لقد حذرته مـرات بلا عد كى يطهر أمـواسه ، إلا أنه لم يفعل ذلك . إن إحساسهم ، هنـا ، بأهمية التعقيم ضـعيف للغـاية ، أيها العجـوز . إنهم ، كما تعرف ، يستخـدمون الشبـة كمادة قابضـة ـ شبة الحلاقة للختان . إنهم يعتبرون استخدامها أكثر عصرية من ذلك المزيج القـديـم من مسحـوق البـارود الأســود وعصير الليمـون . أف ، إنهم يفتقدون الإحساس بضرورة التعقيم . إننى لا أدرى لما لا يمـوتون من مختلف تلك الأشياء . حقيقة لا أدرى . إلا أنهم فزعوا فزعـا حقيقيا عندما أمسكنا بعبد اللطيف . وقد تأثـر عبد الله قلبيا بهذا الأمر . لقد كـان فى وسعى أن أراه يرقبنى وأنا أتحدث إليه كأنما يزن معنى كلماتى ».

إلا أن الصحبة كانت ، دوما ، تطيب نفس الرجل العجوز وتبعد عنه الأشباح والأوهام . ولم يمض طـويل وقت حتى كان يتحدث ، فى استطـراد ، بمزاج رائع عن تـاريخ توبى مـا نرينج ، « كـان هوالـذى عرفنى بـالكتاب المقـدس ، أيها العجوز.. لقد كنت أتصفح التوراة بالأمـس عندما وجدت الكثير عن الختان. هل تعرف أن العماليق إعتادوا جمع القلف ، كما نجمع نحن طـوابع البريد . ألا ترى أن الأمر مثير للضحك ؟ » . ثم نخر ضاحكا كذكر الضفدع «يجب أن أقول أنهم كانـوا قوما لا نظير لهم . كما أعتقـد أنه كـان منهم تجار يعدون منها حـزمات متنوعة ، ولهم فيهـا تجارة منظمة . إه ؟ ويدفعون أكثـر من أجل تخريمها ! » . ونظر مبـاشرة نحو ميليسا التى دخلت الغـرفة فى تلك اللحظة ، وقال ، وهـو ما يـزال يهتـز ضحكا من نكتتـه ، « يجب أن أكتب الليلـة إلى بـدجى وأخبره بكل الأنباء» . كان بدجى هو أقدم أصـدقائه « إنه يعيش فى هورشام، أيها العجوز ، حيث يقوم بحفر المراحيض التى حقق منها دخلا منتظما . هذا العجوز بدجى .

إنه ينتمى إلى ف رزس ، وأنـا لا أدرى ماذا تعنى بالضبط ، إلا أنه يكتبهـا فوق خطاباته . تشارلز دونا هو بدجيون ف رزس. إننى أكتب إليه أسبوعيا بانتظام. لقد كان هذا دأبى معه وسأظل دوما أكتب إليه . إننى الصديق الصدوق الذى لا يتخلى عن صديقه أبدا » .

وأعتقد أن الخطاب الذى لم يكتمل والذى عثر عليه إلى جواره فى حجرته، بعد موته، كان موجها إلى بدجى ، وقد جاء فيه .

« الصديق القـديم العزيز . يبدو أن العـالم كله قد استدار ضـدى منذ آخر خطاب كتبته إليك . كان يجب على أن ..... » .

إن سكوبى وميليسا مازالا يعيشان فى أيام الأحد تلك ، يشعان بتلك الأطياف التى تسبغها الـذاكرة على هؤلاء الذين أثـروا حياتنا بدمـوعهم أو ضحكاتهم ـ دون أن يعوا ، هم أنفسهم ، أنهم قد منحـونا أى شىء . إن الشىء البشع حقا ، هـو أن ذلك الحب القـاهر الـذى أشعلتـه فىّ جـوستين كان ثمينـا وكانـه حب «حقيقى» ، كما لم تكن عطية ميليسا لى أقل منه إثارة للحيرة كـاللغز ـ ماذا كان فى وسعهـا ، حقـا ، أن تقدمـه لى ، هـذه المنبـوذة الشـاحبة سـاكنـةالسـاحل السكندرى؟ هل أثـرت كليا أم إفتقرت بعـلاقاتها مع جـوستين ؟ يجب أن أقول أنها قـد أثـرت ثراء بـلا حـدود . هل كنـا إذن نتغذى على القصص الخيـاليـة والأكاذيب ؟ إننى استعيـد كلمات بلتازار التى كتبها فى مكان ما بخطـه الطويل النحوىّ ، «إننا نعيش على قصص خيالية منتقاة » . كما كتب أيضـا ، « كل شـىء يصدق عن كل شخص » . وهل كـانت كلمات بورسواردن مستقـاة من خبرته بالرجـال والنساء ، أم هى ببساطة نتاج مـراقبته الدقيقة لنا ، لسلوكيـاتنا وما قادت إليه من نتـائج ؟ لست أدرى . وتخطر ببالى فقرة قـرأتها فى رواية يتحدث فيها بورسواردن عن دور الفنان فى الحياة . إنه يقول شيئا ما كهذا ، «إن الفنان وهـو واع لكل مفسده ولكل رزيـة فى طبيعـة الرجل ذاتـه ، لا يستطيع أن يفعل شيئا يحذر بـه أصدقـاءه ، يرشـدهم ، يصرخ فيهم فى الوقت المنـاسب محاولا إنقاذهـم . إن ذلك سوف يكون بـلا جدوى ، حيث أنهم ، هم أنفسهـم، مصدر تعاستهم المتعمدة . إن ما يستطيع الفنان أن يوصى به هو : تأمل وابك ».

هل كـان إدراك بورسواردن للمأسـاة التى لا شفاء منهـا ، والتى ليست فى

العالم الخارجى الذى نلقى جميعا باللوم عليه ، لأنها فى ذواتنا ، فى الأحوال البشرية، هوالذى أملى عليه ، فى النهاية، الإقدام على هذا الانتحار المفاجئ فى حجرة الفندق العفنة تلك ؟ أميل للاعتقاد بهذا ، إلا أننى ربما أتعرض بذلك لخطر وضع كثير من اليقين على الفنان فيه ، على حساب الإنسان . ويكتب بلتازار ، « من بين كل الأشياء ، ظل إنتحاره هذا ، بالنسبة لى ، نزوة شاذة لم أكن أتوقعها على الإطلاق . إذ مهما كان الإرهاق والضغوط التى تعرض لها: فإننى لا أستطيع أن أقنع نفسى بما فعل . إلا أننى أفترض أننا نعايش الجزء السطحى من شخصيات بعضنا البعض ، ونعجز حقا عن رؤية الأعماق فيما تحت ذلك . إلا أنه يتوجب على أن أقول ، أن الأنتحار كان بعيدا عن شخصيته بصورة تثير الدهشة . كان ، كما تعرف ، مرتاحا فى عمله ، الذى هو أكثر ما يعذب الفنان ويرهقه ، كما أعتقد . وكان هو قد بدأ ينظر إلى الفن باعتبار أنه «أمر لا أهمية له بصورة فائقة » ـ وهى عبارة متميزة . إننى على يقين مما أقول حيث أنه كتب لى ذات مرة على ظهر أحد الأغلفة ، إجابة على سؤال وجهته إليه : «ما غاية الكتابة ؟ » ـ «إن غاية الكتابة هى إنماء الشخصية حتى يُمكن للإنسان فى النهاية من التسامى على الفن » .

«كانت لديه أراء غريبة عن تركيب النفس البشرية . فقد قال مثلا ، « إننى اعتبرها واهية تماما كقوس قزح ـ إنها تتجسد أمامك فقط فى حالات محددة التعريف ، كما أنه يمكن إعطائها صفة خاصة ، إن تم تركيز الإنتباه عليها . وأصدق أشكال الانتباه الصحيح هو الحب دون شك . ومن ثم فإن «الناس» أقرب أن يكونوا كالوهم عند الصوفى ، «كالعاده » عند عالم الطبيعة باعتبارها شكل من أشكال الطاقة ».

« لم ينقطع أبدا عن الحديث ، بأقصى استهانة ، عن اهتمامى بالغيبيات ، وعن أعمال القابال التى شهدت ، أنت نفسك ، اجتماعاته . ولقد قال عن هذا ، «الحقيقة ، هى إدراك مباشر ـ إذ ليس فى مقدورك أن تتسلق سلما مكونا من إفتراضات ذهنية حتى تصل إليها ».

« إننى لا أستطيع التخلص من الشعور بأنه كان فى قمة جديته ، عندما كان فى قمة تهوره . لقد سمعته يقول ، مؤيدا لكيتس ، أن أفضل ما كتب فى الشعر

الأنجليزى ، بيتين قالهما كوفنترى باتمور :

إن الحقيقة ، عظيمة وسوف تسود

عندما لا يعبأ أحد بأن تسود أو لا تسود

« ثم أضاف بعد ذلك القول ، « ان جمال هذين البيتين يكمن فى أن باتمور ، عندما كتبهما ، لم يكن يدرى ما يعنيه بهما . كانا مجرد كلمات(*) » . ولك أن تتخيل كيف كان يمكن لهذا القول أن يضايق كيتس . كما اقتبس أقتباسا كان يستحسنه ، هو عبارة غامضة عن ستاندال ، تقول ، « الابتسامة تظهر على ظهر الجلد » .

« هل يمكننا ، من كل هذا ، إفتراض وجود شخص جاد وراء الشخص الماجن؟ إننى اترك إليك إجابة السؤال ــ فاهتمامك بالموضوع إنما هو اهتمام مباشر.

« كان فى الوقت الذى تعرفنا فيه عليه ، لا يكاد يقرأ شيئا غير العلوم . وكان هذا ، لسبب ما ، يضايق جوستين التى عنفته لاهداره وقته فى مثل هذه الدراسات. ودافع عن نفسه بقوله أن الفرضية النسبية كانت مسئولة مسئولية مباشرة عن الرسم التجريدى والموسيقى غير التقليدية والأدب الذى لا شكل له (أو المتواتر الأشكال على أى حال) . وما أن تغدو مثل تلك الأشياء فى متناول الناس حتى يفهمونها . ثم أضاف ، ، « إن لدينا فى زواج المكان بالزمان أعظم قصة لقاء بين فتى وفتاة فى هذا العصر . ولسوف يرى أحفاد أحفادنا فى تلك القصة ، من الائتلاف الشاعرى، ما نراه نحن فى ذلك الزواج اليونانى القديم بين كيوبيد وسايك . لقد كان كيوبيد وسايك ، بالنسبة لليونان، حقائقا وليس مجرد صور ذهنية . وهكذا يقف التفكير التشبيهى القياسى فى مواجهة التفكير التحليلى . إلا أن الشعر الحقيقى لهذا العصر وأخصب قصائده هى تلك التى تبدأ وتنتهى بحرف النون ».

« هل أنت جاد فى كل هذا الذى تقول ؟ »

« إطلاقا » .

(*) بالألمانية فى الأصل

« واحتجت جوستين . « إن هـذا الوحش يلجأ إلى كل الحيـل حتى فى كتبه » . كانت تفكر فى الصفحـة المشهورة فى المجلد الأول من مؤلفـاته والتى وضـع فيها علامة تشير إلى صفحة أخرى من النص خاليـة من أى كتابة بطريقة غامضة . وقد إعتقد الكثيرون أنها غلطة مطبعية . إلا أن بـورسواردن نفسه أكد لى أن هذا الأمر كـان متعمدا . « إننى أحيل القـارى إلى صفحة خـالية حتى أعيـده ، مرة أخرى ، إلى مصـادره الخاصة ـ فهى وحـدها التى ينتمى إليهـا كل قارئ »، فى نهاية الأمر .

« إنك تتحدث عن صحة وصدق أفعالنا ـ وهذا ظلم لنا . إننا جميعا من البشر الأحيـاء ، « إننا حق اللجـوء إلى حكم الله المؤجل ، وكذا للقـارئ حق أيضا . ولـذا دعنى ، وأنا أفكر فى هذا الأمر ، أروى لك قصة ضحكة جوستين . ولسوف تقر ، أنت تفسك ، أنـك لم تسمع بها قط من قبل . إننـى أعنى ، على نحـو مـا ، تلك الضحكة التى لم تكن تهكمية ولا جارحة . إلا أن بورسواردن سمعها عند مقابر سقارة فى ضوء القمـر بعد عيد شم النسيم بيومين . كـانا هنا لك بين جمع كبير من الجوالين المتفرجين على الآثار ، فإتخذا منه غطاء ليتحادثا . كانا كمتآمرين . وكـان بورسـواردن ،فى ذلك الوقت ، قـد أوقف زياراتها الخاصـة له فى حجـرة الفندق . ولـذا منحهما ذلك اللقاء بين الجوالين متعة محرمـة ، أن يتبادلا كلمات قليلة يتكتمانها مخزونة فى نفسيهما . فقد حـدث فى نهاية تلك الأمسية أن وجدا نفسيهما ، صدفـة ، بمفرديهما . كانا يقفـان معا فى واحدة من تلك المقـابر التى تفرض جلالها الغابر ، موحية بإحساس خاص هو الموت .

« كانت جوارب جوستين قد تمزقت وامتلأ حذاؤها بالرمال ، فتوقفت تفرغه ممـا فيه . وكـان هـو يشعل عيـدان الثقاب يحملق حـولـه ويستنشق الهواء . وهمست جوستين بأنها تحس قلقا بالغا ، فى الفترة الأخيرة ، بسبب شك حديث بدأ ينتابها من أن نسيم قـد اكتشف شيئا خاصا بطفلتها ولا يود إخبـارها به . كان بورسواردن يستمع إليها شارد البال ، ثم فـرقع أصابعه وقد أحرقها عود الثقاب ، وقال ، « إسمعى يا جوستين ـــ هل تعلمين ماذا فعلت ؟ لقد أعدت قراءة كتاب « عـادات » ، مرة أخـرى على سبيل التسلية ، فى الأسبـوع الماضى . ولقد تـوصلت إلى فكرة : هل كـان كل هذا الطبـل والزمـر حول فـرويد ومـا يسمى

باغتصابك فى طفولتك وما شابه صحيحا ـــ هل هو صحيح بالفعل ؟ لست أدرى. ففى امكانك ببساطة ، اختلاق كل ذلك . لكنك ما دمت تعرفين من كان الرجل ذو العصابة اللعينة على عينه ، وترفضين الإفصاح عن اسمه لجيش لعين من هواة علماء النفس وعلى رأسهم أرناؤوطى ، فلا بد وأن يكون لديك سبب جدى لذلك . ما هو هذا السبب ؟ إنه يحيرنى . وأنا أعدك ألا أخبر أحدا . أو هل الأمر كله أكذوبة ؟» وهزت رأسها قائلة ، «كلا » .

« وسارا معا فى الخارج فى ضوء القمر الصافى كالحليب ، بينما جوستين تفكر فى أناة . ثم قالت فى بطء ، « لم يكن السبب هو الخجل أو الرغبة فى عدم الشفاء كما قالوا أو كما قال هو فى كتابه ـــ المسألة أنه كان صديقنا ، صديقك وصديقنا جميعا » . ونظر إليها بورسواردن فى فضول وقال ، « الرجل ذو العصابة السوداء ؟ » . وأومأت هى برأسها . واشعلا السجائر وجلسا فوق الرمال فى إنتظار الآخرين . وأحست أن كل ما ائتمنته عليه ، كان فى مأمن تام ، فقالت فى هدوء ، «إنه دا كابو » . ومضت فترة من الصمت طويلة ، « حسنا، أعيدى ما قلت على مسامعى ! العجوز الفاجر نفسه ! » . ثم استمر فى هدوء تام، كأنما يختبرها ، « لقد واتتنى الفكرة فجأة وأنا أعيد قراءة هذا الكتاب : لو كنت أنا فى مكانك ، ولم تكن القصة كلها إلا أكذوبة قمت بتلفيقها لتكون مثار إهتمام المولعين بعلم النفس ، لكنت ..... حسنا ، كنت أحاول النوم معه مرة ثانية لعلى أزيح تلك الصورة بعيدا عنى . إنها فكرة واتتنى فجأة !

« ولقد فضح بما قاله ، بالطبع ، ما كان عليه من جهل تام بعلم النفس . كان إقتراحه فى الحقيقة ، خطوة قاتلة . لكن الذى حدث ، لدهشتة ، أنها أخذت فى الضحك ـ ضحكة تلقائية موسيقية لم يسمعها تصدر عنها من قبل . قالت وضحكها يطغى على ما تقول ، « لقد حاولت . لقد حاولت . ولن تتخيل كم كلفنى الجهد الذى بذلته وأنا أقف هناك معلقة ، فى ظلام الطريق ، أمام منزله ، محاولة إستجماع شجاعتى كى أدق الجرس . نعم ، لقد واتتنى الفكرة أيضا . كنت يائسة ماذا سيقول ؟ لقد كنا أصدقاء لسنوات دون أن يشير أحد منا ، بالطبع،

إلى هذه الحادثة . وهم لم يشر البتة إلى كتاب « عادات » ، وأعتقد أنه لم يقرأه البتة ، ربما كان يفضل ، كما اعتقدت دائما ، أن يغفل الأمر كله ـــ أن يدفنه بكياسة ولباقة » .

«وإنتابتها ، مرة أخرى ، نوبة ضحك كان يهتز لها جسدها حتى أن بورسواردن أمسك بذراعها ، فى قلق ، كى لا تقطع حديثها .واستعارت منه منديله لتمسح عينيها ، وتابعت حديثها ، «ودخلت فى النهاية . كان يجلس هنالك فى مكتبته الشهيرة ! كنت أرتجف كورقة من أوراق الشجر . لم أكن أعرف ، كما ترى ، أية نغمة أعزف . أكان الموقف دراميا ، شيئا ما يثير الشفقة ؟ كان أشبه بالذهاب إلى طبيب الأسنان . حقا ، كان الأمر مضحكا يابورسواردن. وقلت أنا ، فى النهاية ، دا كابو العزيز ، أيها الصديق القديم . لقد كنت شيطانى زمانا طويلا، وأنا جئت إليك أسألك أن ترقينى من الأرواح الشريرة مرة واحدة وإلى الأبد ، لتزيح عنى ذكرى حادثة طفولة بشعة . يجب أن تنام معى ! » . ويا ليتك رأيت وجه دا كابو حينئذ . لقد أخذ على غرة فتلعثم قائلا ، « لكننى صديق نسيم، يا جوستين» (*) وأشياء كهذه . وقدم لى كأسا من الويسكى وقرصا من الأسبرين ـــ كان واثقا أننى جننت ، فقال ، «إجلسى »، وهو يقدم لى كرسيا ، بيدين مرتعشتين ، جالسا قبالتى ، فى عصبية ، وقد أحاط به جو من الفزع الذى يثير الضحك ـ كصبى صغير إتهم بسرقة التفاح » . كان جنبها يؤلمها فضغطته بيدها ، وهى تضحك فى فرح شديد حتى أنها أثرت عليه فأخذ يضحك ، أيضا ، دون قصد منه . وقالت جوستين ، « يا لدا كابو المسكين . لقد صدم صدمة شديدة ، كما فزع ، عندما قلت له أنه إغتصبنى وأنا فتاة عربية صغيرة من الشارع . لم أر رجلا من قبل وقد أصابه مثل هذا القدر من الدهشة . كان من الواضح أنه قد نسى الأمر تماما . وأنكر المسألة من البداية حتى النهاية. لقد ثار، فى الحقيقة ، غضبه . وأخذ فى الأحتجاج . كم أود لو كنت رأيت وجهه وقتئذ. أتدرى ما أنزلق به لسانه وهو يحاول تبرير موقفه؟ إنزلق بعبارة رائعة : لقد مضت خمسة عشر عاما لم أفعل فيها مثل هذه الفعلة!» (*) .

(*) بالفرنسية فى الأصل

ثم ألقت بنفسها ، ورأسها إلى أسفل ، فى حجر بورسواردن . وظلت هكذا لحظة، وهى ما تزال تهتز من الضحك ، ثم رفعت رأسها مرة أخرى لتمسح دموعها . ثم قالت ، « وأخيرا أنهيت شرب الويسكى وغادرت ، مما بعث فيه قدرا كبيرا من الراحة . ونادى علىّ كما إعتاد أن ينادى فى تلك السنوات القليلة الأخيرة : تذكرى أن كليكما سوف يتعشى معى يوم الأربعاء . سأكون فى إنتظاركما من الثامنة إلى الثامنة والربع بالملابس الرسمية . وعدت إلى المنزل وأنا ذاهلة ، وشربت نصف زجاجة من الجن ، وانتابتنى ، تلك الليلة وأنا فى الفراش ، فكرة غريبة ـ وربما بدت لك هذه الفكرة كالصدمة . وهى أن دا كابو قد نسى تماما فعلته التى كلفتنى العديد من سنوات القلق ، ومرض عقلى حقيقى ، وجعلتنى أضير الكثير من الناس . وقلت لنفسى : ربما تكون تلك هى الطريقة نفسها التى ينسى الإله بها المظالم التى يوقعها بنا ، وذلك بتخليه عنا وتركه أيانا تحت رحمة العالم » . ودفعت برأسها إلى الخلف وهى تبتسم ، ثم إنتصبت واقفة .

« ورأت بورسواردن ينظر إليها ودموع الإعجاب فى عينيه . واحتضنها فجأة فى حرارة ، وراح يقبلها بعاطفة جياشة ، قبلات ، لعله لم يقبلها مثلها من قبل . وأضافت وهى تروى لى كل ذلك بفخار غريب عليها ، «كانت تلك القبلات، يا بلتازار ، أفضل من قبلات أى عاشق . كانت هدية حقيقية ، أشبه باعراب عن الشكر . ورأيت حينئذ ، لو أن الأمور كانت قد سارت بطريقة مختلفة ، لكان فى وسعى أن أجعله يحبنى ـ ربما لنفس النواقص التى فى خلقى ، والتى تبدو واضحة جلية لكل عينين » .

«وجاءت بقية الجماعة تثرثر بين القبور .... ولا أعرف ما الذى جرى بعد ذلك . أعتقد أنهم عادوا جميعا بسيارتهم إلى النيل ، وأنهو الليلة هناك فى نادٍ ليلى. لكن أى عمل شيطانى ذلك الذى أفعله وأنا أخط لك كل تلك الحقائق ؟ أى جنون وحماقة ! إنه لن يعود علىّ إلا بكراهيتك لى لأخبارك بأشياء تفضل ألا تعرفها كرجل ، ولعلك تفضل تجاهلها كفنان .....هذه الحقائق الصغيرة العنيدة المغتصبة إنما هى بدائل وجودنا الإنسانى ، وهى التى يمكن للمرء أن يدخلها كالمفتاح فى القفل ـــ أو السكين فى المحارة : ترى هل سيجد لؤلؤة فى داخلها ؟

من ذا الذى يستطيع قـول ذلك ؟ لكنها يجب أن تكـون هنالك ، فى مكـان ما ، فى موضعها الطبيعى . إنها بذور الحقيقة التى تنزلق فقط من اللسان . إن الحقيقة ليست ما يقال والمرء فى كامل وعيه . إنها ، دوما ، ما ينزلق من اللسان فقط . إنها الخطأ غير المقصـود الـذى يفضح كل تصنع . هل أدركـت ، أيها الحكيم ، مـا أعنيه؟ لكننى لم أفعل ذلك . لن تواتنى الشجاعة أبدا حتى أعطيك هذه الأوراق . هذا ما توصلت إليه . سوف أنهى القصة لنفسى فقط .

«لذا يمكنـك ، من كل هذا ، أن تقـدر مدى يأس جـوستين عندما أقـدم ذلك الرفيق اللعين على الإنتحـار . كنت متضايقـا منه فـوجدت نفسى إبتسم . إذ لم أصدق ، بعدُ ، موته . ورأت هى من فعلته تلك ، كما رأيت أنا أيضا ، عملا غامضا للغـاية ، غير متـوقع على الإطلاق ، إلا أن المخلـوقـة المسكينة كـانت قد أقـامت خدعتهـا المحكمة حـول فكرة استمـراره حيا . ولم تجد أمـامها أحـدا تثق فيه وتطمئن إليـه غيرى . وكنت أنت ، وهى إن لم تكن تحبك فإنها لم تكن تكـرهك ، قـد غدوت ، والله أعلم ، فى خطـر كبير . كان الـوقت قد فـات لفعل أى شىء غير التفكير فى الإبتعاد عن هذا المكان . لقد تُركت وحدها وقد «وقعت فى الشرك» !فهل يتعلم المرء شيئا من كل تلك الحقائق ؟ إلق ، يا ولـدى العزيز ، بكل هذه الأوراق فى البحر ، ولا تقرأ المزيـد من هذه التعليقات والحواشى . لكننى نسيت أننى لن أدعك تراهـا . هل فعلت ذلك حقا ؟ سـوف أتركك راضيا بهذه التلفيقـات الفنية التى ، « تعيد صيـاغة الحقيقة لتظهـر جانبها الذى لـه دلالته ومعناه». مـا هو الجانب الذى له دلالته ، والذى كان فى إمكانها إظهاره لنسيم ، فعلا ، وقد غدا فى ذلك الوقت ضحية هذه الهواجس بالتحديـد مما جعله يبدو أمام كل إمرئ ، بما فيهم نفسه ، فاقدا إتـزانه العقلى ؟ إننى أستطيع كتابة الكثير عن تلك الهواجس التى إنتابته ، فقد عرفت الكثير من شئونه و إهتماماته السياسية، فى تلك الفترة . إن تلك الهواجس سوف تفسر هـذا التغيير الذى إنتابه ليصبح مضيـافا كبيرا ـ يموج منزله ، الـذى تصفه أنت بطريقة رائعة ، بالـولائم وحفلات الرقص . لكن مسألـة الرقـابة ، هنـا ، تثير قلقى . فلـو أنى أرسلت إليك بهذه الأوراق ، وقمت أنت، كما أعتقد ، بالقاء كل هذه الخلطـة المشوشة فى الماء،فإن البحر قد يحملها ، على أمـواجـه ، مرة أخـرى إلى الأسكنـدريـة ، وربما مباشرة إلى أيـدى رجـال

البوليس. يستحسن ألا استمر . سوف أخبرك فقط بما يتسم فيها بالحصافة . وربما أروى لك فيما بعد بقية ما أعرف .

«لقد ذكرنى وجه بورسواردن وهو ميت بوجه ميليسا إلى حد كبير . بدا كلاهما وكأنه قد استمتع بقوة بنكتة خاصة ، تثير الإغتباط . وأنه قد سقط نائما قبل أن تتلاشى البسمة تماما من ركنى فمه . كان قد قال لجوستين ، ذات مرة ، «إننى أحس الخجل من شىء واحد فقط ، ذلك أنى تغاضيت عن أول شرط ضرورى للفنان ، ألا وهو الخلق والتضور جوعا . فأنا لم أجع أبدا كما تعلمين. لقد ظللت طافيا فوق السطح أقوم بأعمال صغيرة من نوع أو آخر . أضير الغير، كما فلت أنت ، بل وأكثر » .

«كان نسيم يجلس فى تلك الليلة فى غرفة الفندق إلى جوار الجثة ، عندما وصلت أنا .كان يبدو هادئا ، رابط الجأش بصورة غير عادية ، كأنما أصابه الصمم ، بسبب إنفجار ما . لعل وقع الحقيقة عليه أذهله . كان يمر ، خلال ذلك الوقت ، بهذه المرحلة الرهيبة من الأحلام التى سجلها فى مذكراته ، والتى أخذت أنت عنها بعضا منها فى مخطوطك . إنها تشبه إلى حد كبير أصداء أحلام ليلى منذ خمسة عشر عاما مضت ـ لقد مرت بفترة عصيبة بعد وفاة زوجها ، وكنت أنا قد عالجتها بناء على طلب نسيم . وهنا ، مرة أخرى ، فإنك وأنت تحكم عليه تثق كثيرا فيما قالته لك شخوصك عن نفسها ، وتفسيراتها تبريرا لأعمالها . ما كان من الممكن أن تكون طبيبا جيدا . يجب أن تكتشف الحقيقة عن المرضى ـ فهم دائما كذبة . إنهم لا يفعلون ذلك عمدا ، لكنه جزء من آلية دفاع المرض عن نفس ـ تماما كما يفضح مخطوطك آلية دفاع الحلم عن نفسه وهو يأبى أن تغزوه الحقيقة . هل أنا مخطىء فيما أقول ؟ . أننى لا أود الحكم على أى شخص بطريقة ظالمة ، أو أن أقتحم عليك عالمك الخاص . هل تكلفنى ملاحظاتى تلك صداقتك ؟ آمل الا يحدث ذلك ، وإن كنت أخشاه .

«ماذا كنت أقول ؟ حسنا ، وجه بورسواردن وهو ميت . كان يحمل نفس الملامح القديمة ، ملامح من يقوم بخدعه وقحة ، وما زلت على هذا الرأى. كان يبدو ، بالنسبة إلىّ ، حيا تماما .

« كانت جوستين هى أول من أخطرنى . أرسلها نسيم إلىّ بالسيارة ومعها

مـذكرة لم أدعهـا تقرأهـا . كـان واضحا أن نسيم كـان يعلم إما بما انتـواه أو بالحقيقة قبل أىّ منا ـ وأنا ، من ناحيتى ، أشك فى أنه قد تلقى مكالمة هاتفية من بورسواردن نفسه . وعلى أى حال ، فإن خبرتى بحـالات الانتحار ـ وقد عالجت الكثير منها فى فرقة نمرود الليليـة ـ قد جعلتنى حذرا . ولما كنت أشك فى احتمال تعاطيـه بعض العقارات المنومة أو بعـض المركبات الأخرى بطيئة المفعـول فقد أخـذت معى ، من باب الإحتيـاط ، مضخة المعـدة الصغيرة والأدوية المضـادة للسمـوم . وأعترف أننى تخيلـت ، فى سعـادة ، التعبير الـذى سيكسـو وجـه صـديقى عندمـا يستيقظ فـى المستشفى . لكـن يبدو أننـى أخطـأت الحكـم علـى كبريائه واتقانـه عمله ، إذ عندما وصلت الفندق كـان ميتا تماما وبصورة قاطعة.

«سبقتنى جوستين تصعـد سلم الفندق الكئيب ، والـذى كان بـورسواردن يحبه حبا جما (حقيقة ، كان قد أطلق عليه اسم فندق جبل النسور ـ وأعتقد أنه إشتق الاسم من سرب العـاهـرات اللـواتـى كن يحومن ، فى الشـارع ، حـولـه كالنسور).

«كـان نسيم قد أغلق عليـه باب الحجـرة . طرقنـا الباب فأدخلنـا وقد بـدا متضايقا ، على نحو ما ، أو هكذا بدا لى . كان المكان فى أشد حالات الفوضى التى يمكن أن تتخيلها . الأدراج مفتوحة ، الملابس والمخطوطات واللوحات متناثرة فى كل مكان . وكان بورسواردن ممـددا فوق ركن من الفراش وقد اتجهت أنفه إلى أعلى نحو السقف كأنما تتحاشاه . وتـوقفت أفتح جهاز تنظيف الأمعاء الكبير ـ فأسلوب العمل يغدو كل شىء فى لحظات الشدة ـ بينما توجهت جوستين ، دون أن تخطىء طريقها ، إلى زجاجة الجن فى الـركن إلى جوار الفراش . وجرعت منها جرعة كبيرة . كنـت أعرف إحتمال إحتواء هذه الزجـاجة على السم ، إلا أننى لم أقل شيئا ـ فهناك القليل الـذى يمكن أن يقال فى مثل تلك الأوقات . ففى اللحظة التى تصاب فيها بالهيستيريـا ، يمكن أن تتعرض لمثل هذا الإحتمال . وأخرجت مضخة المعدة العتيقة وأعـددتها . إنـها المضخـة التى أنقـذت حياة العديد ممن لا قيمـة لحياتهم (حيـاة مـن المحال أن تعاش ، حيـاة ألقى بها بعـيدا كـثوب أعـد بطريقـة سيئـة) ، أكثر ممـا أنـقذت أى آلـة مثيلة فـى الأسكندريـة .

وأعـددتها فى بطء يليق بطبيب من الدرجـة الثـالثة ، وبطـريقة منهجيـة، وهى الشىء الـوحيـد الـذى تـرك لطبيب من الـدرجـة الثـالثـة كـى يـواجـه بـه العالم.....

«واستدارت جـوستين ، فى تلك الأثناء ، نحو السريـر ومالت تقـول بصوت مسمـوع ، «استيقظ يا بـورسواردن » . ثـم وضعت كفيها فـوق قمة رأسهـا ، وأطلقت عويلا طـويلا خالصا كامـرأة عربية. صوت تـوقف فجأة وقد احتواه الليل فى تلك الحجرة الصغيرةالحارة الخاليـة من الهواء . ثم أخذت تبـول قليلا قليلا فوق السجادة كلهـا ، فأمسكت بها ودفعتها إلى الحمام . وأمدنى ذلك بما أريد من متنفس حتى أفحص قلبه . كان صامتا كالهرم الأكبر . وغضبت لذلك . كان واضحا أنه استخدم السيانيد الشنيع ـ وهو ، بالمناسبة ، السم المفضل عند أصدقائك فى دائرة الاستخبـارات السرية الشهيرة . استشطت غضبا حتى أننى لطمته على أذنه ـ لطمة كان يستحقها منذ زمن بعيد .

«كنت ، طـوال ذلك الـوقت ، أحس بنسيم وقـد نشط فجأة . إلا أننى ، وقـد استعدت يقظتى ، ركـزت إنتباهى عليه . كان يقلب الأدراج والمكـاتب والدواليب كمن أصابه مس من الجنون ، يفحص المخطوطات والأوراق ، ينثرها ، يلقى بها جانبـا ، يلتقط أشياء وقد فقـد ، تماما ، طبعـه الهادئ المعتاد . قلت له غـاضبا، «ماذا تفعل بحق الجحيم ؟ » ، فأجابنى . «يجب ألا يوجـد ما تعثر عليه الشرطة المصرية » . ثم تـوقف وكأنه قـال أكثر ممـا ينبغى . كان فـوق كل مرآة كتـابة بالصابون . وكان نسيم قد طمس إحـداها جزئيا . ولم أستطع تبين شىء منها غير : وهين .... فلسطين .

«ولم يمض طويل وقت حتى جـاءت الدقات المعتادة على البـاب ، ثم الوجوه والصـخب الذى لا ينفصل عن تلك المشاهد فى كل مكان من العالم . رجال ومعهم دفاترهم ، صـحفيون وقساوسة ، وظهر الأب بول دونًا عن كل الناس. وانتابنى، فى تلك اللـحظـة ، تـوقع أن تنهض الجثة وتلقى بشـىء ما ..... إلا أن شيئـا لم يحدث ، فقد ظل بـورسواردن ممددا بأنفـه مائلا نحـوالسقف ، وعلى وجه ذلك التفكه الخاص .

«وخرجنا نحن الثلاثة ، نتعثر فى مشيتنا ، وعدنا بالسيارة إلى المرسم ، حيث هدأت اللوحات من روعنا ، وحيث أمدنا الويسكى بشجاعة جديدة حتى نواصل الحياة . ولم تفه جوستين بكلمة ، بأية كلمة عن الموت والفناء».

* * *

- ٧ -

وأقلب أوراق المخطـوط إلى جزء آخر مـن التعليقات والحواشـي ، إلى الفقرة التى وضع بلتازار أمامها علامة : « وهكذا قرر ناروز أن يتصرف » . وقد وضع خطين تحت الكلمة الأخيرة. هـل أعيد بنـاء المشهد الـذى أراه أمامـى غايـة فى الوضوح ، والذى فجرته فى خيالى كلماته القليلة التى يصعب قراءتها وقد كتبها بحبر أخضر اللون ؟ حقا ، سيمدنى هذا بالمقدرة على الحلم ، لحظة ، بالحى الذى يندر أن يتردد عليه أحد فى الإسكندرية التى أحببتها .

المدينة التى تقطنها ذكـرياتى لاتمتد فى تاريخنا ، إلى الـوراء فقط ، ترصعها اسماء العظماء الذين تركوا أثرا عند كل مـوقع فى سجل حياتها ، بل هى تبزغ ، أيضا ، فى الحاضر الـذى نعيشه . وسط ، إن صـح القول ، معتقـداتها المعاصرة وأجناسها : مئات الدوائر الصغيرة التى يخلقها الدين أو المعرفة والعلوم ، والتى تلتصق فى نعومـة كالخلايا لتشكل سمكة هـلامية ضخمة ترقـد متمددة ، هى الاسكندرية اليـوم . وتعيش الجماعات وتتواصـل ، وقد التقت هكذا عشـوائيا ، بفعل المدينة وإرادتها ، وهـى المعزولة فوق رأس بـرناتئ فى البحر ، لايشـد من أزرهـا غير بحيرة مريـوط المالحة والتى تبـدو كأنها مـرآة للقمر ، والصحـراء الخشنة غير المستويـة والممتدة خلفها (وقد غيرتها ، فى نعومة ، ريـاح الربيع ، فبدت كثبـانها ناعمة كالحريـر ، جميلة كقطعان السحاب لاتثبـت على حال) ـ جماعات الاتراك مع اليهود ، العرب والقبـط والسوريين مع الأرمن والإيطاليين واليونـانيين . تتماوج فيما بينهم رعشات الأعمال التجاريـة المالية كما تتماوج الريح فى حقل الحنطة ، تجمعهم المهرجانات وحفلات الأعراس والصفقات ، كما تفرقهم أيضا . وتترددأسماء الأماكن على خطوط الترام العتيقة ، بقضبانها التى تبدو كـأخاديد رمليـة ، صدى الأسماء المنسيـة لهؤلاء الذين أنشـأوا المدينة ـ واسماء القباطنة الموتى الذين كانوا أول من هبط على شاطئها ، من الاسكندر إلى

عمرو . هؤلاء الـذين أقاموا فوضـى من شهوة الجسد والحمـى ، من حب المال والتصوف . أين يمكن لك أ تجد مثيلا لهذا الخليط على وجه الأرض ؟

وتضاء المدينة البيضاء ، عندما يهبط الظلام ، بآلاف ثريات الحدائق العامة والأبنية ، تتصاعد فيها الأنغام الناعمة الـروحية من موسيقى طبول المغرب أو القوقاز ، فتبـدو كباخرة ضخمة من بلـور ترقد هناك ، وقد ألقـت مراسيها إلى قرن أفـريقيا ، وراحت انعكاسـاتها الماسية والأشبه بالعقيـق الأزرق المشتعل تتلوى ، تتموج ، كقضبان مصقولة فى مياه الميناء الزيتية بين السفن الحربية .

وتغدو المدينـة فى عتمة الغسق ، كـدغل أرجوانـى ناشز لـه نسقه الخاص ، تصبغه الألوان كأنما هـى ألوان الطيف صادرة عن منشور مكسـور ، وتتكأكأ مرتفعـة فى سماء الغروب اللـؤلؤيـة ابراج شاطـئ البحر الطـويلة الشـاحبة ، والمقاهى البربـرية حيث يرقص الـزنوج على ضربات الأصابـع فوق الطبول أو أنغام النايات الرقيقة الحالمة.

ويكتب بورسـواردن ، « الحقائق ، هنالك ، من الكثرة ، بقـدر ماتستطيع أن تتخيل » .

كان نـاروز يتحاشى ، دوما ، زيارة الإسكنـدرية التى أحبها حبا جما ، حب الإنسان المنفى لوطنه . كـانت شفته المشقوقة قد غرست فيـه هيبة زيارة وسط المدينـة فيلقاه ،مصـادفـة، واحـد ممن يعـرفهـم . كـان يحوم ، دوما . حـول ضواحيهـا، لايجرؤ على ولوج قلبهـا الكبير المضئ ، حيـث كرس أخـوه حياتـه للمشروعات وللحيـاة الاجتماعية الـراقية . كـان يدخلهـا دوما ، وجـلا يمتطى صهوة جـواده ، مرتديا مـا اعتاد أن يرتديـه من ملابس لانجـاز الأعمال التى تقتضيها أمـلاك الأسرة . كان يحتاج جهدا شـاقا لاقناعـه بارتداء حلة لـزيارة الإسكندريـة بالسيارة رغم أنـه كان معروفـا عنه انه يفعل ذلـك عند الضرورة القصوى ، ولكـن على مضض . كان يفضـل ، فى غالب الأحـوال ، انجاز الأعمال عن طريق نسيم . وكان الهاتف ، بالطبع ، يوفر عليه كثيرًا من مثل تلك الرحلات غير المحببة إليـه . لكن ، ما أن دق جـرس الهاتف ، ذات يوم ، ليخبره أخـوه بأن عملاءه قد عجزوا عن إجبار المجذوب على الافصاح عما يعرفه عن إبنة جوستين حتى أحس ، فجـأة ، بأنه يتيه بنفسه عجبـا ، ومض فى وجدانه أنه قـد أنيط به،

الآن ، انجاز هذا العمل ، فقال ، « نسيم ، فى أى شهر نحن ؟ نعم ، إنه مسرى . سيحل قريبا عيد ستنا مريم (*)، اه ؟ سأبحث عنه واحاول إجباره على أن يقول لنا شيئا » . وأمعن نسيم التفكير ، فى هذا العرض ، طويلا حتى تصور ناروز أن الخط قد انقطع ، فأخذ يصرخ فى حدة « ألو ، ألو ! » . فأجاب نسيم على الفور « نعم . نعم . أنا مازلت هنا . فقط ، كنت أفكر . سوف تكون حريصا ، اليس كذلك ؟» . وضحك ناروز ضحكة خافتة فى صوت أبح ، واعدا أخاه أن يكون حريصا . كانت تستثيره ، دوما ، فكرة قدرته على تقديم يد العون لأخيه . ومن الغريب أنه لم يفكر البتة فى جوستين نفسها ، أو فيما تعنى هذه المعلومات لها . كانت مجرد شىء ما يقتنيه نسيم ، يعزها هو ويعجب بها ويحبها بعمق ، ولكن بصورة آلية ، من أجل نسيم . كان يرى أن من واجبه تحقيق ما كان ضروريا لمساعدة نسيم بمساعدة زوجته ، لا أكثر ولا أقل .

وهكذا سار فى اليوم التالى لعيد ستنا مريم بخطى واسعة خفيفة ، خطى مرحة تفتقد الرشاقة (يرتفع ويهبط على أصابعه ، مطوحا ذراعية) ، يعبر الميدان بظلالة البنية المعتمة ساعة الغسق ، خارجا من محطة الإسكندرية الرئيسية . كان قد ربط جواده فى حوش منزل أحد الأصدقاء . نجار لايبعد مكانه عن المكان الذى أقيمت فيه مهرجانات الاحتفال بالقديسة . وكانت ليلة من ليالى الصيف شديدة الحرارة .

كانت تلك الأراضى الخالية الفسيحة تتحول عند الغسق إلى اللون الذهبى ثم البنى الذى يميز الورق المقوى المشقوق ـ ثم البنفسجى عندما تثقب الأضواء الظلام وقد أخذ يسود، وينقشع السواد المخيم فوق الحى الأوروبى عندما تضاء النوافذ واحدة بعد الأخرى ، وشارع بعد شارع ، حتى تبدو جميعها كبيت عنكبوت كساه الجليد بملايين اللآلئ المتألقة .

كانت الإبل تنخر وتدمدم فى مكان ما . وترامت إليه عبر الليل أنغام الموسيقى ورائحة البشر ، غنية بذكريات المواسم والأسواق التى زارها مع والديه وهو مايزال صغيرا يرتدى الطربوش الأحمر والملابس المصبوغة التى لاتميزه عن غيره فى الزحام .كان مما يميز مهرجان الاحتفال بستنا مريم ، أنه

(*) بالعربية فى حروف لاتينية فى الأصل .

لايقتصر على الاقباط فقط ، باعتباره عيد قديسة مسيحية قبطية ، بل كان يشارك فيه ويستمتع به كل السكان بما فيهم المسلمين ، فالاسكندرية ، رغم كل شيء ، جزء من مصر ، حيث يعيش معا كل صنوف البشر وألوانهم .

وبزغ فى الظلام مخيم كامل من العشش والمواخير والدكاكين ـ مدينة كاملة أضيئت ، بطريقة لائقة ، بقناديل الزيت والنفط ، بالكلوبات والمجامر النحاسية ، بأضواء الشموع واللمبات الكهربية المبهرة المعلقة على حبال مشدودة . وسار ناروز فى زحمة الناس ومنخاريه يتشربان روائح الطعام الزكية والحلوى . والياسمين الذابل والعرق ، وتتسمع أذناه طنين الأصوات التى شكلت تلك الخلفية المألوفة التى تصاحب المواكب الكبيرة وهى تخترق المدن ، تتلكأ فى طريقها عند كل كنيسة لتلاوة بعض النصوص المقدسة ، ثم يصل الموكب بالتدريج ، خطوة فخطوة ، إلى موقع الاحتفال .

كانت هنالك الطرائف والبدع متناثرة : الدببة الراقصة والأكروبات ، آكلوا النيران ينفثون من أفواههم ألسنة لهب تطول ستة أقدام . الراقصون فى ملابسهم الرثة وطواقيهم الحائلة اللون . كل الأشياء التى تبعث البهجة فى نفوس الغرباء كانت تبعث البهجة فى نفسه أيضا ، فهى مألوفة له تماما ـ انها جزء عميق الانتماء إلى حياته ذاتها . وسار فى لألأ الضياء ، كما سار الطفل الذى كانه يوما ، يقف هنا وهناك ، بعينين باسمتين يحملق فى بعض مشاهد المهرجان التى اعتادها . وساحر يرتدى ملابسا مزوقة رخيصة ، يخرج من كمه أعدادا لا حصر لها من المناديل الملونة ، كما يخرج من فمه عشرين كتكوتا صغيرا حيا وهو يزعق طوال الوقت بصوت طائر من طيور البحر : جلا ـ جلا ـ جلا ، هوب!(*) . والقرد مانولى وقد إرتدى قبعة من ورق يدور ويدور حول مربطه ممتطيا ، فى براعة ، ظهر عنزة . وترتفع على جانبى الطريق العشش والأكشاك الكبيرة ، وتماثيل مصنوعة من حلوى تبدو رائعة بما عليها من زواق رخيص ، تصور أبطال قصص الحب والمغامرات، لأناس عاشوا فى الحكايات الشعبية المأثورة للدلتا ـ أبطال مثل أبوزيد وعنتر ، وعشاق مثل يونس وعزيزة . كان يسير على مهل فى لامبالاة تلقائية ، يقف لحظة هنا يستمع إلى الرواة ، أو

(*) كما هى بحروف لاتينية .

ليشترى تميمة تجلب له الحظ من حسين الواعظ الأعمى المشهور . والذى وقف فى عظمة كشجرة السنديان ، فى الضوء الشاحب ، يتلو أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين .

وتناهت من خلف حجب الظلام المحيط أصوات نقرات واهية للاعبى العصى خافتة الصدى ، وقد طغى عليها الهدير الصاخب للموكب القادم وقد انفجر فجأة بموسيقى وحشية ـ طبول الأوانى النحاسية ودفوف تطلق أصواتا كطلقات الرصاص ـ وطبول جلد الجمال بأصواتها الجوفاء الممدودة المثيرة والتى ترتفع حينا فتغرق فى خضمها موسيقى الناى العميقة المتهدجة ، ثم تخفت حينا فينتعش صوت الناى . وارتفعت صرخة . « إنهم قادمون ، إنهم قادمون » . وراح الصبية يركضون هنا وهناك بين الأكشاك والعشش كالفئران . وتدفقت فى حلق زقاق ضيق جموع أشبه بحلقة نار تزداد إتساعا . الموكب البشرى يندفع متمايلا يتقدمه البهلوانات وأقزام الاسكندرية يتقافزون ، يتبعهم الموكب الطويل العجيب الغريب للفرسان حاملى الأعلام والبيارق ، والجياد تتماوج صعودا وهبوطا فى مد من ضوء روحانى ، يتابع وطؤها تلك التقلصات الموسيقية الوحشية ـ وترتفع ثرثرات النايات فى كل الأنحاء ودقات الطبول العنيفة أو الهزات المرتعشة المثيرة للطار والرق والدراويش يضربون عليها طبقا لعاداتهم ، بينما يتجهون إلى موقع الاحتفال . وانفجرت كلمة « الله الله »(*) من كل حنجرة .

وتناول ناروز عود قصب من أحد الأكشاك وأخذ يمصه قضما وهو يراقب الموجة التى تتحرك قدما ، لتحيط به ، تبتلعه . وجاء دراويش الطريقة الرفاعية ، الذين يستطيعون وهم فى غيبوبتهم الروحانية السير فوق جذوات النار أو شرب الزجاج المصهور أو أكل العقارب الحية أو الرقص إلى مالانهاية كزنبرك مشدود، حتى يغيض الواقع ويسقطون لاهثين دائخين كالطيور . وكانت البيارق والمشاعل والمجامر الكبيرة المكشوفة المليئة بالخشب المشتعل ، والفوانيس الورقية الكبيرة والتى كتبت عليها بعض النصوص الدينية ، تشكل حلقات أو أشكال من الإضاءة تخترق ظلام ليل الإسكندرية ، صاعدة ، هابطة ،

(*) عربية بحروف لاتينية .

وقد أكتظ المكان ، الآن ، حتى الانتفاخ ، بالمتفرجين المتكالبين على الموكب ككلاب قوية كبيرة ، يتصايحون ويتدافعون ، وطوفان الموكب يتدفق بموسيقاه الوحشية (ربما تكون هى ذات الموسيقى التى سمعها انطونيو وهو يلفظ أنفاسه فى قصيدة كفافى) يحيط بظلام الميدان الكبير ، ينشر حوله خيالات عصبية مرتعشة للجلابيب والوجوه والاشياء التى بلا مضمون والتى انبثقت ألوانها تصبغ أطراف السماء . كان الناس يشعلون حماس بعضهم البعض .

وهنالك ، فى الأراضى الداخلية المظلمة الموازية للساحل ، حيث المنازل خربة فى أكوام حجرية ، مهجورة ، خاوية ، حديقة صغيرة بها ضريح يحدد محور هذه الضجة ومعناها . هنا أمام شمعة مخروطية وضاءة ، كانت تتلى الصلاة المسيحية من أجل القديسة المسيحية ، بينما يمور حولها زحام الإسكندرية الداكن وفيضان البشر فيها . دستة من المعتقدات والأديان تشارك فى احتفال أضفى الزمن عليه قداسة ، غدت ملكا للكافة ، وقد تكرس له موسم معين ومكان معين بعد أن طمست الأسس التى قام عليها أصلا ، والمأثور عنه فيما مضى ، والرمز الذى كان يمثله . إن كل الأديان واحدة بالنسبة لبلد متدين. كان المهرجان يدوى بزياط الأنوار والموسيقى ، بينما كان المؤمنون يقدمون صلواتهم لقديستهم المختارة .

وارتفع ، فوق كل ذلك ، صفير الآلات البخارية التى تعمل فى مخزن البضائع المعتم ، وصفارة باخرة تشق طريقها المتعرج عبر الميناء ، وقد بدأت ابحارها إلى الهند (وكأن المدينة تذكرهم فجأة بنفسها ، بقوى وحاجيات مستودع هائل) . واحتوى الليل الجميع ـ وغانية تغنى بصوت أجش مثلوم ، بلكنة سكندرية ، على ايقاع خبطات الأصابع فوق الطبلة . وصراخ الصبية الذين يركبون الأراجيح الدوارة المرهقة ولعبة أوكار الأوز ، والديكة المتصارعة ، وحواة الثعابين ، وعجائب المخلوقات (زبيدة المرأة الملتحية والعجل ذو الأرجل الخمس) والمسرح الكبير المعد من الخيش ، والذى يقف الرجال أمامه يرقصون عضلاتهم ، عرايا إلا من قماش يستر عوراتهم ، ليعلنوا عن مهاراتهم ، يقفون بلا حراك إلا من تموجات أجسادهم بصورة رائعة لاتصدق ، عضلات الصدر والبطن والمتن تعمل ، تختلج بطريقة أشبه ببرق الصيف الخادع .

وقف ناروز مسحورا يتلفت حوله ، ثملا يستمتع ، يتلذذ ، بكل مايرى ، وقد ترك قدماه تسير على غير هدى فى متعرجات مدينة الضوء تلك . أفلت ضاحكا ، عند نهاية أحد الممرات ، من قبضة دستة فى الفتيات اللواتى يمارسن مهنتهن الفظة فى عشش من خيش عليه رسومات ، فيما بين الأكشاك . بلغ العشش الباهرة الإضاءة حيث يجرى الختان ، وكانت أكبرها وأكثرها زخارف ملونة تلك التى لمحمود عناية الله ، معلم عبد الله ، وقد بدت فاخرة بما فيها من صور مثيرة توضح مراسيم الختان مرسومة فى لوحات ذات أطر ، كما تدلت من الباب قارورة كبيرة مليئة بالعلق . كان رئيس الرابطة بنفسه موجودا فى هذه الليلة ، يلقى فى الناس خطبة رنانة يعدهم فيها بالختان المجانى للمؤمنين الفقراء الذين يعجزون عن دفع الأجرة المعتادة . كان صوته الجهورى يدوى هادرا ، بينما وقف مساعداه على أهبة الاستعداد خلف الكرسى ، الأشبه بكرسى ماسح الأحذية ، بحواشيه النحاسية ، وفى يد كل منهما موس جاهز للعمل . وكان يجلس داخل العشة إثنان متقدمان فى السن يرتديان حللا سوداء ويرشفان القهوة وقد بديا كعالمين من علماء فقه اللغة فى مؤتمر ما .

كان العمل راكدا . وزعق العجوز مناديا ، « أقبلوا ، أقبلوا ، تطهروا أيها المؤمنين » . كان يقف واضعا إبهاميه وراء طية سترته القديمة ، والعرق يرشح على وجهه ، ينثال من تحت طربوشه الأحمر . وكان يجلس على مقربة منه ابن عم له وقد استغرق فى عمله يرسم وشما على صدر ذكر مومس بهى الطلعة ، تنساب خصلات شعره المدهون بالزيت على ظهره وقد كحل عينيه وصبغ شفتيه ، وإلى جواره لوح زجاجى لامع رسمت عليه مجموعة منتقاة من الرسومات حتى يختار منها الزبائن مايشاءون ــ أشكال هندسية تخص المسلمين، آيات قرآنية ، تسجيل نذر معين أو أسماء من يحبهم الراغب فى الوشم. كان الرجل يملؤ ثقوب الوشم فوق الجلد لمسة بعد لمسة ، كأستاذ فى شغل الإبرة، ويبتسم من حين لآخر وكأنه يضحك لنكتة خاصة ، يعمل فى دأب لاستكمال الصورة التى يشكلها بوخز الإبرة ، بينما العجوز يزأر ويزعق بالقرب منه ، « أقبلوا ، أقبلوا يا مؤمنين » .

مال ناروز فوق راسم الوشم قائلا فى صوت أجش ، « هل المجذوب هنا

الليلة ؟» . رفع الرجل عينيه الجافلتين وقد توقف، ثم قال ، « نعم ، أعتقد أنه قرب المقابر » .

شكره ناروز وهو يستدير عائدا مرة أخرى ، إلى العشش والأكشاك المزدحمة ، متخذا طريقه عشوائيا عبر المسالك الضيقة حتى بلغ أطراف المناطق المضاءة . كان يرقد فى الظلام أمامه ، فى مكان ما ، عدد قليل من مقامات الأولياء المهجورة التى تميل عليها ، تظللها ، أشجار النخيل . هنا كان يقف الرجل الرهيب ، الذى اشتهر بهوسه الدينى كثيب المنظر ، يطلق بروق ورعود شخصيته المغناطيسية على جمع واجف خائف منه ، وإن كان مفتونا به .

ارتعد ناروز ، أيضا، وهو يحملق فى وجهه الذى عاث الدهر فيه ، وقد صبغ عينيه بقلم فحم فغدت كعينى وحش فى الصور الرمزية ، وبدت نظراته عدوانية، غير إنسانية . كان الرجل المبروك يقذف باللعنات والدعوات على حلقة المستمعين، وأصابعه تتلوى تنبسط كالمخالب ، وهو يقفز راقصا هنا وهناك كدب حبيس ، يدور ويلف فى سرعة ، يتأخر ، يتقدم، نحو الجمع حوله . ينخر ، بزأر ويصرخ حتى إرتعد الناس أمامه مبهورين بقواه ،حتى « أخذته الجلالة » كما يقول العرب ، ولبسته قوى الأرواح .

وقف الرجل المبروك وسط جزيرة من الأجساد التى سقطت على الأرض ، البعض بتأثيره المغناطيسى ، والبعض يزحف كالعقارب والبعض يصرخ يمأمئ كالماعز والبعض يشهق وينهق . كان الرجل يقفز مابين الحين والحين على أحد هؤلاء وهو يطلق صرخات بشعة ثم يمتطيه ويسير به عبر الحلقة وهو يضربه على عجيزته كالمجنون ، ثم يستدير فجأة ، والزبد يتطاير من بين أشداقه ، لينطلق مندفعا بين الجمهور ، ينقض على ضحية تعسة ، وهو يصرخ ، « هل تسخر منى ؟» ممسكا به من أنفه أو أذنه أو ذراعه ليسحبه بقوة ، تفوق قوة البشر ، إلى داخل الحلقة. وبحركة سريعة مفاجئة من أصابعه التى تشبه المخالب « يمحو بصيرته » ، ويطوح به بين الضحايا الذين يزحفون على الرمل عند قدميه ، وهو يطلق الصرخات الحادة طالبا الرحمة ، فتتحول صرخاته إلى خنخنة بين نهيق ونعيق هؤلاء الذين وقعوا بالفعل تحت تأثيره السحرى . كان فى إمكان المرء أن يحس بقوة شخصيته وهى تنطلق بين الحشد المزدحم إنطلاق

الشرارات من السندان .

جلس ناروز فى الظلام خارج الحلقة ، على شاهد أحد المقابر ، يراقب مايجرى . صرخ المجذوب صرخة عنيفة . « أيها الشياطين المدنسين» ، وهو يدفع بمخالبه إلى الأمام فتتراجع حلقة الناس حتى يتفادوا هجمته الشرسة . وارتفع صوته إلى زئير مخيف ، « أنت ، أنت ، أنت ، وأنت » ، كان لايهاب ولايحترم أحدا إن « أخذته الجلالة » .

كان يسير عند أطراف هذا الجمع شيخ مهيب يرتدى العمة الخضراء ، دلالة على أنه من نسل الرسول ، عندما رآه المجذوب فاندفع نحوه بين الحشد ، وقد تطاير جلبابه ، حتى بلغه فصرخ قائلا ، « إنه غير طاهر » . واستدار الشيخ إلى المجذوب الذى يتهمه هكذا بعينين غاضبتين ، وأخذ يعاتبه محتجا . إلا أن المجذوب قرب وجه الشيخ من وجهه ، دافعا بنظراته المخيفة فى عينيه . وفجأة تبلد الشيخ وتمايلت رأسه ، فى اضطراب ، على رقبته . وصرخ المجذوب ، وهو يدفعه إلى أسفل ليركع على أربع ، وهو ينخر كالخنزير . ثم سحبه من عمامته ليلقى به بين الآخرين . وصاح الحشد « كفى » ، وقد أغضبته تلك الاستهانة برجل له قداسته . إلا أن المجذوب استدار مندفعا نحو الحشد صارخا وأصابعه تنتفض ، « من ذا الذى قال كفى؟ من ذا الذى قال كفى ؟» .

ووقف الشيخ العجوز ، استجابة لأوامر هذا الصوفى الأشبه بكابوس فظيع . وأخذ يرقص منفردا رقصة شعائرية قصيرة ، وهو يصرخ فى صوت رفيع كاصوات الطيور ، « الله ! الله » ، بينما يخب مهتزا حول دائرة الأجساد ، وفجأة تقطع صوته إلى صرخات مختنقة كحشرجات حيوان يموت . وصاح الحشد ، « كف عما تفعل ، كف عما تفعل أيها المجذوب » . وأتى المنوم المغناطيسى ببعض الحركات اليدوية الساذجة ، ثم دفع بالشيخ العجوز خارج الحلقة وهو ينهال عليه بأقذع اللعنات .

وترنح العجوز ثم استعاد نفسه . أفاق تماما وقد بدا أنه لايحس إلا القليل مما أصابه من سوء خلال التجربة التى مربها . واقترب ناروز منه بينما كان يعيد عمامته إلى وضعها وينفض التراب عن قفطانه . وحياه ناروز وسأله عن اسم هذا المجذوب ، إلا أن الشيخ العجوز لم يكن يعرفه وقال ، « لكنه رجل طيب

للغايـة ، إنه رجـل مبروك ، لقد عاش ، ذات مـرة ، وحيدا فى الصحـراء لسنوات عدة» وسـار فى وقار وجـلال إلى قلب الليل . وعـاد ناروز يجلـس فوق شـاهد المقبرة ، يتأمل ماحوله من جمال ، ينتظر حتى تواته فرصة الإقتراب من المجذوب الذى كانت صرخاته الحيوانية تدوى فى الليل ، تخترق صخب المهرجان وطنين الرجـال المباركين فى مـزار قريـب . لم يكن قـد حدد بعـد أفضل السبـل للتعامل مع بطل الظلام العجيب . وانتظر مستغرقا فى تأملاته .

كان الـوقت متأخـرا عندما إنهى المجـذوب عرضه المسرحـى ، مطلقا سراح الكائنات الحبيسـة عند قدميه ، طالبـا من الحشد أن ينفض وكـل يصفق كفيه معا. وكأنهم مجموعة من الأوز. ووقف برهـة يصب لعناته عليهم ، ثم استدار فجأة على عقبيـه واتجه سائرا إلى المقـابر . وفكـر ناروز الـذى كان قـد انتوى استخدام العنف معه ، « يجب أن أكون على حـذر ، يجب ألا انظر فى عينيه . كان لديه خنجرا صغيرا ، فحرره من غمده ، وأخذ يتبعه فى بطء وعناد .

سار الـرجل المبروك بطيئا محنيا كـأنما يحمل هموما تفـوق العد والحصر، كأنها أثقل من أن يحملهـا مخلوق بشرى . كان مايزال يئن وينشـج ، ثم سقط فجأة فوق ركبتيـه زاحفا عدة خطوات فوق الأرض وهو يتمتـم . وراقب ناروز كل هذا وقد مال برأسه ككلب صيد ينتظـر . وطافا معا تخوم المهرجان المتعرجة فى عتمة تلك الليلة الحارة حتى وصل المجذوب أخيرا إلى حائط من الطوب ممتد، متهدم،يفصل بين حدائق مـهجورة ومنازل متداعيـة . تضاءلت ضجة المهرجان إلى طنين ، إلا أن آلة بخارية كانت ماتزال تجلجل ، فى مكان ما ، فى الجوار . سارا فى شبه جزيـرة من الظلام ، عاجزيـن عن الحفاظ على مسافة بينيـة متناسبة ، كتائهين فى صحـراء مجهولة . إلا أن قـامة المجـذوب غدت الآن أكثرانتصـابا ، وخطاه أكثر اسراعا ، وقد تملكته لهفة الثعلب الذى اقترب من وجاره . ثم استدار أخيرا إلى ساحة واسعـة مهجورة ، منزلقا عبر فتحة فى جدار مـن طوب . خشـى ناروز أن يفقـد أثره بين هـذه البقايـا المتناثرة لبعـض المساكـن والمقابـر التى كساها التراب . عثر عليه فى أحد الأركـان وقد انتفخت هيئتة وتضـخمت ، بسبب الظلام ، حتـى غدت كسراب آدمـى يصل إلى ارتفـاع اثنتى عشر قـدما . نـاداه فى رقة ، « أيها المجذوب ، مَجِد الله ».فجأة تلاشى خوفه من الشر المرتقب كما يحدث له

دوما ، عندما يكون مقدما على ارتكاب عمل يتسم بالعنف . وانتابه فرح وحشى وهو يخطو إلى الأمـام ، فى متناول قوة هذا الرجل المبروك ، وقـد سحب الخنجر من غمده حتى منتصفه .

تراجع المجـذوب خطوة فأخرى . فجـأة احاط بهما بصيص نور كـان ينفذ عبر الظلام ، من مصباح بعيد فى الشارع ، فبعث ذلـك فيهما بالحيوية وقد كل رأسيهما بهالة من ضوء فصارت كل منهما كمدالية كبيرة . رأى ناروز بصورة مبهمة ، الرجـل وهو يرفع ذراعـه ، بطريقة تثير الشك ، ربما لخوفـه كما يفعل الغواص ، ثم أراحها فوق عارضة خشبيـة عطنة ، ربما استخدمت فى مكان ما ، يومـا ما ، كـدعامـة لحائط إحدى الزرائب المبنيـة بالطـوب اللبن . ثـم استدار المجـذوب نصف استـدارة ليضـم راحتيـه ، ربما فى صلاة ، فـأقدم نـاروز على حركتين متتاليتين محسوبتين دقيقتين ورشيقتين . فقد رشق بيمناه الخنجر فى الخشب مثبتـا ذراعى المجـذوب إليه بتثبيتـه كمى جلبـابه الخشـن الطويلين ، وأمسك بيسراه ذقن الرجل كما يمسك المرء بحية الكوبرا من رأسها ليمنعها من أن تبطش بـه . وأخيرا ، دفع راسـه إلى الأمام ، بطـريقة غـريزيـة ، مادا شفتـه المشقوقـة (اذ حتى التشوه الخلقى يمنـح صاحبه ، فى الشرق ، قوة سحـرية) وهو يفح وكأنه يرسل إليه بقبلة ماجنة ويقول ، « أوه ، ياحبيب النبى » .

ظلا هكذا واقفين مدة مـن الزمن طويلة ، وكأنهما صـورة منسية لحركة فى لوحة، فوق مقبرة مصنوعة مـن الخزف أو البرونز . وأخذ الصمت المحيط بهما ينبض من جديد ، والمجذوب يتنفس فى تثـاقل كأنما يكاد يشكو فجيعة . إلا أنه لم يقـل شيئا . حملـق ناروز فى هـاتين العينين الرهيبتين ، واللتين رآهما الليلـة تشتعلان كـالجمرتين ، لكنه لم يعـد يرى فيهما أيـة قوة . كانـت العينان تحت الخطوط المرسومـة بالفحم خاليتين خـابيتين . وكان بؤبؤاهما مفـرغين من أى معنى ، مجوفتين ، ميتتين . بدا وكأنـه قد ثبت رجلا مات لتوه فى هـذا الركن من الحائط ، فى هذه الباحة المهجورة . رجل يكـاد يسقط بين ذراعيه ويلفظ أنفاسه الأخيرة .

غمـرت عقـل ناروز ، وقـد أدرك أن ليـس هنـاك مايخيفـه ، وأن المجـذوب لاتمتلكه الآن « نشوة الجلالـة» ، موجات من الحزن ، حزن المقـر بخطئه . كان

يعرف مصدر قدسية الرجل ، القوة الدينية التى يتخذ منها ملاذا لحظة جنونه . وامتلأت عيناه بالدموع ، فأطلق ذقن الرجل القديس ، وأخذ يمسح بيده شعر رأسه المتلبد ويهمس فى صوت ملئ بدموع المحبة ، « آه ، ياحبيب الرسول . آه أيها الحكيم المحبوب » . وكأنه يدلل حيوانا ، وكأن المجذوب قد حول نفسه إلى كلب صيد محبوب . وأخذ ناروز يربت أذنيه وشعره مكررا نفس الكلمات فى صوت خفيفض سحرى ، كذلك الذى يستخدمه دوما مع حيواناته المفضلة . واستدارت عينا الساحر وتركزت نظراتهما وعشى ابصارهما كطفل تغلب عليه، فجأة شعوره بالإشفاق على ذاته ، وشهق شهقة واحدة من سويداء قلبه، وسقط على ركبتيه فوق الأرض الجافة ، ويداه مازالتا مصلوبتان إلى الحائط . انحنى ناروز وسقط معه وهو يطيب خاطره بصوت غير واضح المقاطع . لم يكن ذلك تظاهرا . كانت أعماقه تمور بالتبجيل والتوقير لرجل يعرف أنه باحث عن الحقائق النهائية للدين خلف قناع من الجنون .

إلا أن جانبا آخر من عقله كان مشغولا بالمشكلة الرئيسية . فقال فى صوت ليس هو صوت الصياد الحانى الذى يتلطف فى القول مع شىء أثير لديه ، ولكن فى نغمة الرجل الذى يحمل خنجرا ، « والآن عليك أن تخبرنى بما أود معرفته . أم أنك لن تفعل ذلك ؟» . كانت رأس الساحر ماتزال متهدلة فى إعياء ، فأدار عينيه فى رأسه إلى أعلى فى إرهاق كان أقرب مايكون إلى الموت . وقال ناروز فى صوت أجش ، « تكلم » . ثم قفز يستعيد خنجره ، وعاد يركع إلى جواره وإحدى يديه ماتزال ممسكة برقبته . وأخبره بما يريد معرفته .

وأنّ الرجل قائلا . « إنهم لن يصدقوننى . لقد رأيتها ، فقط ، بقدراتى الخاصة ، وأخبرتهم بما رأيت مرتين . إننى لم ألمس الطفلة » ثم صرخ وقد استعاد فى لمحة مفاجئة صوته ونظرته المعبرة عن قوته المفقودة . « هل أريك أنت أيضا ؟ أتحب أن ترى ؟ » . ثم غرق إلى الخلف مرة أخرى . وصرخ ناروز الذى كان ينتفض ، الآن ، من تلك الصدمة التى لم يكن يتوقعها ، « نعم ، أرنى » . بدا وكأن تيارا كهربيا يسرى فى رجليه فيبعث فيهما تلك الرعشة ، وبدأ المجذوب يتنفس فى تثاقل ورأسه تسقط على صدره بعد كل نفس يتنفسه . كانت عيناه مغلقتان ، وقد بدا كما كينة تشحن نفسها بنفسها من هواء الجو . ثم فتح

عينيه وقال ، « أنظر إلى الأرض » .

وركع فوق الأرض الجافة المحروقة ، راسما بسبابته دائرة فوق التراب ، ثم سوى الرمال بيده ، قائلا فى همس وهو يلمس الأرض ببطء وعن قصد ، « انظر هنا حيث الضـوء . سدد عينيك إلى قلب الأرض ، هنا » ، وهـو يشير بأصبعه إلى نقطة بذاتها .

و ركع نـاروز متثاقلا مطيعا ، قائلا فى هدوء بعد لحظة ، «إننى لا أرى شيئا. نفخ المجذوب أنفـاسه فى بطء فى سلسلة من الزفـرات .قال فى إصرار ، « فكر فى ضرورة أن ترى فى الأرض » . دفع نـاروز بنظراتـه لتخترق الأرض ، مركزا عقله حتى تصب كل قواه فى تلك النقطة أسفل أصبع الساحر .مرت فترة سكون ، ثم قال أخيرا ، « إننـى أرى صورا » .فجأة تراءى لـه فى وضوح جانبـا من البحيرة الكبيرة بشبكة قنـواتها المتداخلة الترابط ومنـزل عتيق يظلله النخيل مبنـى من قرميد بهت لـونه ، حيث عاشـت يوما ما ، جـوستين والأرناؤوطى ـ الـذى بدأ كتابه « عادت » هنـاك ، وحيث كانت الطفلة ..أخيرا قال نـاروز ، «إننى أراها » . فقال المجذوب ، « آه، انظر جيدا » .

أحس نـاروز وكأنـه مخدر تخديرا رقيقا غامضا بفعل الشبـورة المتصاعدة من مياه القنوات واستمر قائلا ، « إنها تلعب إلى جوار النهر . لقد سقطت فيه » . كان فى وسعـه أن يسمع صوت أنفاس نـاصحه الأمين وهى تزداد عمقـا .قال المجذوب وهو ينغـم كلماته ، « لقد سقطت فى الماء » . واستمـر نـاروز ، « لا أحد بجوارها . إنها وحيدة ترتدى ثوبا أزرق بـه مشبك زينة على شكل فراشة ». ثم ساد الصمـت زمنا طـويلا . وأخذ السـاحر يئن فى رقـة قبل ان يقـول فى نغمة غليظة كبقبقة المياه « لقد رأيت ذات المكان . الله قوى جبار ، ومنه استمد قدراتى الخاصـة » . ثم أخـذ حفنة مـن تراب دعـك بها جبينه بينما أخـذ الغيب الـذى انكشف فى الاضمحلال .

تأثر نـاروز أبلغ التأثر بقـوى المجذوب حتى أنه قبلـه واحتضنه ، دون أن ينتابه الشك ، ولـو للحظة واحدة ، فى صدق المعلومات التى منحتهـا له الرؤيا . نهض إلى قدميه ، وهويهز نفسه كما يفعل الكلب . حيا كل منهما الآخر فى همس خفيض وافترقـا . ترك نـاروز الساحر جـالسا هنالـك ، مرهقـا ، فوق الأرض،

واستدار بخطاه ، مرة أخرى فى اتجاه أنوار المهرجان . كان جسده مايزال يرتعش كرد فعل لما حدث وكأنه يعانى من وخز بالإبر والدبابيس ـ أو كأن تيارا كهربيا قد أفرغ فى فخديه ومؤخرته . كان يعرف ، كما يدرك الآن ، أنه قد عانى خوفا شديدا ، فتثاءب وانتفض بينما كان يسير وهو يضرب ساقيه بذراعيه ليدفع بالدفء إليهما ـ كأنما يستعيد دورته الدموية وقد تباطأت .

كان عليه ، حتى يصل إلى باحة النجار حيث ترك جواده ، أن يقطع الركن الشرقى من أرض المهرجان ، حيث كان الزياط مايزال قائما حول المراجيح ، والأضواء ماتزال مبهرة رغم ان الوقت قد غدا متأخرا . كان ذلك هو الوقت الذى تنشط فيه المومسات ، نساء سود أو برونزيات أو ليمونيات ، لايخشين الإثم أو المعصية ، يتصيدون الرجال الباحثين عن اللحم مدفوع الثمن .لحم من كل لون، لون العاج أو الذهب أو اللون الأسود . سودانيات ذوات لثات أرجوانية وألسن زرقاء كالكلاب الصينية ، مصريات شمعيات ـ شركسيات بشعور ذهبية وعيون زرقاء . زنجيات بلون التراب المائل للزرقة ، تفوح منهن رائحة دخان الأخشاب . ولكل لحم تنويعاته المختلفة ، اللحم العجوز يتهدل على عظام نخرة ، ولحم الفتيان والنسوة الذى لايشبع ولايرتوى ظمأه فوق أطراف أجساد تسقمها الشهوات التى لايمكن التعبير عنها بالرسوم المصورة ، إلا أنه لايمكن إطفاؤها إلا فى التمثيليات التى تقوم على التقليد الصامت ـ لأنها شهوات موروثة فى غياهب العقل ، لاتنتمى إليهم بل تنتمى إلى أسلافهم البعيدين ، وتفصح عن نفسها من خلالهم . الشهوة التى تنتمى إلى البويضة التى تقبع هناك فيما تحت سطح النفس البشرية .

كان ليل الإسكندرية الأبيض الحار يشتعل كقنديل متوهج ، يخترق بطن الأقدام العارية السوداء ليصل إلى أعلا يبعث الدفء فى العقول والقلوب التى لايرجى لها صلاحا . وأحس ناروز بنفسه ، وحوله كل هذا السعار وتلك الفتنة محمولا طافيا كزنبقة عائمة فوق مياه النهر ، ورغم ذلك كان يلوذ بعمق فى سكون خياله بينما يذهب بعيدا إلى حيث النماذج الأصيلة للصور الرائعة التى تقبع فى انتظاره .

ورأى ، حينئذ ، وهو فى حالة من الاستر خاء ، مشهدا قصيرا يمثل أمام

ناظريه ـــ لم يفهم له معنى . مشهد يخص شخصا لم ولن يلتق به أبدا إلا على صفحات هذا الكتاب ـ إنه سكوبى . لقد بدأ شغب ما ، فى اتجاه ما ، فى ناحية عشش الختان . كان الخيش الواهى والجدران الورقية ، بما عليها من رسومات أيقونية مثيرة ، ترتعش وتهتز . وتداخلت الأصوات والصرخات وأرعدت الأحذية بمسامير نعالها الغليظة فوق الأرضيات الخشبية المؤقتة ، ثم اندفع عجوز يترنح من خلال هذه الجدران الورقية يحمل طفلا ملفوفا فى ملاءة . كان يرتدى ملابس ضابط شرطة مصرى ، وساقاه ، بما عليها من لفافات ، ترتعش تحته وهو يجرى . وانهمر خلفه جمع غفير من العرب يصرخون ويهرون ككلاب متوحشة وإن كانت خائفة. واندفعت هذه المجموعة كلها ، فى غارة يائسة ، عبر الطريق الذى سلكه ناروز . كان الرجل العجوز ذى البزة العسكرية يصرخ فى صوت واهن ، إلا أن صراخه ضاع هباء فى هذا الضجيج .سار مترنحا عبر الطريق إلى مركبة عتيقة تجرها الخيل وصعد إلى داخلها . وانطلقت للحال تهرول على الطريق المتعرج يطاردها وابل من الحجارة واللعنات . كان ذلك هو المشهد بتمامه .

واستثار فضول ناروز ، وهو يرقب المشهد ، صوت آت من خلف الظلال التى إلى جانبه ـ صوت لاينتمى عمقه أو طلاوته إلا لشخص واحد فقط : كليا . وأحس كأنما أصابته طعنة مفاجئة ـ وشهق فى حدة وألم ، وضم راحتيه معا فى حركة طفولية ضارعة . كان الصوت صوت المرأة التى يحبها ، إلا أنه جاء من إمرأة زرية كانت تقبع فى ظلال باهتة ـ جسدها ملئ بثنيات الشحم تجلس سافرة أمام عشتها الورقية على كرسى ذى عجلات ثلاث . كانت تأكل ، بينما تتكلم ، كعكة بالسمسم ، وهى أشبه بدودة ضخمة تقضم خسة ـ كانت تتكلم بطريقة تتطابق نبراتها ونبرات كليا نفسها .

توجه ناروز ، على الفور ناحيتها قائلا فى صوت خفيض متملق « تكلمى معى ، يا أمى » . ومرة أخرى سمع تلك الأنغام ذات الجرس الموسيقى الرائع تتمتم بكلمات التحبب والإعزاز والمداهنة الضارعة ، لتسحبه إلى حجرة التعذيب الصغيرة (إنها بتيسوكوس الالهة التمساح ، ولا أقل من ذلك) .

وعميت بصيرته عن كل شىء ، إلا عن ايقاع الصوت ، فتبعها كالمدمن ، حيث

وقف فى وسط الغرفة المظلمة وقد أغلق عينيه ووضع راحتيه على صدرها الرجراج الضخم ـ وكأنه ينهل موسيقى كلمات الحب تلك ، والتى تنثال بطيئة فى جرعة واحدة طويلة مترعة . ثم بحث عن فمها بطريقة محمومة وكأن فى وسعه أن يمتص صورة كليا ذاتها من أنفاسها ـ من تلك الأنفاس المترعة برائحة السمسم . كان ينتفض اهتياجا ـ واختلج كالبرق فى خاطره الشعور بالتهلكة الذى يحسه ذلك الذى يقدم على إنتهاك حرمة مكان مقدس بفعلة آثمة لم يستطع مقاومتها ، وهى فى ذاتها بشعة الجمال . (إن افروديت تسمح بكل تزاوج فى الحب بين العقل والإحساس) .

خلع ملابسه ضاغطا دمية اللحم الضخمة هذه فى بطء إلى أسفل فوق السرير القذر يلاطف جسدها بيديه القويتين ليستخرج منه ما كان يتخيله من استجابات ، ربما ينالها ، لو كان يلاطف جسد إمرأة أخرى يحبها . وهمس فى صوت أجش ، « تكلمى يا أمى وأنا أفعلها ، تّكلمى » . كان يعتصر من هذه الأشبه بدودة كبيرة بيضاء ، صورة نادرة رائعة ، ربما نادرة ندرة أمبراطور العثة ، هى صورة جمال كليا . كم كان بشعا وجميلا أن يرقد هنالك فى النهاية ، وقد أُعتصر كما تعتصر أنبوبة الألوان الزيتية القديمة ، يرقد بين خرائب الشهوات الزائلة : وهو ذات الرجل الذى يعيش فى أعماقه ، عزلة حلمه الشخصى، الحلم العابر كأيام الطفولة . حلمه الذى يسحق القلب ويكسر الخاطر : كليا !

لكن هنالك مايوقف الحديث عنه الآن . نعم ، أننى أعيد صياغة تلك المشاهد فى ضوء ماجاء من تعليقات بلتازار وحواشيه . إن ذاكرتى تعيد إلى الحياة شيئا نسيته . إنها ذكريات عن عشة قذرة ، ورجل وأمرأة يرقدان معا فى سرير ، و أنا أنظر إليهما نصف مخمور ، انتظر دورى . لقد وصفت المنظر كله فى مكان آخر ـ إلا أننى أعتقدت حينذاك أن الرجل كان منمجيان . لكننى أتساءل الآن ، إن كان هو ناروز « لقد رقدا هناك ،كضحايا حادثة بشعة ، وقد إندمجا معا بطريقة قبيحة خرفاء ، وكأنهما أول شريكان فى تاريخ الجنس البشرى ، يقومان بتجربة تفتقد إلى التناسق لاستنباط هذه الوسيلة الغريبة للإتصال » .

وهذه المرأة « بخصلات شعرها السوداء المتموجة » ، والتى ترقد بين ذراعى

نـاروز ـــ هل يمكـن لكليـا أو جـوستين ، أن تتخيلا نفسيهما ، وقـد نسجـت صورتهما مـن هذا اللحم مـدفوع الثمن ؟ كان نـاروز ينهل كليا ، يـروى ظمأ غليله، من هذا الجسد المأجور للمتعة ، تماما مثلما كنت أود أن أنهل أنا جوستين « مرة أخرى وجه افرودويت المتجهم ، الغافل االبدائى » .

نعـم ، يمكن للمـرء أن يطفئ ظمـأه هكذا ، يستـدعى شيطـانة الأحـلام إلى مرقـده، ويمارس الجنس معها فى منامـه . ووقف ناروز فى الظـلام ، فيما بعد ، حائرا . وقد فقد تماسكـه كانسان مجنون ، يغمره شعور بـالإرتياح يعجز عن احتماله ، وأحـس كأنما يغنى . لم يكـن فى وسع المرء ، حقـا ، أن يقول بأنـه قد نسى كليا ، تماما ، فى هذه اللحظة ، لكن المرء يستطيع أن يؤكد ، على الأقل ، بأن فعلته تلك قد حررته من صورتها ، كان قد تطهر منها تماما ـ كان يمتلك فى تلك اللحظة شجاعة أن يكرهها . ذلك هو التناقض الكامن فى الحب . الحب الحقيقى .

وعاد يسير بطيئا عبر طرق متعرجة . إلى صديقـه النجار ، ليأخذ جواده بعد أن يوقظ الأسرة ليؤكـد لها أن الجلبة فى الأسطبل ، فى هذه الساعة المتـأخرة من الليل ، إنما هى صادرة عنه وليس عن لص يحاول السرقة .

ثم إمتطى حصانه عائدا إلى أملاكه، وهو أسعد من يعيش على ظهر الأرض . بلغ العزبة مع إشعاعات الفجـر الأولى . ولما لم يجد أحدا ، التف بعباءته ، ورقد فى الشرفة يستريح ، حتى توقظه أشعة الشمس . كان يود أن يبلغ أخيه ، مالديه من أخبار .

واستمع نسيـم . فى صباح اليوم التالى ، إلى قصتـه كلها ، فى هدوء وجـدية ، وهو يحس الدهشة. كيـف لايصدر عن القلب الإنسانى صوتـا وهو ينزف دمه قطرة ، قطرة ـ كان يرى ، فيما سمع ، عقبة كؤود تعرض للخطر تلك الثقة التى كان يبغى إنماءها ورعايتها فى زوجته . وقـال ناروز . « لا أعتقد أننا سوف نجد الجثة بعـد هذا الـزمن الطويـل للغايـة . إلا أننى سأذهـب وفرج ومعنـا بعض الخطاطيـف لنبحث هناك ـــ أننى لا اعتقد بـأى ضرر من المحـاولة . هل أفعـل ذلك؟» وتقلصت كتفا نسيم . وصمت أخوه لحظة ، إلا أنه عاود الحديث بنفس الوتيرة . « لم أكن أعرف شيئا من قبل عن ملابـس الطفلة ، إلا أننى سأصف لك ما رأيت فى الأرض . كانت ترتـدى ثوبا أزرق به مشبك للزينة على شكـل فراشة » . قال

نسيم وقد كان ينفـذ صبره « نعم ، هذا صحيح تماما . إنه نفس الوصف الذى أعطته جوستين للمحققين من رجـال النيابة ـ اننى أتذكر هـذا الوصف , حسنا ياناروز. ماذا فى وسعى أن أقول ؟ إنه وصف حقيقى ، وأنا أشكرك على ما فعلت . أما بالنسبـة للبحث فى البحيرة ، فلقد قامـت النيابة بهذا الإجراء مـرات عدة . نعم، ودون جـدوى . إذ أن هنالك قطـع فى القناة ، ثـم مسار تيار تحتـى قوى للمياه » .

قال ناروز وقد أصابه الغم ، « إننى أدرك ماتقول » .

قال نسيم ، « الأمر كله عسير الفهم » . ثم احتد صوته ، « إلا أن هنالك شيئا واحدا عليك أن تعدنى به ، يجب ألا تعرف الحقيقة منك أنت . عدنى بذلك.»

قال أخـوه ، « إننى أعدك بـذلك » . واستـدار نسيم ، فى ذات الوقـت ، ليجد نفسه وزوجته وجها لوجه . كان وجهها شـاحبا ، وعيناها الواسعتان تغوصان فى عينيه كمـن يبحث عن شـىء فى قلق وترقـب وفضول .قال نسيـم فى عجلة ، «يجب أن أذهب الآن » ثـم وضـع سماعة الهاتف . كـان الآن يواجهها ، فـأمسك يديها بيديه . إننى أراهما ، بعين خيـالى ، على هذا الحال دوما ، يحملق كل منهما فى الآخر وقـد تشابكـت أيديهما ، قريبين مـن بعضهما تمام القرب ، وبعيـدين أيضا تمام البعد . إن الهاتف هو الرمز الحديث لاتصالات لم تحدث البتة .

* * *

-٨-

« لقد حدثتك عن موت سكوبى (هكذا كتب بلتازار) ، إلا أننى لم أحدثك بالتفصيل عن الطريقة التى مات بها . لم أكن شخصيا ، أعرفه معرفة جيدة ، إلا أننى كنت أعرف مدى تعلقك به . لم يكن عملا يبعث المسرة فى نفسى ، كما جاء اهتمامى به ، حقا ، بطريقة عرضية تماما ــ كان ذلك عن طريق نمرود مدير الشرطة ، والذى كان رئيسا لسكوبى ثلاث دورات ، إذ كنا نتعشى معا فى تلك الليلة بعينها .

« هل تتذكر نمرود ؟ حسنا ، لقد كنا نتنافس على كسب ود شاب ظريف ، ممثل من أثينا يحمل اسما لطيفا هو سقراط بيتاكاكيس . وكان المتوقع ، نتيجة مثل هذه المنافسة الخطيرة ، ظهور مشاعر سيئة فيما بيننا . ولم يكن ذلك ، على المستوى الرسمى ، فى صالحنا ، (إذ كنت أنا مستشارا طبيا لادارته على نحو ما). ولذا قررنا فى صراحة ، وبطريقة حكيمة ، دفن غيرتنا ، وأن نتشارك الشاب معا ـ كما هو خليق بكل أبناء الإسكندرية الطيبين . وهكذا جلسنا نحن الثلاثة نتناول طعام العشاء فى الأوبرج بلو ، وقد جلس الشاب فيما بيننا كحشو اللحم فى الساندوتش . يجب أن أقر واعترف بأننى كنت أتفوق ، إلى حد ما ، على نمرود، إذ أن معرفته باليونانية كانت ضعيفة ، إلا أن روح العقل وتقدير الأمور، عامة، هى التى تسود . كان الممثل يشرب الشمبانيا السوداء طوال الأمسية. كان يسترد عافيته ، كما أوضح لنا ، من مرض السل ، بهذه الطريقة . لكنه رفض فى النهاية أن تكون له أية علاقة بأى واحد منا . كما أوضح لنا ، أنه فى الحقيقة مولع بفتاة أرمنية ، ذات شارب كث كثيف ، تعمل فى عيادتى . وهكذا ضاع كل الجهد سدى ـ ويلزم هنا أن أقول أن نمرود كان يحس بمرارة خاصة إذ كان عليه أن يدفع ثمن هذا العشاء الهائل . حسنا ، كنا ، كما أقول نحن الثلاثة معا ، عندما استدعى الرجل الكبير إلى الهاتف .

« وعاد بعد برهة يبدو عليه بعضا من حزن وقال . «كانت المكالمة من قسم شرطة الميناء . يبدو أن رجلا عجوزا قد ضربه ، ركلا حتى الموت، بعض بحارة الباخرة (هـ.م . س ميلتون) . إن لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أنه واحد من هؤلاء الشواذ الذين يعملون فى فرع (ك) ـــ هنالك بمباشى عجوز يعمل هناك » . ووقف ، مترددًا ، على قدم واحدة . ثم استمر قائلا ، « يجب أن أذهب ، على أى حال ، لأتأكد من الأمر . فأنت لاتستطيع أن تعرف الأمور من ظاهرها »، ثم خفض صوته وسحبنى جانبا وهو يقول ، وقد وضع ثقته فىّ ، لقد عثر عليه مرتديا ثياب النساء . ربما ثارت فضيحة» .

« يالنمرود المسكين . كان فى وسعى أن أرى واجبه يضغط عليه ضغطا شديدا كى يغادر ، وهو يكره أن يتركنى وحدى مع الممثل . ولذا وقف مترددًا يزن الأمر فى عمق . وعلى أى حال واتتنى ، أخيرا ، طبيعتى المهذبة تنجدنى ، بعد أن كدت أفقد الأمل . فنهضت أنا أيضا . وقلت بروح رياضية تفيض بالحياة ، يحسن أن آتى معك ، وغمرت الرجل المسكين ابتسامات متعبة وهو يشكرنى فى حرارة على هذه البادرة ، فتركنا الشاب يأكل السمك (بسبب أنشغالنا الذهنى . هذه المرة) . وأسرعنا إلى موقف السيارات حيث كانت سيارة نمرود الحكومية فى انتظاره . ولم يمضى وقت طويل حتى كنا نسرع على طريق الكورنيش ، ثم نستدير إلى منطقة رصيف الميناء المظلمة المليئة بالاصداء ، وأزقتها المرصوفة بالأحجار المدورة ، وأضواء الغاز المرتعشة على امتداد أرصفة الميناء والمراسى والتى تجعلها شديدة الشبه بجانب من مارسيليا ، إلى حد ما ، عام ١٨٥٠ . لقد كنت أكره هذا المكان ، دوما ، بما فيه من روائح رطوبة البحر والمباول والسمسم.

« كان مبنى نقطة الشرطة دائرى أحمر أشبه بمكتب بريد فى العصر الفيكتورى ، مكون من حجرة صغيرة لإدارة أعمال النقطة ، وزنزانتين مظلمتين شديدتا الحرارة بلا تهوية ، وبشعتين فى تلك الليلة الصيفية . كانت النقطة مكتظة بجنود الشرطة الذين كانوا يثرثرون ويرشحون عرقا ، والكل قد ظهر بياض عيونه الفزعة كعيون خيل فى العتمة ، وتمدد فوق دكة حجرية ، فى واحدة من الزنزانتين ، جسد واه عتيق لإمرأة عجوز ، وقد سحب الجزء السفلى من

ثوبها حتى وسطها ، ليكشف عن ساقين رفيعتين فى جورب أخضر مشدود بحمالات وحذاء بحرى أسود . كان النور الكهربى قد انقطع ، وشمعة مرتعشة الضوء موضوعة على عتبة فوق الجثة تنقط شمعا فوق يد يابسة عجوز ، أخذت ، الآن، تستقر مع بدايات التيبس الرمى ، فى حركة مسرحية ـ وكأن أحد يدفع عن نفسه لطمة وجهت إليه بطريقة مسرحية . كان ذلك هو صديقك سكوبى .

« كان قد ضرب حتى الموت بطريقة بشعة للغاية . وقد تهشمت عظامه تحت جلده البالى تهشم آنية خزفية . ودق جرس الهاتف ، فى مكان ما ، بينما كنت أقوم بفحصه . كان كيتس وقد إشتم شيئا ما ، يحاول اكتشاف مكان الحادثة . كان الأمر أمر وقت فقط حتى تصل سيارته السيتروين العتيقة خارج المبنى . كان واضحا أن فضيحة مدوية توشك أن تثور. وأمسك الخوف بتلابيب نمرود، ففح قائلا ،«يجب أن نخرجه من تلك الملابس» . وأخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال بخيرزانته ، دافعا جنود الشرطة إلى الممر ، حتى أخلى الزنزانة منهم . قلت له ، « حسنا » . وبدأت ، بينما وقف مشيحا بوجهه الذى كان ينضج عرقا ، فى خلع الملابس عن الجثة قدر استطاعتى . لم تلك عملية تطيب لها النفس . إلا أن العجوز الفاسد غدا ، فى النهاية ، «عاريا ، كمزمور من المزامير» ، كما يقولون فى اليونانية . كانت تلك هى المرحلة الأولى . وجففنا عرق وجهينا ، فقد كانت الزنزانة الصغيرة حارة كالفرن .

قال نمرود بطريقة هستيرية ،« يجب أن نلبسه البزة الرسمية ، بأى طريقة ، قبل أن يصل كيتس ليدس أنفه هنا . إننى أقترح عليك أن نذهب سويا إلى مسكنه ونحضر ملابسه . إننى أعرف أين يعيش» ، وهكذا أغلقنا باب الزنزانة على العجوز : وكانت عينه الزجاجية المحطمة تعطى لوجهه مسحة من الحزن والتأنيب ـ وكأنه قد تعرض لعمل فنى قام به واحد من هواة تحنيط الطيور . هر عنا إلى السيارة التى انطلقت مسرعة عبر أرصفة الميناء إلى شارع التتويج ، بينما أخذ نمرود يفحص محتويات حقيبة اليد الصغيرة الأنيقة المصنوعة من جلد غير طبيعى ، والتى وضع فيها العجوز كل حاجياته قبل أن يبدأ مغامرته . كان بها بعض العملات المعدنية القليلة ، وكتاب صلوات صغير وبطاقة رئاسية

وحزمـة من ورق الأرز قديـم الطراز (والذى يندر العثـور عليه فى أيامنـا تلك) وهى تشبه ربطة مـن ورق لف السجائر . كانت تلك هى كـل المحتويات . وظل نمرود يكـرر ونحن فى طريقنا إلى المنـزل . «هذا العجوز الأحمق الملعـون ، هذا الأحمق الملعون ».

«أصابتنا الدهشة عندما وجدنا أن الفوضى الشاملة تجتاح مسكن العجوز . فقد عرف الجيران بموتـه بطريقة غامضة ، أو هكذا ظننت . كـانت كل حجرات شقته قـد فتحت عنوة ونهبـت كل دواليبه . وكـان هنالك حـوض للحمام أشبه بالمرحاض ، ملئ بنوع مـا من الجعة لها رائحة العرقى . وكـان واضحا أن أهالى المنطقة قد استباحوا هذا الشراب لأنفسهم ، حيث كانت هنالك آثار أقدام لاحصر لها فوق السلالم ، وآثار أيد فوق الجدران . وكـانت بسطة السلم مغمورة بهذا الشراب . وفى صحن الدار كان أحد البوابين يرقـص ويغنى حول هراوته ـ كان المشهد غريبا للغاية، غير مألـوف . لقد بدا الجيران جميعا يحيطهم جو احتفالى يتسم بالخسة والدناءة . كان الوضع غـامضا يدخل الوحشة فى النفس . ورغم أن كل حاجيات سكوبى كانت قد سرقت إلا أن حلته الرسمية كانت معلقة خلف الباب لم يمسسها أحـد ، فاختطفناها . وما أن فعلنـا ذلك حتى أصابنـا انزعاج هائل ، لأن ببغاء أخضر اللون كان فى قفص فى ركن الحجرة تكلم بصوت ، أقسم نمرود أنه تقليد رائع لصوت سكوبى :

إن جاءوا من أركان الأرض الأربعة مد ججين بالسلاح .

فلسوف نصرعهم

« كان واضحـا أن الطائر مخمـور أيضا . بدا صـوته غريبـا للغايـة فى تلك الغرفـة الموحشة الخالية (لم أخبر كليـا بشىء من كل هـذا خشية انزعـاجها ، حيث كانت ، هى أيضا ، تكن له كثيرا من الود) .

« حسنا ، عدنا إلى نقطة الشرطة ومعنا الحلة الرسمية . كنا محظوظين أنه لم تكن هنالـك أية دلائل على وصول كيتس . وأغلقنـا علينا الزنزانـة ، مرة أخرى ، ونحن نلهـث فى هذا الحر . كـان الجسد يتيبس فى سرعـة ، فبدا انـه من العسير الياســه السترة دون كسر ذراعية ، والتى كـانتا ، يعلم الله ، هشـة ، حتى أنهما يمكن أن يتهشما تهشم الكرفـس ، أو هكذا بدتا لى ، ومن ثم فـإننى قمت بعمل

وسط بلفها حوله . كان إلباسه السروال أيسر من السترة . حاول نمرود تقديم العون إلا أنه أصيب بغثيان حاد وقضى معظم الوقت يتقئ فى ركن الزنزانة . كان فى الحقيقة متأثرا تأثرا شديدا بكل ماحدث . وظل يردد من بين أسنانه ، «هذا اللوطى العجوز البائس» . إلا أننا نجحنا ، بقليل من الفطنة والحذق ، فى درأ الفضيحة ، حتى سمعنا الهدير الذى لا يخطئه السمع لسيارة وكالة (جلوب) أمام باب النقطة ، وصوت كيتس فى حجرة إدارة أعمال النقطة .

« يجب ألا ننسى إضافة أنه خلال الأيام التالية القليلة ، مات إثنان وأصيب أكثر من عشرين شخصا بتسمم حاد من شرب العرقى ، فى منطقة شارع التتويج ، حتى أنه يمكن القول أن سكوبى قد ترك بصمته فى الجوار . وقد حاولنا معرفة المادة التى كان يقوم بتخميرها وذلك بتحليل الشراب ، إلا أن المحلل الحكومى كف عن المحاولة بعد تحليل عدة عينات . فالله وحده يعلم ما الذى كان يخمره هذا العجوز .

« إلا أن الجنازة ، على الرغم من كل ذلك . كانت ناجحة كل النجاح (فقد دفن بكل مظاهر التكريم الواجبة لضابط قتل أثناء تأديته واجبه) . وقد شارك الكل فى تشييعه . إنه لأمر نادر أن تسمع العويل والتكبير الإسلامى على قبر مسيحى . وكان القس الكاثوليكى المبجل . الأب بول ، منزعجا غاية الإنزعاج ، ربما خوفا من عفاريت إبليس التى استدعاها بالشعوذة ، بذلك العرقى المصنوع فى منزله ـ من يدرى ؟ كما كانت هنالك تلك الأشياء المعتادة الرائعة من أعمال السهو والغفلة التى تميز الحياة هنا (فالقبر صغير للغاية ، وأضرب حفارو القبور عن العمل وهم يقومون بتوسيعه مطالبين بزيادة أجرهم . وانطلقت عربة القنصل اليونانى به حيث ألقته فى أجمة .... الخ الخ) . اعتقد أننى قد وصفت كل هذا فى رسالة كتبتها . لقد حدث كل شىء كما كان يتمناه سكوبى بالتمام ـ أن يدفن مكللا بكل صنوف التكريم بينما فرقة موسيقى الشرطة تعزف نداء النفير الأخير فوق قبره ـ بيد أن العزف كان مهزوزا تطغى عليه ، بصورة قوية ، الحان ربع ـ النغم المصرية . كما كانت هنالك خطب ودموع ! أنت تعرف كيف يطلق الناس عنان أنفسهم فى مثل تلك المناسبات ، حتى يخيل إليك أن الذى مات كان قديسا . وظللت أتذكر جسد المرأة العجوز فى زنزانة نقطة الشرطة !

« ويخبرنى نمرود أن الرجل كان محبوبـا للغاية ، فى وقت ما ، فى الحى الذى يعيش فيه ، إلا أنه بدأ يتدخل ، مؤخرا ، فى شعائر الختان التى تجرى للأطفال ، فغدا مكروهـا للغاية . أنت تعرف كيـف يكون العرب فى مثل تلـك المسائل ! لقد هددوا ، فى الحقيقة ، بتسميمه أكثر من مرة . وسيطرت هذه الأشياء . كما يمكن للمرء أن يفهم ، على خاطره . عاش هنالك سنوات عديدة ، ولم تكن له ، كما أعتقد ، أية حياة أخـرى خاصة به . لقـد حدث هذا لكثير من المغتربين . أليـس كذلك ؟ وحاول الجميع التماس الأعذار له . وكلف أثنان من الكونستبلات لرعايته اثناء تلك الشطحات ، إلا أنه استطاع الإفلات منهما ليلة وفاته .

« ويقول نمـرود (وهو جـاد كل الجدية) أنهم مـا أن يبدأوا فى ارتـداء تلك الملابس ، حتى تكون تلك بداية النهاية . وهذا ماحدث بالفعل . لا تخطئ فهمى، فتأخـذ قولى مـأخذ الثـرثرة . لقـد علمنى الطـب أن النظر إلى الأشيـاء نظرة سـاخرة مجردة ، ومن ثم احتفظ بمشاعرى التى يجب أن تـوجه نحو من أحبهم كحق لهم ، والتى تضيع سدى على من يموت . أو هذا ما أعتقده .

«مـاذا يستطيـع المرء ، رغم كـل شـىء ، أن يفعـل فى الحياة بمنعـرجـاتها والتواءاتها الهائلـة ؟ وأنى لأعجب كيـف للفنان المقدام أن يحاول فـرض نمطه عليها ، بل ويغذيـه بمعانيه الخاصة ؟ (إن هذا السؤال موجـه إليك إلى حدما) . أعتقد أنك ستجيب بأن واجب الربان يملى عليه أن ييسر فهم وادراك ما فى الحياة من ضحالة وأوحـال ، من أفراح وأتراح ، وبذا يمنحنا قـوة التغلب عليها . نعم ، ولكن ....

« أننى اتوقف الليلة عند هذا الحد . لقد أخذت كليا ببغاء العجوز ، كما تكفلت بنفقات جنـازته . ولاتـزال اللوحـة التى رسمتهـا له فـوق أحد أرفـف حجرتها التـى لم تعد تصلح للسكنى . أما الببغاء فإنـه ، كما يبدو ، مايزال يتكلم مقلدا صوت سكوبى . وتقول كليا أنها كثيرا ما تفزع من الأشياء التى يقولها . هل تؤمن بأن روح المرء يمكن أن تسكن جسـد ببغاء أمازونى أخضر لتظل ذكـرى باقية فترة محدودة فى قلب الزمان ؟ اننى أحب التفكير هكذا . إلا أن ذلك قد غدا الآن تاريخا عتيقا » .

* * *

-٩-

كان بومبال كلما أصابه قلق مبرح ، بسبب شيء من الأشياء ، يقول بانجليزيته الطريفة الغريبة « ياإلهى أنا اليوم متحلل متآكل » . ويلوذ بنوبة النقرس ، بما يليق بها من أبهة ، حتى يذكر نفسه بأسلافه النورماندين . كان يحتفظ لهذه المناسبات ، بمقعد ، قديم الطراز ، مرتفع الظهر ، أشبه بمقاعد البلاط ، وقد غطى بالمخمل الأحمر . كان يجلس وقد وضع رجله الملفوفة فى أربطة فوق كرسى خاص بالقدمين ، ويقرأ « مركيور » . ويفكر بعمق فيما قد يوجه إليه من توبيخ وتأنيب ، واحتمال نقله ، بسبب مايقع فيه من زلات ، فى سلوكه الاجتماعى أيا كانت هذه الزلات . كان يعرف أن كل العاملين فى السفارة يتخذون منه موقفا مضادا ، ويعتبرون مسلكه (حيث كثيرا ماكان يشرب الخمر ويطارد النساء) مضيرا بوظيفته . لقد كانوا فى الحقيقة يغارون منه ، فدخله الذى لم يكن بهذا القدر من الكفاية، حتى يحرره من ثقل التزامات الحياة، كان يتيح له حياة تقارب حياة الأمراء ـ إن اعتبرنا تلك الشقة الصغيرة المليئة بالدخان والتى نتقاسمها حياة فخمة .

ادركت اليوم ، وأنا أصعد السلم ، من نبرة صوته البرم المتذمر ، أنه فى حالة التحلل والتفسخ ، فقد كان يقول ، ويكرر القول بطريقة هيستيرية ، « تلك ليست أنباء ، وأنا أمنعك من نشرها » . قابلنى حميد الأعور فى الردهة ، التى كانت تفوح برائحة الطعام المقلى ، وهو يحرك يدا واهنة فى الهواء ، ويقول فى همس ، « لقد غادرت الآنسة الشقة » كان يقصد ميليسا . « ستعود فى السادسة . السيد بومبال ليس فى حالة طيبة » . كان ينطق اسم صديقى خال من حروف المد . كان يقول : بمبل .

لقيت كيتس يجلس معه فى غرفة النوم ، وقد تمدد ، بلا لباقة ، بجسده الكبير الذى يرشح عرقا ، فوق الكنبة . كان يكشر عن أسنانه فى ابتسامة فاترة،

وقد دفع قبعته إلى مؤخرة رأسه . وكان بومبال يجلس على كرسى النقرس وقد كسا التذمر والحزن ملامحه . وتعرفت فى كل هذا ليس فقط على الآثار البغيضة التى يخلفها إسرافه فى الشراب ، ولكن على زلة أخرى إرتكبها أيضا . ما الذى يخبئه كيتس الآن ؟ قلت ، « بومبال ، بحق الشيطان ، ماذا حدث لسيارتك ؟ » أنّ بومبال وقد أمسك بجلد عنقه المتدلى بقوة ، وكأنه يتضرع إلىّ أن أدع كل هذا الموضوع جانبا . كان من الواضح أن كيتس يتحرش به ، مغيظا أياه ، حول نفس الأمر .

كانت السيارة الصغيرة التى تدور المشكلة حولها ، والتى يعتز بها بومبال أشد الاعتزاز ، تقف الآن أمام الباب الأمامى معوجة مهشمة .ابتلع كيتس ريقه فى صوت كالخنخنة وقال مفسرا ، « لقد كانت سفيفا هى السبب . وليس مسموحا لى بنشر الخبر » . أخذ بومبال يئن وكل جسده ينتفض . استرسل كيتس . « إنه لايود اخبارى بحقيقة ماجرى » .وبدأ بومبال يغضب غضبا حقيقيا ، قال ، « هلا تفضلت بالخروج من هنا ؟ » . وقف كيتس الذى كان يجبن دوما أمام كل من يظهر اسمه فى القائمة الدبلوماسية ، وضع دفترة فى جيبه ، محا الابتسامة التى كانت على وجهه . قال ، متلاعبا بالكلام بطريقة واهنة . «حسنا . لكل ، على ما أعتقد ، دائه ونقرسه » . هبط السلم على مهل . جلست قبالة بومبال ، منتظرا أن يهدأ .

أخيرا قال ، « إنها زلة أخرى ياعزيزى . أسوأ زلة فى علاقتى بسفيفا . إنها هى التى ... يالسيارتى البائسة ... هل رأيتها ؟ تحسس هنا هذا الورم فى عنقى.أه ؟ إنه نتاج ضربة من صخرة لعينة » .

طلبت من حميد أن يعد لى القهوة ، بينما أخذ بومبال يروى لى كيف وقع ذلك الحادث السئ مستخدما الإشارات التى تنبئ عن ألمه الشديد . لقد كان أحمقا عندما أقام هذه العلاقة مع سفيفا النارية الملتهبة ، فقد وقعت الآن فى حبه. وأنّ وهو يتلوى فى كرسيه ، « الحب ! »* . ثم اعترف قائلا ، « إننى ضعيف أمام النساء . ياإلهى ، كم كانت سهلة . كانت كشىء حط فى طبقك دون أن تطلبه ـ أو أن الطبق كان طبق غيرك ووضع أمامك من باب الخطأ . لقد دخلت حياتى

(*) بالفرنسية فى الأصل .

كقطعة من البفتيك* ، كباذنجانة محشوة ... ماذا كان علىّ ان أفعل ؟ . «بالأمس كنت أفكر ، وأنا أضع كل شيء فى اعتبارى : عمرها ، حالة أسنانها وهكذا .. فقد تصاب بمرض يحملنى بعض النفقات . كما أننى لا أريد عشيقة دائمة . ولذا قررت أن آخذها إلى مكان هادئ على شاطئ البحيرة وأقول لها ، وداعا . وجن جنونها فقفزت ، فى لمح البصر ، إلى شط النهر ، حيث وجدت كومة هائلة من الأحجار . وقبل أن أعرف ماذا أقول ، انطلقت الأحجار . بيف ، باف ، بانج ، بونج » . كانت إيماءاته بليغة الدلالة . « وامتلأ الجو بالأحجار ، وتحطم لوح الزجاج الأمامى للسيارة . وكذا المصابيح الأمامية . كل شيء تحطم . كنت أجلس قرب جهاز تعشيق التروس أولول ، عندما أحسست بهذه الكتلة الحجرية فى عنقى . لقد جنت تماما . وعندما تهشم كل الزجاج تناولت كتلة صخرية هائلة وأخذت فى تحطيم السيارة وهى تصرخ «الحب ، الحب»* ، مع كل خبطة تدق بها السيارة كالمجنونة . إننى لم أعد أحب سماع هذه الكلمة مرة أخرى . لقد دمرت خزان تبريد السيارة . والتوت جوانبها . هل رأيت ما حل بها ؟ لايمكن أن يصدق المرء أن فتاة تستطيع أن تفعل مثل هذا الفعل . ثم ماذا بعد ؟ سوف أخبرك بما حدث . لقد ألقت بنفسها إلى النهر . تخيل مشاعرى . هى لاتعرف السباحة وأنا كذلك . أية فضيحة ستثور إن ماتت ! والقيت بنفسى وراءها . وأمسكنا ببعضنا البعض وأخذنا فى الصراخ وكأننا زوج من القطط يتعاشران . بالكمية المياه التى ابتلعتها ! جاء أحد رجال الشرطة وسحبنا إلى الخارج ، حرر لنا محضرا طويلا وغير ذلك من الإجراءات . إننى ، فى بساطة . لم أجرؤ على الاتصال هاتفيا بالسفارة هذا الصباح . إن الحياة لاتستحق أن تعاش » .

كان يوشك على البكاء .قال ، « تلك هى فضيحتى الثالثة هذا الشهر . غدا سيكون الكرنفال . فهل تعرف ماذا سأفعل ؟ لقد توصلت إلى فكرة ما ، بعد طول تفكير » . وابتسم ابتسامة جافة ، « يقينا سأكون فى هذا الكرنفال ، وإن شربت حتى الثمالة ، وإن وقعت فى ورطة كما يحدث لى على الدوام . سوف أتنكر بطريقة لايستطيع أحد كشفها » . ثم مصمص أصابعه واستمر قائلا ، « تنكر لن يكتشفه أحد » . ثم تأملنى لحظة ، كأنما يقرر إن كان يضع ثقته فىّ أم لا .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

ويبدو أن تأمله الفاحص لى أرضاه ، إذ استدار فجأة نحو الصوان وقال « هل تحفظ سرى إن أطلعتك على ماعندى ، أه ؟ إننا صديقان ، رغم كل شىء ناولنى القبعة الموجودة فى الرف العلوى . سوف تضحك منها » .

ووجدت داخل الصوان ، قبعة ضخمة عتيقة الطراز كتلك التى يراها المرء فى صور قبعات عام ١٩١٢ . وقد زينتها حزمة من ريش صقر ثبتت إليها بدبوس سميك من دبابيس القبعات ذا رأس كبيرة من حجر أزرق . قلت غير مصدق لما أرى ، « أتقصد هذه ؟» فضحك مغتبطا بذاته وهو يهز رأسه موافقا ،«من ذا الذى سيعرفنى وأنا فى هذه القبعة ؟ هاتها هنا ... » .

ارتداها فبدا مثيرا للضحك حتى اضطررت للجلوس والضحك . لقد ذكرنى بسكوبى وهو يرتدى قبعته « الدولى فاردن » السخيفة الشاذة .

بدا بومبال ، بما فعله هذا الابتكار المضحك بوجهه السمين ، أمرا يصعب تصديقه . اخذ هو أيضا يضحك ويقول ، « رائعة ، أليس كذلك ؟ إن زملائى الملعونين لن يعرفوا أبدا من كانت تلك المرأة السكيرة . ولسوف أخرج القنصل العام ، هذا الخنزير ! عن وقاره بقبلاتى العاطفية الحارة ، إن لم يكن مرتديا عباءة التنكر » . واضطررت ، كما سبق وفعلت مع سكوبى ، أن أتوسل إليه : «استحلفك بالله أن تخلعها ! » .

خلعها بالفعل ، وجلس مكشرا عن أسنانه ، سعيدا ببراعة خطته . كان يفكر فى أن مثل تلك الأعمال الطائشة التى يمكن أن يقوم بها لن تنسب ، على الأقل ، إليه . وأضاف مباهيا ، « إن لدىّ حلة كاملة ، وعليك أن تبحث عنى وأنا متنكر . هل ستفعل ذلك ؟ أنت ذاهب للحفل ، اليس كذلك ؟ لقد سمعت أنه سوف تقام حفلتان راقصتان . وهكذا يمكننا الانتقال من واحدة إلى الأخرى . أه؟ حسنا . إننى أشعر الآن ببعض الراحة ، ألا تحس بذلك أنت أيضا ؟» .

إلا أن متعة بومبال القاتلة ، هى التى قادت مباشرة إلى موت توتو دى برونل الغامض فى منزل آل سيرفونى ، فى الليلة التالية ـ تلك الميتة التى إعتقدت جوستين أنه كان يقصدها هى بها ... والتى أعتقد أنا ... إلا أنه يتوجب علىّ أن أعود مرة أخرى إلى تعليقات وحواشى بلتازار .

ويكتب بلتازار ، « هنالك مسألة مفتاح الساعة ، ذلك المفتاح الذى ساعدتنى

فى البحث عنه فى فجوات شارع الكورنيش الكبير فى ذلك اليوم الشتوى ـ والذى أعيد إلىّ بطريقة غريبة . لقد توقفت ساعتى ، كما تعرف ، وكان علىّ أن أوصى بصناعة مفتاح آخر ، صغير وذهبى ، على صورة عنخ رمز الحياة عند قدماء المصريين . إلا أن المفتاح أعيد إلىّ ، فى تلك الفترة ، فى ظروف غريبة. لقد جاءت جوستين ، ذات يوم ، إلى عيادتى وقبلتنى فى حرارة ، ثم أخرجت المفتاح من حقيبة يدها وسألتنى وهى تبتسم ، «هل تعرف هذا ؟ إننى آسفة لقلقك يا عزيزى بلتازار إنها، المرة الأولى فى حياتى التى اضطررت فيها للعمل كنشالة . إذ هنالك خزينة فى حائط ، كنت مصممة على فتحها . وبدا مفتاحك ، للوهلة الأولى ، مماثلا لمفتاحها ، فأردت أن أرى قدرته على القيام بالمهمة . كنت أنتوى إرجاعه صباح اليوم التالى قبل أن تكتشف ضياعه ويصيبك القلق ، إلا أننى اكتشفت أن أحدهم قد أخذه من طاولة زينتى . انك لن تخبر أحدا بما أقول . وفكرت ، ربما يكون نسيم نفسه قد رآه فشك فى دوافعى ، ومن ثم استولى عليه حتى يجربه فى قفل الخزينة بنفسه . إلا أن المفتاح ، لحسن الحظ (أو لسوئه) ، لم يكن مناسبا. لم أستطع فتح الخزينة ، إلا أننى لم أثر ضجة لا داع لها ، حول المفتاح ، خشية أن يكون نسيم لم يره بالفعل . لم أرغب فى جذب انتباهه إلى وجوده وتماثله مع مفتاحه . وسألت فاطمة بطريقة متحفظة ، كما بحثت عنه فى علبة مجوهراتى ، دون جدوى. ومر يومان وجاءنى به نسيم نفسه ، وقال لى ، أنه قد عثر عليه فى علبة أزرار قمصانه . لقد لاحظ تشابهه ومفتاحه ، إلا أنه لم يذكر شيئا عن الخزينة . لقد طلب منى ، فى بساطة ، أن أعيده إليك مرة أخرى ، وها انذا أفعل ، مع اعتذارى الصادق عن التأخير ».

« لقد تضايقت بالطبع ، وأخبرتها بذلك ، وسألتها ، «لماذا ، على أى حال ، تودين دس أنفك فى خزينة نسيم الخاصة ؟ إن الأمر هكذا منافٍ لسلوكك العادى ، ويجب علىّ أن أقول لك أننى أشعر نحوك بقدر كبير من الإزدراء بعد أن عاملك نسيم بهذه الطريقة ! »فنكست رأسها وهى تقول ،« لقد كان يحدونى الأمل، أن أجد شيئا عن الطفلة ـ شيئا ، أعتقد أن نسيم يخفيه عنى » .

* * *

- ١٠ -

ويكتب بلتازار ، « اعتقد أنك لو أردت الآن أن تدمج كل ما أحدثك به فى مخطوطك (جوستين) ، على نحو ما ، فإنك سوف تجد نفسك أمام نوع غريب من الكتب . رواية يمكن أن تكون ، إن جاز القول ، مكتوبة فى طبقات ، ربما ، دون قصد منى ، أكون قد زودتك بشكل جديد للكتابة ، شكل غير مألوف . شكل يماثل فكرة بوربسواردن عن سلسلة من الروايات ذات «اللوحات المنزلقة»، كما كان يسميها . أو ربما يكون هذا الشكل أشبه ببعض صحائف العصور الوسطى ، والتى خطت عليها أنواع مختلفة من الحقيقة فوق بعضها البعض ، فتطمس الواحدة منها الأخرى أو ربما تتمها . إن الرهبان المجتهدين يمحون مرثية ما ، ليفسحوا مكانا لآيه من الكتاب المقدس .

« إننى لا أعتقد أن مثل هذا القياس يمكن أن يكون تشبيها رديئا حين نطبقه على واقع الإسكندرية ، المدينة المقدسة المبتذلة ، فى ذات الوقت ، والتى يتنقل فيها المرء ما بين ثيوقراط وأفلاطون والترجمة السبعينية اليونانية للتوراة ، خلال مستويات وسيطة من سلالات متعددة ، تعدد كل الأشياء ، كأن تقول قبطى يونانى ويهودى أو مسلم ، تركى وأرمينى . هل ترانى مخطأ فيما أقول ؟ تلك هى التراكمات البطيئة للزمان ذاته فوق المكان . تماما كما تنحت الحياة آثارها فوق الإنسان ، بصورة متتالية ، لمسة بعد لمسة ، حتى أن المرء لايستطيع أن يميز على الاطلاق تجعيدات الخبرة التى مر بها الإنسان ، إن أفراحا أو أتراحا ، آثار الخبرة فوق رمال الحياة » .

هكذا يكتب صديقى ، وهو محق فيما يكتب ، فالحواشى والتعليقات تطرح الآن علىّ مشكلة أكثر بكثير من مشكلة « حقيقة الحياة » الموضوعية ، أو إن شئت « حقيقة الخيال ». إنها تطرح ، كما تطرح الحياة ذاتها ، سواء صنعها الإنسان أو تقبلها كما هى ـ أصعب وأشق المشاكل ، مشكلة الشكل . كيف

يمكن لى إذن أن اعالج بمهارة هذا الكم من المعلومات المتبلورة حتى استطيع استخراج معانيها ، وبذا أقدم صورة متماسكة لهذه المدينة المستحيلة ، مدينة الحب والفسق ؟

كم أود معرفة ذلك ، كم أود معرفة ذلك . لقد كشفت لى هذه الحواشى والتعليقات عن كثير من الأمور حتى أننى أحس وكأنى أقف على مشارف كتاب جديد ـ اسكندرية جديدة. إن الصورة المجملة التى رسمتها لها ، والتى أدخلت فى تلافيفها أسماء ممثيلها ـ كفافى ، الاسكندر ، كليوباترة والباقيين ـ كانت صورة ذاتية . لقد رسمت الصورة وكأنها ملكى الخاص الذى أغار عليه . كانت حقيقية فقط فى حدود ادراك جزئى ، للحقيقة . والآن ماذا علىّ أن أفعل فى ضوء كل هذه الكنوز الجديدة . والتى هى فى الحقيقة كنوز رغم كونها ، كالحب ، لاتعرف الرحمة ؟ هل أبسط حدود الحقيقة الأصلية ، مالئا هذا الإتساع بمكونات تلك المعرفة الجديدة كأساس أشيد عليه اسكندرية جديدة ؟ أم هل تظل الأمزجة والطبائع كما هى ، وكذا الشخصيات ، وتكون الحقيقة وحدها هى التى تغيرت إلى نقيضها ؟

عشت طوال هذا الربيع فى جزيرتى الموحشة تحت ثقل هذه المعلومات العجيبة ، والتى بدلت مشاعرى نحو الأشياء ، حتى ماكان منها فى الماضى، بطريقة غريبة للغاية . هل يمكن مراجعة المشاعر وإعادة الحكم عليها بأثر رجعى؟

لقد بنيت الكثير ، مما كتبت ، على أساس مخاوف جوستين من نسيم ـ وهى مخاوف حقيقية عبرت عن نفسها تعبيرا صادقا . لقد رأيت بعينى تلك الغيرة الباردة الخرساء مرسومة على وجهه ـ ورأيت الخوف مرسوما على وجهها . ويأتى بلتازار الآن ليقول أن نسيم ما كان ليوقع بها الأذى ، بأى حال من الأحوال . من أصدق ؟

كنا كثيرا ما نتمشى معا نحن الأربعة ، كنت أجلس هنالك صامتا تسكرنى ذكرى قبلاتها ، مقتنعا (كما أخبرتنى هى) بأن وجود الرابع . وهو بورسواردن ، سوف يهدهد غيرة نسيم ، ويقدم لنا غطاء آمنا ! ومع ذلك فإن كان علىّ أن أصدق ما يقوله بلتازار الآن ، فقد كنت أنا ذلك الطعم الخادع (هل

اتذكر ، أم كان ذلك من فعل الخيال ، ظهور ابتسامة صغيرة ، من وقت لآخر ، فى ركن فم بورسواردن ، ابتسامة ربما كانت تهكيمة وربما كانت تبعث الرعب ؟) . كنت اعتقد حينذاك أننى أحتمى وراء وجـود الكاتب ، بينما كان هو فى الحقيقة الذى يختفـى وراء وجودى ! . إن مايحول بينى وبين تصـديق ذلك هـو ... هو ماذا ؟ نوع القبلة من شفاه تهمهم بكلمـة « أحبك » ، بينما تسلم جسدها نفسه للهلاك . ذلك صحيح بالطبع ، بالطبع . فـأنا خبير بالحب ـ وكل رجل يعتقد أنه كذلك ، وخاصـة الرجل الانجليزى . هل يتحتم أن أؤمن بالقبلـة أكثر مما أؤمن بما يقرره صديقى ؟ هذا محال فبلتازار لايكذب ...

هل الحب بطبيعته المجردة ، نـوع من العمى ؟ بالطبع . لقد اشحـت بوجهى عن فكـرة احتمال خيانة جوستين عنـدما كانـت ملكالى ـ ومن ذا الـذى لايفعل ذلك؟ لقد كان القبول بهذه الحقيقة أمرا مـؤلما للغاية ، رغم أنى كنت أدرك تماما فى أعماق قلبـى ، أنها لن تخلـص لى إلى الأبـد. وإن تجاسرت وهمست لنفسـى بالفكـرة ، كنت للتو أضيـف ، شـأنـى فى ذلك شـأن كـل زوج وحبيب ، « إلا أنها مهما فعلت ، فإننـى بالطبع الرجـل الذى تحب حبا حقيقيا ! » . إنها المغـالطات التى نتعزى بها ـ إنها الأكاذيب التى تبقى على الحب .

لم تقدم لى جوستين ، فى يوم مـن الأيام ، سببا مباشرا يدعونـى للشك فيها. اننـى اتذكـر ، على أى حال ، منـاسبة هبـت فيهـا أنفاس مـن الشك واهنـة فى بورسواردن . إلا أنها أخمدت لتوها . كان خارجا ، ذات يوم ، من المرسم ، يتجه نحونـا ، وعلى فمه بعض من أحمر الشفـاه . إلا أننى رأيت ، للتـو ، سيجارة فى يده. كـان واضحا أنه قـد التقط واحدة مـن سجائر جوستين التـى تتركها، فى المنفضة ، مشتعلة (وهـى من عاداتها المألوفة) . كـان طرف السيجارة أحمرا . إن كل ماله علاقة بالحب يمكن تأويله فى يسر وسهولة .

إن الحواشى والتعليقات المزعجـة والمشحونة بتلك الشكـوك ، تضغط ، هنا وهناك ، كـأصبع فظ فوق أمـاكن كلها رضـوض وكدمات . لقد بـدأت نسخها جميعا ، بـلا استثناء ، فى بطء وألم . لا لأتعرف ، فقـط ، بصورة أكثر وضـوحا على مواضع الاختلاف عن رؤيتى الحقيقيـة ، ولكن ، لأنظر إليها أيضا ، ككيان مستقل ـــ كمخطوط له حـق وجوده الخاص ، كرؤيـة محددة لعين أخرى رأت

نفس الأحداث التى أوّلتها أنا بطريقتى الخاصة . هل فاتنى الكثير حقا مما كان يدور حولى ـ دلالات الابتسامات والإيماءات والكلمات العابرة ، والرسائل التى خطها أصبع بخمر أريقت فوق المائدة أوعناوين مطوية كتبت على أركان أوراق الصحف ؟ هل يتوجب علىّ مراجعة خبرتى الخاصة حتى أصل إلى قلب الحقيقة؟ إن بورسواردن يكتب ، « ليس للحقيقة قلب . الحقيقة امرأة ، وذاك سبب غموضها . إن أكثر ما يمكننا قوله عن النساء ، باعتبار أننا لسنا فرنسيين، انهن حيوانات حفارة » .

لقد أخطأت ، طبقا لما جاء فى تعليقات بلتازار ، تفسير مخاوف جوستين التى لها علاقة بنسيم . هنالك حادثة السيارة التى ذكرتها فى مكان آخر ، وكيف كانت تسرع بها نحو القاهرة ، ذات ليلة لتقابل بورسواردن ، ثم انطفأت أنوار الرولز الفخيمة الكابية اللون. فقدت السيطرة عليها وقد أعماها الظلام فجنحت خارج الطريق تقفز ككرة فوق كثبان الرمال التى كانت تندفع إلى أعلى فى نفثات أشبه بالرذاذ الذى يقذفه حوت يعانى آلام الموت المبرحة . ثم دفنت نفسها فى واحدة من الكثبان حتى زجاجها الواقى ، وهى تصفر كما يصفر السهم المنطلق . ثم رقدت هناك تهمهم وتنتفض . ولحسن الحظ لم يصب جوستين ضرر ما . كان لها من حضور البديهة ما جعلها تطفئ ماكينة السيارة . ولكن كيف وقعت الحادثة ؟ لقد اخبرتنى جوستين ، عندما حدثتنى عنها ، أنه عند فحص السيارة وجد أن اسلاكها قد بردت بمبرد ـ من الذى فعل ذلك ؟ .

كانت هذه هى المرة الأولى ، فى حدود ما أعلم ، التى أفصحت فيها عن مخاوفها من نسيم ، واحتمال قيامه بمحاولة تمس حياتها . نعم ، لقد تحدثت من قبل عن غيرته ، لكنها لم تتحدث عن شىء كهذا ـ شىء له هذا الطابع السكندرى الأصيل . أما ما أصابنى من فزع فذلك أمر يمكن لاى إمرئ أن يتخيله .

ومع ذلك ، يأتينى الآن بلتازار ليقول فى تعليقاته وحواشيه ان جوستين قد رأت سليم ، قبل الحادثة بأيام عشر ، من نافذة المرسم ، وهو يعبر المرج الأخضر نحو السيارة ، ثم يرفع غطاء المحرك ، وهو يعتقد أن أحدا لايراه ، ليأخذ من تحته بكرة شمعية ،اعتقدت هى حينذاك انها جزء من جهاز التسجيل الذى غالبا

مايستخدمه نسيم فى مكتبه . ثم قام بلفها فى قطعة قماش وحملها إلى داخل المنزل . وجلست فترة طويلة عند النافذة تدخن ، مستغرقة فى التفكير ، قبل أن تقدم على فعل أى شىء . ثم قادت السيارة إلى الطريق الصحراوى ، إلى منطقة منعزلة ، حيث يمكن فحصها على نحو أفضل . ووجدت تحت غطاء المحرك جهازا صغيرا لم تتعرف عليه ، إلا أنه بدا لها أشبه بآلة تسجيل . وكان هنالك احتمال وجود سلك فى الرصاص ، يوصل هذه الآلة بمكبر صوت صغير مدفون فى مكان ما وسط اللفات الملونة لأسلاك لوحة أجهزة القياس بالسيارة ، إلا أنها لم تستطع تتبعه . فقامت بقطع السلك فى أماكن مختلفة ، مستخدمة مبرد أظافرها ، بينما تركت الآلة بكاملها فى موضعها ، وكأنها ماتزال تعمل . والآن ، طبقا لبلتازار ، فإنها لابد قد أصابت ، عن طريق الصدفة ، أو قطعت ، حتى المنتصف ، أحد أسلاك الرصاص الذى يوصل إلى الضوء الأمامى للسيارة . إن ذلك ، على الأقل ، هو ما قالته له رغم أنها لم تقدم لى مثل هذا الإيضاح والتفسير. وإن كان علىّ أن أصدق مايقوله بلتازار ، عما حدث طوال ذاك الوقت ، فإنها بينما كانت تتحدث وتتحدث عن حماقة وطيش سلوكنا أمام الناس ، والمخاطر التى نقدم عليها ، كانت فى الحقيقة تجرنى ، تسحبنى أمام عينى نسيم كالوشاح أمام الثور !

إلا أن ذلك كان فى البداية فقط ، إذ حدث ، فيما بعد ، كما يقول صديقى ماجعلها تشعر بحق أن زوجها يدبر لها شيئا : كان ذلك بالتحديد هو مقتل توتو دى برونيل خلال الكرنفال الراقص فى منزل آل سيرفونى . لماذا لم أذكر هذا الحدث من قبل ؟ لقد كنت ، فى الحقيقة ، هنالك فى ذلك الوقت ، ومع ذلك فإن الحادثة فى مجملها قد غابت ، بصورة ما ، أمام ضغط أمور أخرى ، رغم إنتمائها إلى الأجواء السائدة حينذاك . لقد وقعت فى الا سكندرية ، فى ذلك الوقت ، كثير من مثل تلك الأحداث الغامضة التى لا حل لها . ومع أنى عرفت تأويل جوستين للحادث إلا أننى لم أذكره بصورة عابرة . بالطبع ، قدم لى التفسير الحقيقى لهذا الحادث بعد وقوعه بعدة شهور . عندما أوشكت ، تقريبا على مغادرة الاسكندرية إلى الأبد ، كما ظننت .

إن الكرنفال فى الاسكندرية حدث اجتماعى خالص ـ ولا علاقة زمنية بينه

وبين احتفالات المدينة الدينية . وقد نشأ ، فيما أعتقد ، فى هذا المكان على يد ثلاث أو أربع عائلات كاثوليكية كبيرة ـ ربما لأنه أمدهم بمتعة الإحساس بانتمائهم إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط ، إلى فينيسيا وأثينا . واليوم ، لاتوجد ، على أى حال ، عائلة ثرية واحدة ، لا تحتفظ بصوان ملئ بملابس الدومينو المخملية التى تستخدم خلال تلك الأيام الثلاثة من النزق والحماقة ـ سواء كانت هذه العائلة قبطية أم مسلمة أم يهودية ـ ويأتى هذا الكرنفال ، فى الأهمية ، بعد ليلة رأس السنة كأكبر احتفال مسيحى خلال العام ـ ويسيطر التنكر على أيامه ولياليه الثلاث : التنكر الذى يمنحه الدومينو المخملى الذى يحجب الهوية والجنس ، يمنع من التميز بين الرجل والمرأة ، الزوجة والعشيقة ، الصديق والعدو.

انطلقت وقحة أعمال المجون والضلال فى حماية سادة الفوضى الذين ترأسوا احتفالات هذا الموسم . ما أن هبط الليل حتى بدأ المقنعون فى الظهور فى الشوارع ـ أفرادا ثم أزواجا ثم فى مجموعات صغيرة يحملون فى الغالب الآلات الموسيقية والطبول ، يضحكون ويغنون وهم فى طريقهم إلى واحد من البيوتات الكبيرة أو الأندية الليلية حيث يستحم الهواء البارد فى دفء موسيقى الجاز الزنجى ـ ذلك النخر المتخمم بمزيج الساكسفون والطبول . كانوا ينطلقون من كل مكان ، فى ضوء القمر الشاحب ، أشبه برهبان يرتدون القلنسوات . كان التنكر الذى يضفى عليهم تماثلا خارجيا يتسم بالكآبة والتعصب ، يروع المصريين ذوى الجلاليب البيضاء ويملؤهم فزعا ـ إن رعشة الخوف تضيف طعما كالتوابل إلى الضحك الوحشى المنهمر فى المنازل ، تحمله نسمات الشاطئ إلى المقاهى التى فى مواجهة البحر ، بهجة تبدو بصخبها وضجيجها وكأنها ترتعش على حافة الجنون .

ويتسلق المنازل فى بطء ، قمر الربيع المائل إلى الزرقة ، ينزلق فوق المنائر إلى أشجار النخيل وهى تقرقع وتطقطق . كاشفا المدينة تتمطى كحيوان خارج من بياته الشتوى ، وقد أخذت تنهل من موسيقى أيام المهرجان الثلاث .

يقول المثل ، « العاشق يخشى الكرنفال » . ويقظه مشوبة بالرقة تجتاح الجميع بعد ظهور تلك الكائنات الليلية المتلفعة بملابس سوداء فى كل مكان .

وتنشط حرارة الحياة كلها فى المدينة ، فيتنامى الدفء بايماءات مقدم الربيع الغامضة . الكارنفال تحية وداع لجسد العام الذى مضى ، يخلع عن نفسه أكفان مومياء الجنس ، يخلع هويته واسمه ، ويخطو عاريا يستقبل الحلم الآتى.

فتحت كل البيوتات الكبيرة أبوابها على مصراعيها لتظهر محتوياتها التى تفوق الخيال ، تدفئها النيران التى تحف أضواؤها بالخزفيات الصينية أو المصنوعات الرخامية والنحاسية ووجوه الخدم السوداء كالرصاص وهم يقومون بأداء واجباتهم . وربضت فى غبشة ضوء القمر سيارات السماسرة ، رموزا صامتة شديدة الوقع على النفس ، لثروة أعجز من أن تجلب لصاحبها الراحة وهدوء البال الحقيقيين . إنها تكلف صاحبها كل ما فى نفسه وروحه . وتقبع السيارات فى شباك الضوء الشتوى ، تعكس صمت كل الآلات ، التى تتربص سقوط الإنسان ، وقوتها ، تتفرج على المقنعين فى غدوهم ورواحهم أمام النوافذ المضاءة فى البيوتات الكبيرة ، وقد أمسك كل منهم بالآخر كالدببة السوداء ، يرقصون على نبض وزفرات الموسيقى الزنجية ـ عزاء الرجل الأبيض وسلواه .

كانت بعض لمحات الموسيقى والضحكات ، لابد وأن تصعد إلى نافذة كليا ، حيث كانت تجلس واضعة على ركبتيها لوحا وقد أخذت ترسم فى أناة ، بينما هرتها الصغيرة ترقد نائمة فى سلتها ، عند قدميها . البعض يضرب أوتار الجيتار أثناء فترة هدوء مفاجئ ، فتعلو الأنغام ، تتمرغ فى ظلام الشارع حتى تلتقى بأغنية آتية من بعد كأنها قادمة من قاع بئر ، وترتفع صرخات ونداءات تطلب العون والنجدة .

لكن الدومينو المخملى يطبع الكرنفال بروح الخبث والشر الخالص ـ مضيفا على لابسيه ذلك التنكر الذى يبتغيه كل إنسان ، فى اعماقه ، أكثر من كل شىء سواه . المرء فيه مجهول ، بين جمع من المجهولين ، لا يكشف عن جنسه ولا صلاته ولا تعابير وجهه ـ والقناع الذى يرتديه ينتمى إلى لباس الرهبان الكاثوليك مرضى العقول ، لايبين منه غير عينين متوهجتين كعينى امرأة مسلمة أو عينى دب من الدببة . ولا شىء آخر يميز المرء ، فطيات الرداء الأسود السميك

تخفى حتى تقاطيع الجسد . ويغدو كل امرئ بلا إرادف ، لا صدر ولا وجه. وتختفى تحت رداء الكرنفال جرائيم شيء ما (كما تختفى رغبة المجرم فى قلبه، أو إغراء يستحيل مقاومته ، أو نزوة مخطوطة فى لوح القضاء والقدر) : جرثومة حرية لايجرؤ الإنسان على تخيل امتلاكها ، حرية ممارسة مايشاء دون حظر أو منع . إن الجرائم الوحشية واغلب المآسى النابعة من الجهل بهوية المتنكر هى ثمار هذا الكرنفال السنوى ، بينما أغلب العلاقات الغرامية تبدأ أو تنتهى خلال تلك الأيام والليالى الثلاث ، والتى نتخلص فيها من قيودنا وعبودية شخصياتنا . إننا ما أن ندخل هذه القلانس والبرانس المخملية حتى تفقد الزوجة زوجها والزوج زوجته والحبيب حبيبته ، وتغشى الجو سموم الثارات والحماقات ، وحمى المعارك . والبحث المعذب طوال الليل والاحباطات ، وأنت لاتدرى ، مع من ترقص ، رجل أم امرأة . تيارات « إيروس »[1] المظلمة ، تقتضى سرية مطلقة ، إن كان لها أن تفيض على النفس البشرية ، تتفجر فى الكارنفال كشئ طال احتجازه ، فتطلق أشكالا من مخلوقات بدائية غريبة ـ اشكالا تثير اعتقادك بانتمائها إلى عالم إبليس (كضلالات اعتقد أنها علة النفس) . إن « ساتير »[2] المستتر والحورية الوالهة يكتشفان ، مرة أخرى ، بعضهما البعض ويتحدان معا . من ذا الذى يستطيع حقا ألا يحب الكرنفال وهو مجال تسديد كل الديون والتكفير عن الجرائم أو ارتكابها . واشباع كل الرغبات المحرمة ـ دون إحساس بالذنب أو التفكير العمد ، ودون أن توقع عليه العقوبات التى يفرضها الضمير أو المجتمع .

لكننى مخطئ فى أمر واحد ـ هنالك علاقة واحدة مميزة يمكن أن يتعرف بها عليك صديقك أو عدوك ـ إنها يداك . إن يدىّ حبيبتك ، ان كنت قد لاحظتهما من قبل ، سوف يقودانك إليها مهما كان زحام المقنعين كثيفا ، أو تتفق معها على لبس خاتم معروف لديك ، كما تفعل جوستين التى تلبس فى سبابتها اليمنى خاتما من عاج ، عليه نقش محفور ، مأخوذ من مقبرة شاب بيزنطى . ذلك كل ما يمكن عمله ، وفاءً بالغرض . (أدعو الله ألا تكون سئ الحظ « كأماريل » الذى

---

(١) إله الحب الجنسى عند الإغريق (المترجم)

(٢) إله صغير نصفه الأعلى بشر ونصفه الأسفل ماعز (المترجم) .

عثر على المرأة الكاملة أثناء الكرنفال ، لكنه عجز عن إقناعها برفع قناعها والكشف عن شخصيتها . لقد ظلا يتحدثان طوال الليل وهما راقدان فوق الحشائش قرب النافورة ، يتبادلان الحب لمسات من وجهيهما المغطيين بالمخمل، وعيناهما تتناغيان . ومضى عليه حتى الآن عام وهو يجوب المدينة كالمجنون بحثا عن يدين تماثلان يدى محبوبته ، فالأيدى شديدة التشابه . لقد أقسمت له تلك المرأة أن تعود إليه فى العام التالى ، فى نفس المكان تلبس نفس الخاتم ذى الفص الأصفر الصغير . إنه ينتظر الليلة ، ينتفض انفعالا ، هاتين اليدين قرب بركة الزنابق ـ يدان ربما لن يظهرا البتة فى حياته مرة أخرى . ربما كانت المرأة التى أحبها جنية أو مصاصة دماء ـــ من يدرى حقيقتها ؟ ومع ذلك ، ربما يعثر عليها بعد سنوات أخر ، فى كتاب أخر . لكن ليس هنا ، ليس فى هذه الصفحات التى تداخلت فيها وتشابكت وتعقدت قصص الحب سيئة الطالع ....) .

وهكذا تسير فى الشوارع المظلمة ، وادعا كقاتل مجهول ، وقد أخفت القلنسوة السوداء كل آثارك ، تحس هواء الشتاء الندىّ على جفونك . والمصريون الذين تعبرهم ينظرون إليك فى ريبة ، لا يدرون أيبتسمون لمظهرك أم يحسون الخوف . إنهم ، عندما يأتى الكرنفال ، يرفوفون فى مواضعهم فى حالة عقلية وسطية ـ حائرين كيف يتعاملون معه . وتنظر إليهم ، وأنت تمر بهم، نظرات مشتعلة صادرة من أعماق قلنسوتك ، تحس السعادة وهم يجفلون ويشيحون بوجوههم . ويخرج لابسو الدومينو أمثالك من كل ركن . البعض فى مجموعات تضحك وتغنى وهى فى طريقها إلى واحد من البيوتات الكبيرة أو النوادى الليلية القريبة .

وتتذكر وأنت تسير هكذا ، نحو بيت آل سيرفونى ، عبر شبكة الشوارع . مارا بالبطريركية اليونانية ، كرنفالات أخرى ، فى مدن أخرى ، تتميز بنفس الوحشية والمرح اللذين يضفيهما فقدان الهوية. تتذكر مغامرات غريبة وقعت لك ذات يوم، تتذكر العام الذى مضى وأنت فى ركن من شارع بارتو ، وصوت أقدام تهرع وصراخ ، ورجل يضع خنجرا فوق عنقك وهو يصيح كحيوان جريح . «هيلين ، أقسم أنى قاتلك ، إن حاولت الهرب الليلة .. » إلا أن الكلمات تموت عندما ترفع القناع وتكشف عن وجهك ، فيتمتم معتذرا وهو يسير مبتعدا، لكنه

ينفجر منتحبا وهو يلقى بنفسه فوق حاجز حديدى . لقد اختفت هيلين وسيقضى طوال الليل يبحث عنها .

بوابة فناء تضيؤها مصابيح الشارع الواهنة ، فتضفى عليها ظلالا موحشة، وشخصان يشتبكان أمامها فى عراك صامت غاضب عنيف . إنها يسقطان يتدحرجان من الظلام إلى النور ثم إلى الظلام مرة أخرى دون أن ينطقا ببنت شفة . وأمام ملهى « الايتوال » رجل معلق على عارضة ، محطم الرقبة ، لكنك ما أن تقترب منه بما يكفى لتتعرف عليه ، حتى تجده مجرد دومينو أسود يتدلى من مسمار . أليس غريبا أن يتنكر المرء اختيارا كى يتحرر من شعوره بالإثم ، فى راء يرمز تحديدا إلى محققى محاكم التفتيش ، قلنسوة وبرنس محاكم التفتيش الأسبانية .

لكن الجميع لايرتدى الدومينو ـ فعديد من الناس يتشاءم من هذا الزى ، كما أنه ، بالإضافة إلى ذلك ، يمكن أن يكون حارا فى الحجرات المزدحمة . ولذا سوف ترى الكثيرين وأنت تسير فى شوارع المدينة وقد ارتدوا ملابس متعددة الألوان كلباس المهرجين أو راعيات الغنم أو لباس انطونيو وكليوباترا أو الاسكندر . وما أن تستدير لتدخل البوابات الحديدية الكبيرة لمنزل آل سيرفونى، وتبرز بطاقة الدعوة الموجهة اليك ، وتصعد إلى الدفء والضوء والمسكرات فى الداخل ، حتى ترى فى الظلام معالم من تحب ومن تخاف ومعالم الأصدقاء الذين تأنس إليهم وقد تشوهت كالمضحكين والمهرجين أو تدثروا بالأردية والقلانس السوداء ، وقد انغمسوا بطريقة شيطانية فى مسرة عشوائية نادرة . وانفجرت الضحكات ، كاشياء مضغوطة ، مندفعة إلى السقف أو أى مكان آخر ، اشبه بريش لحاف ممزق يتطاير ، فى كتل ، فى هذا الجو المحموم . وأخذت الفرقتان الموسيقيتان الوتريتان تعزفان موسيقى الجاز المجنونة فى إيقاعات قصيرة مترنحة ، كأنها ضربات مضخة هوائية رتيبة ، تكاد تضيع فى زحام الأصوات البشرية . وأنهرست تحت الأقدام ، فى قاعة الرقص ، ملايين الزمامير والأبواق . وساهم صوت تهشمها فى تشويه الأنغام الموسيقية ، بينما تدلت البيارق الورقية الملونة ، من أكتاف الراقصين ، تتأرجح تأرجح الأعشاب البحرية ، فى المناطق الحارة ، فوق سطح الصخور ، كما تتساقط فوق الأرضية

المصقولة ، تتشابك وتُسحب مع حركة كعوب الأقدام .

فى تلك الليلة التى يدور الكلام حولها ، أول ليلة فى الكرنفال ، كان هنالك حفل عشاء فى المنزل الكبير ، وملابس الدومينو موضوعة فوق الأرائك الطويلة فى البهو فى انتظار لابسيها . وضوء الشموع يلقى بظلاله فوق وجهى جوستين ونسيم اللذين بديا وكأنهما موضوعان فى إطارين كباقى اللوحات المصفوفة على جدران حجرة الطعام القبيحة ، وإن كان لها مهابتها وجلالها . كانت اللوحات الزيتية تضاهى الوجوه الآدمية الحية التى ارتسمت عليها خطوط سقم النفس وأشجانها ، وقد تجمعت كلها لتكون وحدة واحدة فى ضوء الشموع اللامع الكلاسيكى . وتوجهت جوستين ونسيم معا ، بعد العشاء إلى الحفلة الراقصة فى دار آل سيرفونى ،كما يحدث كل عام . واعتذر ناروز ، كالعادة أيضا ، عن الحضور فى اللحظة الأخيرة . كان يصل ، فى الوقت المناسب ، والساعة تدق العاشرة ، ليرتدى الدومينو قبل أن تنطلق الجماعة ، تضحك وتثرثر ، وهى فى طريقها إلى الحفلة الراقصة .

فضل أن يحضر إلى المدينة ، كما يفعل دوما ، ممتطيا جواده حيث ربطه عند نجار صديقه . كان يرتدى بذة قديمة زرقاء من صوف متين ، مجاراة لهذا الحدث . كان يتخبط داخلها وقد عقد ربطة العنق . لم يكن عليه حرج، فى نهاية الأمر ان كان لباسه عاديا وغير رسمى ، طالما سيرتدى الدومينو — وسار فى سرعة وخفة عبر الحى العربى ، ردئ الإضاءة ، ينهل المناظر والأصوات التى يألفها ، ومع ذلك يحس الشغف لرؤية المقنعين عندما بلغ نهاية شارع فؤاد وقد وجد نفسه على أطراف المدينة الحديثة .

وقفت مجموعة من النسوة ، عند أحد النواصى ، يثرثرن فى صخب وقد ارتدين الدومينو وانتوين ارتكاب كل حماقة وخيانة . واستنتج من لغتهن ولهجتهن ، أنهن من نساء المجتمع اليونانيات . كن يمسكن ، وهن أشبه بطائر العقاب الخطاف ، بكل عابر يسخرن منه بالنكات محاولات كشف قناعه إن كان مقنعا . وكان على ناروز أن يواجه هذا التحدى , أمسكت إحداهن بيده متظاهرة بقراءة كفة تنبؤه عن مصيره . وهمست أخرى فى أذنه بعرض بالعربية وقد أراحت يده فوق فخذها ، وقوقت ثالثة كدجاجة وهى تصيح . « إن لزوجتك

عشيقا » . وغير ذلك من الفعال التى تتسم بـاللؤم والقسوة . وما كان فى وسعه التكهن إن كن يعرفنه أم لا .

تراجع نـاروز وانتفض ، وابتسم وهو يخترق جمعهن ، يدفعهـن بعيدا عنه بطريقة مهذبة وهو يزأر ضاحكا من النكتة التى قيلت عن زوجته ، وصاح فيهن بالعربية فى صوت أجش ، « ليس الليلة ، يـايماماتى » . وعندما أحس بهن يملن إلى اقتناصه ، انطلق يعدو ، وأنطلقن خلفه يطاردنه لمسافة قصيرة ، فى الشارع الطويل المظلم ، وهن يضحكن ويصرخن بكلام لاتربطه رابطة ، لكنه استطاع أن يسبقهن ، فى سهولة ، واستدار عند زاوية الشارع إلى المنزل الكبير .

كان مايزال يبتسـم وإن كان يلهث بعض الشىء ، وقد أحـس بالرضا لهذه الملاطفات المقلقة والتى بدت استهلالا طيبا لمتع هذه الأمسية . ووقعت عيناه ، فى صمت البهو ، على أردية الـدومينو السوداء ، فارتدى إحداهـا قبل أن يفتح باب قاعة الاستقبال التـى كان يسمع أصوات من بداخلهـا . وأخفى رداؤه التنكرى بذته الرثة زرية المنظر ، وقد تدلت القلنسوة على كتفيه .

كان الجميـع هنالـك ، يجلسون حول النـار ، فى انتظاره ، وتلقـى صرخات ترحابهم فى شوق وجدية ، ثم أخـذ يحييهم بادءا بتقبيل جوستين على وجنتها ، ثم صافح الباقين وقد خيم عليهم صمـت مربك ثقيل . ووضـع ناروز على وجهه تعبير صفاء زائف . وهو ينظر بنفور فى عينى بيير بـالبز قصيرتى النظر (كان يكرهـه للحيته المخروطيـة الأشبه بلحية الماعز وغطـاء الأحذية التـى يلبسها) وكذلـك عينى تـوتو دى بـرونيل (الذى كـان يشبه كلبـا يقبع فى حجـر سيدة عجوز) ، إلا أنه كان يميـل إلى أثينا تراشا الوردة المتفتحة ، وأحـس بالأسى من أجل دروسيلا بانوبـولا لأنها كانت من الذكاء بحيث لاتبدو كـأمرأة بأى حال من الأحوال ، وتبادل وبورسواردن ابتسامـة هادئة . وأخيرا قال ، وهو يزفر فى ارتياح ، « حسنا » . فناوله شقيقه كأسا مـن الويسكى فى لطف وحنان ، فجرعه ناروز فى بطء ولكن فى مرة واحدة ، كما يفعل الفلاحون .

« لقد كنا فى انتظارك ياناروز » .

وقال بيير بالبز متألقا متملقا . « المنفى من آل الحصنانى » .

وصاح توتو الصغير ، « المزارع » .

وعاد النقـاش الذى كـان دائرا فيما بينهم ، والذى قطعـه ظهوره المفـاجئ ، يخيم فوق رأسه ، فجلس إلى جوار النـار حتى يتهيئوا لمغادرة المكان إلى دار آل سيرفونـى ، وقد طوى ذراعيـه القويتين معا ، وكـأنه يكبـح كل قواه فى حـركة واحدة حاسمة ... ولاحظ أن جلد نسيم عنـد العارضتين مشدودا ، وهى علامة يعرفهـا من قديـم دلالة على الغضب أو التـوتر . وكانـت ذروة جمال جوستين الأسمر فى ردائها (الذى كان بلون دم الأرنـب البرى) . والذى كان يتوهج بين الايقونات ، كأنما يستمتع بأضواء الشموع الشاحبة ـ ليتغذى عليها ثم يعيدها ضياء يبرق فى حليهـا الهمجية . وانتاب نـاروز احساس رائع بـالإنفصال عما حولـه ، باللامبالاة . لم يكـن يعى ماذا تعنى نـذر كل تلك المتاعـب والضغوط . كانت كليـا وحدها هى التى فى وسعهـا أن تخترق اكتفاءه بذاته ، وهـى وحدها التى تخيم على أفكاره بظلال معتمة . كان يأمل ، كل عام ، عندما يصل إلى منزل أخيه ، أن يجدها هناك بين المدعوين . لكنها ، فى كل عام ، لم تكن هناك ، مما كان يضطره للهيـام طوال الليل فى الظلام ، بحثـا عنها ، كما يهيم شبح بـلا هدف ، دون أمل حقيقى فى أن يلقاها مصادفة ، ومع ذلك فإنه يعيش على طيفها الرقيق، أمله الذى يعشقه ، كما يعيش الجندى على جرايته .

كانوا ، فى تلك الليلة ، يتحدثون عن أمـاريل وعشقه التعس ليدين مجهولتين ولصوت سمعه فى الكرنفـال . وكان بورسواردن يخبرهم بواحـدة من قصصه الشهيرة فى فرنسيته المتقنة سليمة النطق . « عنـدما كنت فى العشرين ذهبت إلى فينيسيا ، لأول مرة ، تلبية لدعوة شاعر إيطالى يدعى كارلو نيجر وبونتى ، وكنا نتبادل الرسائل . كانت تجربة عظيمـة لشاب انجليزى من الطبقة الوسطى ، أن يعيش ، بـالفعل ، فى ضـوء الشموع فى قصر متـداع يقع على القنـاة الكبرى وقد وضـع تحت تصرفى أسطول كـامل من الجندولات ـــ بالإضافة إلى صـوان هائل ملئ بالعبـاءات المبطنة بالحريـر . كان نيجرو بونتـى ، كريما ، لم يدخـر جهدا ليـدخل المسرة على نفـس رفيق شـاعر بـأفضل السبـل . كان حينـذاك يناهـز الخمسين من عمره ، نحيـلا ، جميلا أشبه بنوع نادر من البـاعوض . كان أميرا شيطانيا . وكان شعـره يعكس تزاوجا لتأثيرات بايـرون وبودلير . كان يهوى العباءات والأحذيـة ذات الأبازيم والعصى الفضية ، وقـد شجعنى على أن أفعل

مثلما يفعل . كنت أحس وكأنى أعيش فى رواية قوطية . وما كتبت فى حياتى شعرا أسوأ مما كتبته فى تلك الأيام .

« ذهبنا معا ، فى هذا العام ، إلى الكرنفال ، إلا أننا افترقنا رغم أن كلينا ارتدى مايمكنه من التعرف على الآخر . كان الكرنفال ، كما تعرفون فى ذلك الوقت ، من العام ، الذى تسير فيه مصاصات الدماء بحرية . وكان العاقل الحكيم من يحمل معه بعضا من الثوم ، فى جيبه ، ليبعدهن عنه إن حدث وصادف إحداهن . وتوجهت صباح اليوم التالى إلى حجرة مضيفى حيث وجدته يرقد فى سريره شاحبا شحوب الموتى ، وقد ارتدى قميص نوم أبيض اللون مزركش الأكمام . وهنالك طبيب يجس نبضه . وقال عندما رحل الطبيب ، « لقد قابلت المرأة المثلى . كانت مقنعة . اصطحبتها إلى المنزل حيث كشفت عن نفسها كمصاصة دماء » . ثم أزاح قميصه كاشفا عن جسده فخورا مرهقا . كانت تغطيه آثار عضات هائلة أشبه بالآثار التى تتركها أسنان ابن عرس . كان مرهقا للغاية إلا أنه كان منفعلا ـ يخاف أن يحكى عن الحب الذى غرق فيه . قال ، «لن تعرف طعم هذه التجربة ، حتى تذوقها بنفسك . أن يمتص دم المرء ، فى الظلام ، امرئ آخر يهيم به حبا » . وتهدج صوته ، « ما كان فى وسع دى ساد أن يصف مثل هذه التجربة. لم أر وجهها ، لكن انطباعا لدى أنها شقراء ، شقرة أهل الشمال . لقد التقينا فى الظلام وافترقنا فى الظلام ، وليس من انطباع عنها غير أسنانها البيضاء وصوتها الذى سمعت منه مالم اسمعه من أية امرأة . إنها المعشوقة التى انتظرتها كل تلك السنوات . سألقاها الليلة مرة أخرى ، قرب التمثال المرمرى ذى رأس العقاب وجسد الأسد عند كوبرى قطاع الطرق . آه ياصديقى، فلتسعد لسعادتى . كان العالم لى بلا معنى ، لكننى الآن ، وبفضل حب مصاصة الدماء تلك ، أحس بقدرتى على الحياة من جديد ، وأن تكون لدى مشاعرى من جديد ، وأن أكتب من جديد » . وقضى طوال النهار منكبا على أوراقه ، حتى إن هبط المساء خرج فى جندوله ملتفا بعباءته . لم يكن من شأنى أن أقول شيئا . ووجدته فى اليوم التالى مرهقا شاحبا شحوب الموتى ، مرة أخرى. أصابته الحمى وقد امتلأ جسده بتلك العضات البشعة . لكنه ما كان يتحدث عن تجربته دون أن ينتحب ـ يذرف دموع الحب والارهاق . وبدأ ، فى

ذلك الحين ، نظم قصيدته التى استهلها ، كما تعرفون جميعا .

لن تكون الشفاه على الشفاه ، لكنها فوق الجراح

تمتص الأجساد المسمومة لمن تحبهم .

تسحب الغذاء من دماء ساكنة

تغذى الحب الذى يقتات على موتهم

«غادرت بعد أسبوع ، مما حدث ، إلى رافينا . كان لدى بعض الدراسات التى يجب إعدادها لكتاب كنت أكتبه . مكثت هنالك شهرين لم اسمع خلالهما شيئا عن مضيفى ، لكننى تسلمت رسالة من شقيقته تقول فيها أنه كان مريضا بمرض أنهكه ، وعجز الأطباء عن تشخيصه . وأن العائلة قلقة عليه أشد القلق ، فهو يصر على أن يغادر ليلاً فى جندوله إلى رحلات لايتحدث عنها أبدا ، وإن كان يعود منها مرهقا غاية الإرهاق . ولم اعرف بم أجيب على هذه الرسالة .

« وتوجهت من رافينا ، إلى اليونان . ولم أعد إلا بحلول الخريف . كنت قد أرسلت بطاقة إلى نيجرو بونتى أخبره فيها بأملى فى أن أقيم معه ، لكننى لم أتلق ردا . وعندما كنت أجتاز القناة الكبرى ، رأيت فى لجة الماء ، فى ضوء الشفق ، جنازة ، وشعارات الموت ورموزه الرهيبة . رأيتهم يخرجون من قصر نيجرو بونتى . فرسوت على الضفة مسرعا إلى البوابات ، بينما الجندول الأخير فى الموكب يمتلئ بالقسس والمشيعين ، حيث تعرفت على الطبيب ولحقت به . أخبرنى الرجل بما يعرفه بينما نجدف فى القنال بمشقة وقد تناثر الرذاذ. وأخذت عيوننا ترمش من طعنات البرق . مات نيجرو بونتى فى الأمس ، وعند بدأوا لفه فى الأكفان ، رأوا تلك العضات : ربما بسبب حشرة استوائية ؟ التبس الأمر على الطبيب . قال ، لم أر مثل تلك العضات إلا عندما انتشر الطاعون فى نابولى . حيث هاجمت الفئران الابدان . كانت العضات فى جسده سيئة إلى حد اننا قمنا بتغطيتها بمسحوق التلك قبل أن ندع أخته ترى جثته » .

وتناول بورسواردن رشفة طويلة من كأسه ، ثم استمر قائلا فى خبث ، « لم تكن تلك هى النهاية اذ حاولت الانتقام له ، فذهبت بنفسى إلى كوبرى قطاع الطرق ، عندما حل المساء ، حيث كانت تنتظره دوما تلك المرأة فى الظلام ، كما أخبرنى ملاح الجندول .... إلا أن الوقت قد غدا الآن متأخرا ، كما أننى ، على أى

حال ، لم أقرر بعد كيف تكون بقية القصة » .

وانطلقت الضحكات . وارتجفت أثينا ارتجافة مهذبة وهى تلف شالها على كتفيها . وكان ناروز يستمع إلى هذا الحكى فاتحا فاه ، مبهورا ، مضعضع الحواس ، ثم قال متلجلجا ، « ولكن ، هل كل مارويت حقيقيا ؟» . وانطلقت ضحكات جديدة ترحب بهذا السؤال .

قال بورسواردن فى حسم ، « بالطبع ، كله حقيقى » . ثم أضاف ، « فأنا لم أذهب طوال حياتى إلى فينيسيا » .

ثم وقف ، فقد حان أوان ذهابهم . واخذوا فى ارتداء القلانس المخملية ، بينما وقف الخدم السود ساكنين فى انتظار مايوجه إليهم. وضبط السادة وضع أقنعتهم ، كما يفعل الممثلون. ووقفوا ، جنبا إلى جنب ، يقارنون انعكاس هيئاتهم فى المرآتين الكبيرتين القائمتين بين أشجار النخيل . وهأها بيير ، وأطلق توتو دى برونيل النكات وهما يضحكان فى طريقهما إلى الخارج حيث هواء الليل النقى ، هؤلاء السكندريين سادة اللذة والألم ...

احتوتهم السيارات ، بينما الخدم والسائقون يهتمون بهم ، يدسونهم فيها بعناية ، كأنهم بالات توابل أو بضائع ثمينة ، وفى رقة أيضا ، كأنهم زهور أو ورود . وصوصو توتو معلقا على هذا الاهتمام وتلك العناية ، « أحس أنى هش . ارفعوا هذا الجانب بعناية . أه ؟ إننى أتساءل ، أى جانب هذا ؟ » . لابد أنه الوحيد فى المدينة الذى لايعرف الإجابة على سؤاله .

ومالت جوستين إلى الأمام فى السيارة عندما بدأت تتحرك . جذبت كم توتو وهى تقول فى صوت أجش ، « أود أن أهمس لك بشىء » . لم تكن بحاجة كبيرة إلى الهمس . كان نسيم وناروز منهمكان يناقشان ، شيئا ما ، بنبرات خشنة (وتميز صوت ناروز بنبرات طفولية) ، بينما كانت أثينا تلوم بيير بصوت كالمزمار . وهمست جوستين ، « اسمع ياتوتو . أود منك ، أن شئت خدمة كبيرة الليلة . لقد وضعت علامة طباشيرية هنا على كمك من الخلف . إننى أود ، فيما بعد ، أن أعطيك خاتمى لترتديه هذا المساء ، صه . إننى أود الاختفاء قرابة ساعة من الزمن لحسابى الخاص . خفض من صوتك ولا تقرقر ضاحكا » . إلا أن الصوصوات والزفرات جاءت من تحت القلنسوة المخملية واستمرت جوستين . «

سوف تكون لك الليلة مغامرات بإسمى ، ياعزيزى توتو ، بينما أكون أنا بعيدة . فهل توافق ؟» .

أزاح القلنسوة إلى الوراء ، كاشفا عن وجهه الطافح بالسعادة ، وعينيه الراقصتين ، وابتسامة القواد الصغيرة الكالحة . وهمس ، « بالطبع » ، وقد استخفه الطرب لهذه الفكرة المثيرة للإعجاب الشديد . إن صوت جوستين يأتيه من القناع القابع إلى جواره ، وقد خلى من كل تعبير ، كأنها كاهنة أو عرافة . وكان القناع الذى يضوى بنوع متميز من جمال الموت ، يومئ له فى ضوء مصابيح الشارع التى يمرون بها . وطوقهما الحديث والضحك المحيط بهما ليبرما مؤامرة خاصة صامتة . وتساءلت جوستين ، « هل توافق ؟ » وقال توتو . « بالطبع ياعزيزتى . » .

كان الرجلان المقنعان الجالسان فى المقاعد الأمامية أشبه برئيسى دير من أديرة القرون الوسطى ، يناقشان فى أحكام علم اللاهوت . وكانت أثينا غارقة فى صوتها . تبقبق مع بيير قائلة ، « بالطبع » .

وأمسكت جوستين بذراعه وادارت كمه لتريه العلامة الطباشيرية التى وضعتها عليه . « اننى اعتمد عليك » قالتها فى صوت أجش متآمر ، وأكملت همسا « لا تخذلنى » . تناول يدها ورفعها إلى شفتيه الكيوبيديتين ، وقبل الخاتم، الذى جئ به من أصبع شاب بيزنطى ، كما يقبل المرء صورة مقدسة ، حققت له معجزة ، كان يشتاق إليها منذ زمن بعيد .كان عليه أن يتحول من رجل إلى امرأة . وضحك صائحا ، «سوف تقع على رأسك كل الحماقات التى سأرتكبها . ولسوف تقضين بقية أيامك .... » .

« صه » .

صاحت أثينا تراشا ، وقد إشتمت رائحة نكتة أو فضيحة تستحق الإعادة ، « ماهذا ؟ وأية حماقات ؟ » . صاح توتو فى الظلام بلهجة المنتصر . « حماقاتى أنا ، حماقاتى بذاتها » . إلا أن جوستين إتكأت إلى الخلف فى السيارة المظلمة ، ساكنة فى قناعها ، لاتتكلم . وقالت أثينا ، « اننى اتحرق شوقا للوصول إلى هناك » ، ثم استدارت إلى بيير مرة أخرى . وأضاءت أنوار السيارة ، بينما تجتاز بوابة منزل آل سيرفونى ، معالم لوحة محفورة (بلون اللبن المحروق) ، تمثل الإله « بان » ، إله الرعاة ، وهو يغتصب عنزة ، وقد أمسكت يداه بقرنيها ، بينما ألقى برأسه

إلى الخلف منتشيا . وقالت جوستين مرة أخرى وأخيرة ، «لاتنسى»، بينما سمحت له أن يتناول يدها ، فى عنف ، ممتنا لهذه الفكرة الرائعة « لاتنسى» ، ووضع يدها المحلاة بالخواتم فى يده . . كانت باردة . خالية من كل الأحاسيس . كبقرة تترك نفسها لمن يحلبها . « فقط ، أخبرنى بكل ما سيدور من أحاديث ممتعة . هل ستفعل ذلك ؟» . ولم يملك غير أن يتمتم ، « أيتها العزيزة ، العزيزة ، العزيزة » بينما يقبل الخاتم بعاطفة أنثوية جياشة ، عاطفة من جرد من قدرته الجنسية .

تفرقت جماعتهم ، ما أن دخلت صالة الرقص . واندمجت فى الجمع ، كما يذيب تيار الخليج الدافئ جبل الجليد ويبدده . وفجأة أخذت أثينا فى الصراخ ، وعملاق يرتدى الدومينو يجرها إلى قلب الزحام ، وهو يغرغر يزأر بأشياء غامضة تنطلق من وراء قلنسوته . ووجد نسيم وناروز وبيير أنفسهم ، فجأة ، وقد تحولوا إلى رموز قذف بها إلى عالم بلا معالم ، عالم من اللقاءات العفوية . والقناع الأسود فى مواجهة القناع الأسود ، أشبه بنوع جديد من الحياة الحشرية. ومنحت العلامة الطباشيرية توتو بضع لحظات تميز هويته ، بينما كان يُحمل بعيدا كفلينة تطفو فوق مجرى مائى ، وكان خاتم جوستين علامة مميزة لها أيضا (ذلك الخاتم الذى بحثت عنه ، عبثا ، طوال الليل) .

انغمس كل شىء فى فوضى رقص أحمق مع نغمات الجاز الأسود الصادر عن هدير الطبول وصرير الساكسافون . وبدت أرواح الظلام وكأنها قد سادت تحجب بصيرة قلوب وعقول المقنعين ، تغمسهم أعمق وأعمق فى عزلة هويتهم التى لم يعد فى وسعهم استردادها ، تطلق شهوات المدينة المتعددة المتنوعة . وجرفهم التيار إلى شطئان شخصياتهم الغائصة كالمستنقعات — إنهم رموز الاسكندرية . بركة ماء آسن ، تميل إلى الملوحة وقد فقدت عذوبتها ، يحيطها صمت الصحراء الذى لايمكن التكهن بكنهه ، والذى يمتد بعيدا فى أفريقيا تحت قمر خامد .

أخذنا نجوس ، بين الجماعة ، فى يأس ، وقد أطبقت علينا أقنعتنا . نبحث من حجرة إلى حجرة ومن طابق إلى طابق منير فى انحاء البيت الكبير ، لعل شيئا مميزا يقودنا إلى من نحب : وردة مثبتة فى كم ، خاتم ، وشاح ، خرزة ملونة ، شىء ما ، أو أى شىء يمكن أن نكتشف به أحباءنا . كانت القلانس والأقنعة

أشبه برموز خارجية لما فى عقولنا من أسرار ، ونحن نهيم ، هنا وهناك ، وبغرض واحد ، متجـردين كـآباء الصحراء وهـم يبحثون عن إلههـم. وأحاط بنـا حفل الكرنفال الكبير الراقص فى بطء ، ولكـن فى إلحاح لايرد . وكان المرء يقع ، هنا أو هناك ، على شىء مألوف لديه ، كما يقع القارئ على نتف من معنى فى متن مبهم: هنالك فى الممر من يرتدى لبأس مصارع ثيران ، يشرب الويسكى ويحيينا بلكنة بها لثغة تونـى أومبادا ، وبوزو دى بورجو يـرفع قناعه ، لحظـة ، ليكشف عن نفسه لـزوجته المرتجفة . وهنـالك فى الخارج ، فى الظـلام ، جلس أماريـل فوق العشب إلى جوار بركة الزنابق ، ينتفض أيضا وينتظر . لم يكن يجرؤ على البقاء بلا قناع خشية أن يثير منظر وجهه اشمئـزازها أو احباطها ، تلك التى يجب أن تعود هذا العام فى الموعد الذى حددتـه . إذ وقع المرء فى حب قناع ، بينما هو ذاته مقنعا ... فمن ذا الـذى تواتيه الشجاعـة ليرفع القناع أولا ؟ ترى أيمضـى مثل هـؤلاء معـا عبر الحيـاة وهما مقنعين ؟ (وتنـازعت الأفكـار وجـدان أمـاريـل العاطفى.. فالحب ينعشه تعذيب الذات) .

وهناك مـن تنكر تنكرا جيـدا فى زى امرأة غسالـة ، ترتـدى قبعة مألـوفة ، وحذاء يسهل التعـرف عليه (إنها بومبال ، كما يكون فى جميـع الأحوال) ، وقد أمسكت بتلابيب متنكر هزيل ، يرتـدى زى قائد مائة رومانى . فى ركن المدفأة ، وراحت تلعنه فى صوت كصوت الببغاء . وحاول القنصل العام ، ضئيل البنيان، أن يعبر عن ضيقه ، مقـاوما بحركات متمـوجة سريعة ، إلا أن كل مـا فعله كان عبثـا ، فقد أمسكـه بومبـال ، فى سرعة ، بمخـالبـه الهائلة . كـان المشهد يـأسر الألباب. وسقطت خوذة قائد المائة ، ودفعه بـومبال إلى منصة الجوقة الموسيقية وهو يضربه مـن الخلف على إيقاع الطبل الكبير ، ويقبله ، فى ذات الـوقت قبلات والهة . كان ، بـالقطع ، ينتقم لنفسـه منه . وبينما أراقب هـذا المشهد القصير ، طمسه اقتراب الجمع منه واحاطته به فى دوامة من الرايات ونثار الأوراق الملونة. وأمسك بنا الـزحام فغدونا جسـدا لجسد وخوذة لخوذة وعينا لعين ، وسـاقتنا الموسيقى دورة وراء دورة ، ولا أثر لجوستين بعد .

تيرسياس العجوز .

لا أحد يضاهيه فى مرحه

لا أحد له انطلاقة وسلاسة

تيرسياس العجوز .

لابد أن الساعة كانت قد بلغت الثانية ، عندما بدأت النيران تشتعل فى إحدى مداخن الطابق الأرضى . لم تكن لها نتائج خطرة ، كما أشاعت المرح أكثر مما أثارت الفزع ، لما صاحبها من ملابسات. وأخذ الخدم يهرولون ، هنا وهناك ، بطريقة متكلفة . ورأيت سيرفونى يسرع . دون قناع ، إلى الدور العلوى ، ثم سمعت رنين الهاتف . وانتشرت سحب دخان لها رائحة الكبريت ، وكأنها آتية من حفرة لاقاع لها . ووصلت سيارة المطافئ ، فى لحظات ، يسبقها زعيق صفارتها . وامتلأت القاعة برجال المطافئ بأرديتهم المزخرفة ، يحملون الجرادل والبلط ، حيث قوبلوا بالتصفيق تحية واستحسانا ، وهم يشقون طريقهم نحو مكان النيران الذى هدموه بفؤوسهم . وتسلق البعض منهم إلى سطح المنزل وأخذوا فى القاء الماء من الجرادل من المدخنة ، مما ملأ الطابق الأول بسحابة كثيفة من السناج أشبه بضباب لندن . وتجمع المقنعون يصيحون فى فرح ويرقصون كالدراويش . كانت مثل تلك المفاجآت الناجمة عن السهو والإهمال ، هى التى تضفى على الحفل بهجته . ووجدت نفسى أصرخ مع الصارخين . ولابد أننى ، كما أعتقد ، كنت أوشك أن أكون ثملا .

فى القاعة الكبيرة بجدرانها المغطاة بالستائر المنقوشة الموشاة ، كان الجرس يرن ويرن مخترقا ذلك الضجيج .رأيت خادما يجيب عليه ، ثم يضع السماعة جانبا ، ويفحص من فى القاعة ككلب صيد حتى يعثر على نسيم فيعود به ، مبتسما سافرا ، ليتحدث فى الهاتف فى سرعة ونفاذ صبر . ثم يضع ، هو أيضا ، السماعة جانبا ، ويذهب إلى طرف حلبة الرقص ، يحملق فى الراقصين بحدة . وسألته وأنا أزيح قلنسوتى وألحق به ، « هل حدث شىء ما ؟ » وابتسم هازا رأسه ، « لا أستطيع أن أرى جوستين فى أى مكان ، إن كليا تود الحديث إليها . هل فى وسعك أن تراها ؟ » واسفاه . لقد حاولت جاهدا أن تقع عينى على خاتمها المتميز ، طوال الأمسية ، دون جدوى . وانتظرنا ، نراقب ، ندقق النظر فى الراقصين وهم يدورون فى بطء ، كما يراقب الصيادون الطعم فى انتظار أن تقضمه الأسماك. وقال نسيم ، « كلا » ، ورددت أنا قوله « كلا » . وجاء بيير بالبزليحق بنا رافعا خوذته وقال ، « لقد كنت أرقص معها منذ لحظة مضت . ربما تكون قد ذهبت إلى الخارج » .

عاد نسيم إلى الهاتف وسمعته يقول ، « إنها هنا فى مكان ما . نعم ، أنا متأكد تماما من ذلك . كلا ، لم يحدث أى شىء . لقد كان بيير آخر من رقصت معه . إن الجمع كبير . ربما تكون فى الحديقة . هل ترغبين فى ترك رسالة لها ؟ هل أطلب منها أن تتصل هاتفيا بك ؟ حسنا . كلا ، لم تكن أكثر من نار اشتعلت فى المدفأة وقد خمدت الآن » . ووضع السماعة فى موضعها وعاد إلينا قائلا ، «على أى حال ، لدينا موعد لقاء فى البهو ، سافرين ، فى الساعة الثالثة » .

وهكذا أخذ الحفل الراقص يدور حولنا . ولحق رجال الاطفاء ، وقد أدوا واجبهم ، بالجمع الراقص . ولمحت امرأة غسالة ضخمة الجثة ، فاقدة الوعى بصورة واضحة . يحملها ، إلى حجرة النباتات الزجاجية ، شياطين أربع ، لهم نهود كبيرة ، وقد أحاط بهم تصفيق صاخب . لابد أن بومبال قد استسلم ، مرة أخرى ، لنزوته المفضلة فى احتساء الوسكى . كان قد فقد قبعته ، لكنه كان بعيد النظر فارتدى باروكه كثيفة من الشعر الأصفر المستعار . كان من المشكوك فيه أن يتعرف أحد عليه وهو فى مثل هذا اللباس .

وظهرت جوستين فى الموعد تماما ، فى الثالثة . دخلت البهو قادمة من الحديقة وقد كشفت قناعها . وكنت وبيير قد قررنا ألا نقبل عرض نسيم علينا بأن يأخذنا إلى بيوتنا فى سيارته . وأن نظل نمنح طاقتنا للحفل الراقص الذى كان قد بدأ فى التبلد والخمود . وأخذت المجموعات فى الالتقاء ومغادرة المكان ، تحملهم سياراتهم . وقبل نسيم جوستين فى رقة وهو يقول ، « أين خاتمك ؟» سؤال كنت اتحرق شوقا لتوجيهه إليها . إلا أننى لم أجسر على ذلك . وابتسمت تلك الابتسامة البريئة الآسرة وهى تقول « لقد انتزعه توتو من أصبعى منذ دقائق قليلة مضت ، اثناء إحدى الرقصات . اين هذا الوحش الصغير ؟ ، فإننى أريد استرداد خاتمى . » وأخذنا نبحث عن توتو ، فى الطابق ، إلا أنه لم يكن هنالك من أثر له . وأخيرا قرر نسيم ، الذى كان متعبا ، أن نكف عن البحث ، لكنه لم ينس أن يبلغ جوستين رسالة كليا . ورأيت معشوقتى تسير منصاعة إلى الهاتف ، تدير القرص على رقم صديقتها . كانت تتحدث فى هدوء ، وبطريقة مبهمة ، مدة لحظات قليلة ، وسمعتها تقول ، « بالطبع أنا فى خير حال » ، ثم حيت كليا تحية المساء . وخطا كلاهما إلى الخارج فى ضوء القمر وقد أخذ يضمحل ، وقد وضع

كل منهما ذراعه فى ذراع الآخر ، وساعدتها أنا وبيير على دخول السيارة . كان سليم يجلس إلى عجلة القيادة ساكنا ، بملامحه التى تشبه ملامح الصقر . وصاحت جوستين ، « طبتم مساءً !» ومست وجنتى بشفتيها وهى تهمس ، «غدا » . وزعردت الكلمة فى عقلى كصفير طلقة ، بينما نعود أنا وبيير إلى المنزل المضاء . كان وجه نسيم مفعما بسكينة شيطانية ، أشبه بمن يركن إلى الراحة بعد استنفاد قدر كبير من طاقته .

كان أحدهم قد سمع شبحا يتمتم فى حجرة النباتات الزجاجية . وكان هنالك ضحك صاخب . وصاحت أثينا فى صوت كقباع الخنزير ، « كلا ، إلا أننى أؤكد لكم أننا ، أنا وجاك ، كنا نجلس فوق الأريكة . أليس كذلك ياجاك ؟» وظهر مقنع نفخ فى وجهها مصوصوا ثم تراجع . وهتف هاتف من أعماقى أنه توتو ، فسحبت قلنسوته إلى الخلف ، فظهر وجه كلو مارتيننجو . واستمرت أثينا قائلة، « إلا أننى أؤكد لكم ، أنه نطق كلمة فى صوت كالأنين ـ كلمة أشبه ... » . وعبس وجهها وهى تركز تستجمع ذاكرتها . ثم قالت ، بعد فترة من الصمت ، فى صوت أشبه بصوت من يغنى ، يهدهد طفلا ، كلمات تبدو كأنها آخر ما ستنطق من كلمات ، « جوستيس ... جوستيس » [1] . وضحك الجميع من أعماق قلوبهم . وأخذت أصوات عدة تقلدها : « جوستيس » بينما هدر أحدهم ، ممن يرتدون الدومينو ، « جوستيس » ، بينما يندفع صاعدا السلم .

ووجدت نفسى ، مرة أخرى وحيدا ، وقد تحول ما أصابنى من خور ويأس إلى جوع . فعبرت حلبة الرقص ، حذرا فى اتجاه غرفة العشاء ، التى كانت تنبعث منها أصوات طرقعات زجاجات الشمبانيا . كانت حفلة الرقص ماتزال على أشدها ، والراقصون يتمايلون كفسيل مبتل فى مهب ريح عاتية ، وأنغام للساكسفون تنتحب كصغار الخنازير،ودروسيلا بانوبولا تجلس فى خلوة وقد رفعت ثوبها إلى ما فوق ركبتيها الرائعتين ، وقد سمحت لأثنين فى ملابس المهرجين بتضميد مفصل قدمها. يبدو أنها وقعت أو أن هناك من دفعها أرضا وخلفها رقد نائما ، فوق أحد الأرائك ، طبيب ساحر أفريقى ، وقد وضع

---

(١) جاءت فى الأصل Justice . وقد كتبتها كما هى رغم أن معناها العربى : العدالة . لأنها كما جاءت فى السياق تبدو أقرب إلى جوستين ولكن محرفة . (المترجم) .

مونوكلا فوق عينه . وأمرأة فى الغـرفة الثانية ، جلست فى ثياب السهرة إلى بيان كبير تعزف موسيقى الجاز وتغنى لنفسها وقـد انهمرت دموعها على وجنتيها ، بينما عجوز بدين ، يغطى الشعر ساقية ، يحوم حولها وقد ارتدى لباس فينوس دى ميلو . كان ، هو أيضا ، ينتحب وبطنه تنتفض معه .

كانـت حجرة العشـاء هادئة ، نسبيا ، حيـث وجدت بـورسواردن سـافرا ، واضـح السكـر ، بعض الشىء، يتحدث إلى مـاونت أوليف ، الـذى كان يسير فى انسياب غريب حول المائدة ، يظلع فى مشيته ويملأ طبقة بشرائح الديك الرومى الباردة والسلاطة . كان بورسواردن يندد . بطريقة مشوشة ، بصورة ما ، بآل سيرفونى لتقديمهم السبومانتى بدلا مـن الشمبانيا . وقال . موجها حديثه إلىّ ، «خذ بالك من هذا المشروب ، فكل رشفة منـه تحمل للرأس صداعًا » . لكنه كان يملؤ كـأسه ، مـرة أخرى ، وهو يمسكـه بثبات فيه كثير مـن المبالغـة . ونظر ماونت أوليف إلىّ نظرة تأمل رقيقة ، بينما كنت أتناول طبقا ، ثم حيانى باسمى فى ارتياح واضـح ، قائلا، « آه ، دارلى لقد ظننت للحظة أنك واحد من سكرتاريّ ـ لقد كانـوا يتتبعوننى طوال المسـاء ، يفسدون علىّ متعتى . إن إيرول يـأبى ، فى بساطة أن يخرق البروتـوكول ويغادر الحفل قبل أن يغادره رئيـس البعثة ، لذا كان علىّ أن أختفـى فى الحديقة حتـى يعتقدوا أننـى قد غـادرت الحفل . هـؤلاء الرجال الأعزاء البؤساء . عندما كنت مرؤوسا كنت ألعن الوزير لابقائه لى طوال أمسيات مملة تثير الضجر ، فاقسمت ألا أعـرض مرؤوسى لما أعانيه إن غدوت يوما رئيسـا للبعثة » . كان حديثه السلـس العفوى ، بما يتسم به مـن بساطة ، يسبغ عليه مظهر المتعـاطف مع الآخرين ، رغم أنى كنـت أعرف أن سلوكه إنما هو سلـوك المهنى المحترف ، سلـوك الدبلـوماسـى الناعـم المدرب . لقد قضـى سنوات عدة يدرب نفسه على معاملة مرؤوسيه بما يريحهم مخفيا شعوره بأن مايقوم بـه إنما هو تنازل منه ، حتى أنه حقـق ، فى النهاية ، أسلوبا خـاصا به ، يتسم بالصدق المهنى التام الذى يبدو فيه متسقا مع طبيعته ، فى حين أنه كان . فى الحقيقة ، أقرب إلى الزيف . لقد كان شديد الإخلاص لتمثيل هذا الدور الكبير . إلا أن الضيق كـان ينتابنى لأننـى كثيرا ماكنت أجـد نفسى لصيقا بـه . ودرنا حول المائدة فى بطء نتحدث ونملؤ طبقينا بالطعام .

واستثارة بورسواردن قائلا . « ماذا رأيت فى الحديقة يادافيد ؟» ونظر الوزير إليه متأملا كأنما يحذره من قول فيه حمق ونزق.قال ماونت أوليف بينما يتناول كأسه مبتسما ، « رأيت العاشق أماريل إلى جوار البحيرة يتحدث إلى امرأة ترتدى الدومينو . ترى هل تحققت أحلامه ؟ آمل ذلك » . كانت قصة عشق أماريل معروفة للجميع .

وتحداه بورسواردن بطريقة أقرب إلى السوقية ، كأنما بينهما سرا مشتركا ، قائلا ، « وماذا رأيت أيضا ؟ ومن رأيت أيضا ، يادافيد؟» . كان متنمرا متربصا رغم ما فى صوته من ود . واحمر وجه ماونت أوليف خجلا ، وأرخى ناظريه إلى طبقه .

تركتهما عائدا أدراجى ومعى طبق ملئ بالطعام وكأس شراب . أحسست فى أعماقى بأزدراء لبورسواردن وتعاطف جياش نحو ماونت أوليف لما وقع فيه من حرج . كنت أبغى الانفراد بنفسى ، آكلافى صمت ، أفكر فى جوستين . كاد ينقلب مامعى من طعام عندما صدمتنى متنكرات ثلاث فى زى آلهات الإغريق الثلاث المانحات للفتنة والجمال ، وقد صبغن شفاههن بالأحمر القانى . كن جميعا رجالا كما يبين من أصواتهم العميقة ، وقد أخذوا يتعاركون فى البهو . كانوا يهاجمون الأجزاء الخاصة لكل منهم مازحين مزمجرين كالكلاب . راودتنى ، فجأة ، فكرة أن أصعد إلى المكتبة التى لابد وأن تكون خالية فى مثل هذا الوقت . وأملت أن تكون مخطوطات كافافى الجديدة هناك ، ألا يكون مغلقا عليها ، فقد كان سيرفونى هاويا كبيرا لجمع الكتب .

رأيت فى الطابق الأول رجلا بدينا له ساقين طويلتين ، يرتدى بذة « ذات القبعة الحمراء » ويدق باب دورة فى المياه فى عنف . والخدم يزيلون السناج بمكانس هوفر كهربية ويتحدثون همسا . كانت المكتبة فى الدور العلوى ، وهنالك ضجيج ، فى إحدى غرف النوم . سمعت صوتا قادما من حمام الدور السفلى ، صوت مريض متدرج الأنغام . بلغت بسطة السلم ضاغطا الباب ، محكم الأغلاق ، بقدمى لينفتح فأدخل . كانت الغرفة المستطيلة بأرففها البراقة خالية إلا من شخص يرتدى زى الشيطان ، جالسا فى أحد المقاعد ، قرب النار ، وقد وضع كتابا على ركبتيه . وخلع نظارته ليتعرف علىّ فعرفت فيه

كابوديستريا . ماكان من الممكن أن ينتقى زيا أليق من هذا . زى يناسب أنفه الشبيهة بمنقار طويل ، وعينيه الصغيرتين الحادتين المتقاربتين . وصاح ، « أدخل . كنت أخشى أن يكون القادم واحدا من هؤلاء الذين يرغبون فى ممارسة الحب ، وكان علىّ فى مثل تلك الحالة .... يجب الإلتزام دوما بآداب السلوك (*)، وإلا فإننى كنت سأضطر إلى .... ماذا تأكل ؟ إن النار هنا ممتعة ، وأنا أبحث عن فقرة أثارت قلقى طوال المساء » .

تقدمت نحوه واضعا طبقى بما حمل فيما بيننا ، دعوة منى إليه ليشاركنى الطعام ، قلت ، « لقد جئت لأرى مخطوط كافافى الجديد » .

قال ، « إن كل المخطوطات مغلق عليها » .

« حسنا » .

طقطقت النيران وتوهجت ، والحجرة الهادئة ترحب بنا بما فيها من كتب بديعة .خلعت قلنسوتى وجلست بعد أن قمت بجولة أولية حول رفوف الكتب المعلقة على الجدران . كان داكابو قد انتهى من نسخ شىء ما فى قطعة من الورق. قال فى شرود ، « ما أغرب أمر والد ماونت أوليف ، وعلاقته بتلك المجلدات الثمانية الضخمة من المتون البوذية . هل تعرف ذلك ؟ » .

قلت بطريقة غامضة ، « سمعت بهذا » .

« كان العجوز قاضيا بالهند ، وعندما اعتزل ظل هناك ومازال . انه ، كما أرى ، من مقدمة الدارسين الأوربيين لمتون (بالى) ... إن ماونت أوليف لم يره منذ أعوام طويلة . ويقول عنه أنه يرتدى (السادهو) . إنكم معشر الإنجليز غريبو الأطوار تماما . لماذا لايعمل العجوز فى متونة فى اكسفورد ، أه ؟ » .

« ربما كان ذلك بسبب الطقس » .

« ربما . هاهو ماكنت أبحث عنه . كنت أعرف أنه هنا فى مكان مامن المجلد الرابع » . وصفق الكتاب وأغلقه .

أمسك بورقته قرب النار ، وأخذ يقرأ فى بطء ومتعة مرتبكة النص الذى نسخة ، « إن ثمرة الخير والشر هى ذاتها لاشىء غير الجسد . نعم ، والتفاحة ذاتها لاشىء غير تفاحة من تراب » .

(*)بالفرنسية فى الأصل .

قلت ، « ليس هذا ، بالطبع ، نصًا بوذيا » .

« كلا . إنه ، كما جاء فى المقدمة ، لوالد ماونت أوليف نفسه »

« إننى أعتقد ... »

إلا أن صراخا مضطربا ارتفع فى مكان ما ، بالقرب منا .تنهد كابوديستريا فى ضيق وهو يفرغ كأس الويسكى فى جوفه . « لست أدرى بحق الشيطان ، لماذا أشارك فى هذا الكرنفال اللعين عاما بعد عام . إن وقت إقامته ، طبقا لعلم التنجيم ، فترة نحس وسوء طالع ـ أقصد بالنسبة لى . إذ تقع فى كل عام حوادث بشعة ، مما يثير قلقى . لقد وجد (آرنل) ، منذ عامين ، مشنوقا فى قاعة الموسيقيين فى بيت آل فونتانا . أليس هذا أمرا مضحكا ؟ لقد كان عملا متهورا لعينا ، إن كان هو الذى شنق نفسه بنفسه . ثم تلك المبارزة التى خاضها مارتن فيرى وجاكوموا فروتى ... إن هذا ليدفع بالشيطان كى يسفر عن نفسه . ولهذا ارتدى زى الشيطان . إننى أحوم فى انتظار أن يأتينى الناس يبيعوننى أرواحهم» وسحب أنفاسه وهو يفرك يديه فى صوت كطقطقة الشواء ، وأطلق قهقته الجافة القصيرة . ثم انتصب واقفا وهو ينهى آخر شريحة من الديك الرومى . « يا إلهى . كم بلغت الساعة الآن ؟ يجب أن أذهب إلى المنزل ، فقد حان موعد نوم بعلزبول»[1].

« وأنا أيضا .... وأنا أيضا » .

قال ونحن نغادر الحجرة مرة أخرى إلى بسطة السلم حيث كانت الموسيقى تغمر المكان بأنغامها ، « أتحب أن أحملك بسيارتى إلى منزلك ؟ من العبث أن نودع مضيفنا ، إذ المحتمل أن يكون سيرفونى نائما فى فراشة الآن » .

نزلنا السلم فى بطء ونحن نتسامر . ولجنا القاعة الكبرى والموسيقى ماتزال تنساب ، بلا انقطاع ، فى صوت رخيم . كان دا كابو قد ثبت قناعه فغدا أشبه بطائر شيطانى غريب . وقفنا برهة نراقب الراقصين ، ثم قال وهو يتثاءب ، «حسنا ، هنا يجدر بنا أن نقتبس من قصيدة كفاف ، (الله يتخلى عن أنطونيو) طبت مساء . إننى لا أستطيع البقاء مستيقظا أكثر من ذلك ، رغم خشيتى أن تكون الليلة مازالت مليئة بالمفاجآت كالعهد بها دائما » .

---

(١) رئيس الشياطين (المترجم) .

جاءت الأحداث مصداقا لما قال . أخذت أهيم ، بعد أن غادر أرقب الرقص ، بعضا من الوقت . ثم هبطت السلالم إلى ظلام الليل البارد . كان هنالك بضع سيارات ليموزين ، والخدم واقفين فى الانتظار قرب البوابات ، يغلب عليهم النعاس . والشوارع قد بدأت تفرغ من الناس ، ولوقع خطاى صدى خشن غريب وهى تطقطق فوق الرصيف. وعاهرتان أوروبيتان ، تقفان عند زاوية فى شارع فؤاد ، تتكآن إلى الحائط تدخنان السجائر فى اكتئاب . نادتا علىّ مرة واحدة فى صوت أجش . كانت كلا منهما تضع فى شعرها زهرة من زهور المانوليا .

كنت أتثاءب عندما مررت بالايتوال لأرى إن كانت ميليسا ماتزال تعمل . كان المكان خاليا إلا من عائلة ثملة رفضت أن تغادر إلى منزلها ، رغم أن زولتان، كان قد كوم المقاعد والمناضد حولهم فوق حلبة الرقص . قال لى زولتان الضئيل، « لقد غادرت مبكرا هذا المساء ، وكذا العازفون والفتيات . لقد غادر الجميع باستثناء هؤلاء الأوباش من أسوان . إن شقيقه من رجال الشرطة ، ولذا فإننا لا نجرؤ على الأغلاق » . وأخذ رجل بدين يرقص هازا كرشه . كان يأتى بحركات ظريفة من ردفيه والجماعة حوله تتابعه بحركة اقدامها دون أن تترك أماكنها . غادرت الايتوال لأمر بمسكن ميليسا الرث الزرى ، يخامرنى أمل غائم فى أن أجدها ماتزال يقظى . أحسست بالحاجة للحديث مع أحد ما . كنت فى حاجة لاقتراض سيجارة منها . هذا كل ما كنت أحتاجه الآن ، ثم تأتى ، فيما بعد ، الرغبة فى معاشرتها ، فى أن أمسك بهذا الجسد الرقيق الحنون ، أستنشق فيه روائح الكحول الحمضية ودخان السجائر ، وافكر طوال الوقت فى جوستين. إلا أن نافذتها كانت مظلمة ، فهى إما نائمة أو لم تعد إلى المنزل بعد . لقد قال زولتان أنها غادرت الايتوال مع مجموعة من رجال الأعمال متنكرين فى زى أمراء البحر . وأضاف فى إزدراء ، « بعض الأعمال التجارية الصغيرة » (*) إلا أن الاعتذار كسا وجهه للتو بعد ذلك .

كان علىّ أن أقضى ليلة خاوية ، والقمر الشاحب المعتم يطل على أمواج الميناء الخارجى . والبحر يلعق ثم يلعق دعامات الرصيف ، ويرق خط الشاطئ فى

(*) فى الأصل بالفرنسية .

بياض الزبد ، ويبرق رماديا كالميكا .وقفت برهة فوق الكورنيش أمزق مركبا ورقيا ، قطعة قطعة . وكل مزقة منه تنفصل عنه ، تنبت صلتها به نهائيا بطريقة جافة خشنة ، كالعلاقات الإنسانية. استدرت إلى منزلى فى كسل وفتور وأنا استعيد فى خاطرى كلمات دا كابو ، « سوف تكون الليلة مليئة بالمفاجآت » .

كانت تلك المفاجآت قد بدأت بالفعل فى المنزل الذى كنت قد غادرته لتوى ، رغم أنى لم أعلم بها ، بالطبع ، إلا فى اليوم التالى . إن المفاجآت تستقبل هنا استقبالا يتسق تماما مع المدينة ـ مدينة تؤمن ايمانا عميقا بالتسليم للقدر ، وكأنها تكاد تكون ، كلية مدينة إسلامية . لا أحد فى الاسكندرية يهتز لمثل تلك المفاجآت ، فالماساة تعيش بيننا ، لتضفى ، فقط ، نكهة على مايجرى بيننا من حديث . إن الحياة والموت ليسا إلا مخاطر القدر التى لايمكن تجنبها . وهما ، إن اقحما فى الأحاديث ، يثيران فيها مشاعر الحيوية وبسمة الرضا بما قدر . إن السكندرى أن أنبأته بنبأ سئ تنثال الكلمات من شفتيه ، « كنت أعرف أن شيئا كهذا لابد وأن يقع . إن مثل تلك الأشياء تحدث دائما » . وهذا ماحدث .

كان فى حجرة النباتات الزجاجية ، فى منزل آل سيرفونى عدد كبير من الأرائك الطويلة عتيقة الطراز ، وقد تكوم فوقها جبل من المعاطف والأوشحة المسائية . وعندما بدأ الراقصون فى الاستعداد للعودة إلى منازلهم ، أخذوا فى خلع أردية الدومينو ، والبحث عن القلانس والفراء ، واعتقد أن بيير هو الذى إكتشف الجثة بينما كان يبحث فى هذا الكوم الهائل من المعاطف ، كالمقبرة ، عن سترة السهرة المخملية ، والتى كان قد خلعها مبكرا فى هذا المساء . وكنت أنا فى ذلك الوقت ، قد غادرت المكان بالفعل ، وبدأت عودتى إلى منزلى .

عثر على توتو دى برونيل وهو مايزال دافئا فى رداء الدومينو ، وقد رفع كفيه ببراثنهما ، فبدتا كظلفين رقيقين صغيرين ، وبدا هو ككلب تدحرج على ظهره ليحك بطنه . كان مدفونا بعمق فى ركام المعاطف ، واحدى يديه تحاول الوصول إلى صدغة الذى أصيب فيه بمقتل إلا أن الحركة ماتت عند بدايتها فلم تكتمل وظلت مرفوعة قليلا عن اليد الأخرى وكأنها تمسك بعصا غير مرئية. كان دبوس قبعة بومبال مفروسا فى جانب رأسه بقوة رهيبة ، فثبته فى قلنسوته المخملية كما تثبت الفراشة . كانت آثينا قد ضاجعت جاك فوق جثته

تماما ـ وهى حقيقة ، لوحدثـت فى ظروف أخرى ، لبعثت فيه بهجة حقيقية . إلا أنه كـان ميتا ، هـذا المسكين توتو ، بـل وما فـاق ذاك ، أنه كان يـرتدى خـاتم حبيبتى « جوستيس !» .

« إن شيئا كهذا يقع ، بالطبع ، كل عام » .

« بالطبع » . كنت ما أزال دهشا متحيرا .

« ولكن ، أن يكون توتو ـ إن ذلك شىء ما كان أحد ، فى الحقيقة ، يتوقعه » .

اتصل بى بلتازار هاتفيا ، حوالى الحادية عشر ، صباح اليوم التالى ، ليخبرنى بالقصة كلها . إلا أن الأمر بدا لى ، وأنا فى تلك الحالة من الذهول والنعاس ، ليس فقط بعيـد الاحتمال ، بل وغير مفهـوم على الاطلاق ، « سـوف يجرى تحقيق فى الأمر ، ولـذا اتصلت بك هـا تفيا . إن نمرود سيبسر الأمـر قدر طاقتـه . سوف يكتفى بشاهد واحد ممن حضروا حفل العشـاء ـ وقد فكرت جوستين أن تكون أنت هذا الشاهد ، إن لم تمانع ؟ حسنا . بالطبع . كلا ، لقد أيقظنى آل سيرفونى فى الرابعة إلا ربعا . كانوا فى حالة سيئـة بسبب الحادثة ، فذهبت إليهم ... لأقوم بما يجب القيـام به . وأخشـى أنهم لم يستطيعـوا حتى الآن معـرفـة ماجـرى بالضبـط . إن الدبوس هو دبـوس قبعة ... نعم ، قبعـة صديقك بومبـال ... إنه يتمتع بحصانـة دبلوماسية ، بـالطبع . إنه كان ثمـلا للغاية أيضا... بـالطبع لايخطر ببال أحد أن يكون هو الفاعل ، لكنك تعرف كيف تعالج الشرطة الأمور . هل هـو مستيقظ الآن ؟» لم أكن اجـرؤ على إيقاظه فى مثـل ذلك الوقـت المبكر ، فقلت له هذا . وقال بلتازار ، « حسنا ، إن مـوته ، على أى حال ، قد هز الكثير من الأوسـاط بما فيها القنصلية الفرنسية » .

قلت وأنـا أحس بالاختناق ، وقـد تجمعت كل هواجـس الأشـهر الأخيرة ، فى قوة ، فوق كاهلى تثقلنى ، « لكنه كان يلبـس خاتم جوستين » . وأحسست أنى مـريض محمـوم ، فاستنـدت إلى الحائط ، قـرب الهاتف لحظـة .بدا لى صـوت بلتازار المرح ولهجته المتروية أشبه بالفحش والبـذاءة . ساد صمت طويل ، ثم قال . « نعم ، إننى أعرف مسألة الخاتـم » . ثم أضاف ضاحكا فى هدوء ضحكة مكتومة ، « إلا أنـه يصعب التفكير فيه كسبب محتمـل . فقد كان توتـو ، أيضا ، عشـيق عمار الغيور . أنت تعرف ذلك . هنالك العديد من الأسباب... »

قلت ، « بلتازار » ، ثم تهدج صوتى .

« ساتصل بك هاتفيا ، إن جد جديد . سوف يكون التحقيق فى السابعة فى مكتب نمرور . سألقاك هناك ، أه ؟ » .

« حسنا . »

أعدت سماعة الهاتف إلى موضعها ، وانطلقت كالقذيفة إلى حجرة نوم بومبال . كانت الستائر مسدلة ، والفراش فى حالة شديدة من الفوضى ، مما يوحى بأنه قد أستخدم حديثا ، إلا أنه لم يكن هنالك من أثر له . كان حذاؤه ومختلف مفردات زى المرأة الغسالة الغريب تتناثر فى الحجرة فى مواضع مختلفة مما بين حقيقة أنه قد أمضى الليلة الماضية فى المنزل . كان شعره المستعار ملقى على بسطة السلم خارج الباب الأمامى : عرفت ذلك لمجيئة المتأخر قرب منتصف النهار ، سمعت خطاه الثقيلة تصعد السلم ، ثم دخل الشقة ، يمسك به بين يديه .

قال . على الفور ، فى إيجاز ، « لقد انتهيت تماما ، انتهيت ياصديقى (*)» كان يبدو محتقن الوجه بصورة لم يحتقن مثلها من قبل ، واتجه إلى كرسى النقرس يجلس عليه ، كأنما يتوقع هجمة مفاجئة لمرضه عليه . أخذ يكرر القول ، « لقد انتهيت » غاطسا فى كرسيه ، متنهدا وهو يتمدد . وأحسست بالارتباك والحيرة ، وأنا أقف هناك فى منامتى . وزفر بومبال زفرة حارة .

قال متجهما وقد أطبق فكيه ، « لقد إكتشفت قنصليتى كل شىء . لقد كان تصرفى ، منذ البداية ، تصرفا سيئا للغاية .... نعم ... إن القنصل العام يعانى اليوم أنهيارا عصبيا ... » وفجأة انهمرت من عينيه دموع حقيقية هى دموع مزيج من الغضب والارتباك والهستيريا . قال وهو يعطس ، « هل تعرف ماحدث ؟ إن المكتب الثانى يعتقد أنى قد ذهبت إلى الحفل الراقص خصيصا كى أدفع بالدبوس فى رأس برونيل ، أفضل عملائنا وأشدهم إخلاصا ، لنا ، هنا ! » .

أخذ ينتحب فى صوت كالحمار ، ودموعة تنساب بطريقة تفوق الخيال ، ثم يتحول نحيبه إلى ضحكات. كان يمسح دموعه المنهمرة لاهثا منتحبا ضاحكا فى ذات الوقت . تدحرج من كرسيه ، وهو مايزال فريسة تلك السورات

(*) بالفرنسية فى الأصل .

والفـورات ، ليستقر كـالقنفد فـوق السجادة ، ويـرقـد هناك فترة مـن الزمـن ينتفض، يتدحرج فى بطء إلى الحائط المبطن بـالخشب ، دموعه تنهال ويضـحك، ثم بدأ يخبـط رأسه ، فى الحائط ، فى حركة إيقـاعية . ويصرخ مع كل دقـة بتلك الكلمة الرائعـة الحبلى بالمعانى ـــ ملخصة كل مايحيـط به من يأس ، « هـراء ، هراء ، هراء ، هراء ، هراء » . (*).

قلت فى وهن ، « بومبال ، بحق السماء ! » .

صرخ من حيث كان على الأرض ، « أخرج من هنـا . لن أكف حتى تخرج من هنا . أرجـوك ، أخرج من هنـا » . غادرت الحجرة ، إشفـاقا عليه ، متـوجها إلى الحمام لآخذ حماما باردا . بقيـت هنالك حتى سمعته يطعم نفسـه خبزا وزبدا من مؤنتنا الغذائية . ثم جاء إلى باب الحمام يـدقه قائلا ، « هل أنت بالداخل ؟» «نعم» . فـأخذ يصرخ مـن شراعة البـاب ، « إنس كـل كلمة قلتهـا لك ، أرجـوك ، أه ؟» « لقد نسيت بالفعل » .

« حسنا أشكرك ياصديقى » (*).

ثم سمعت وقع أقـدامه الثقيلة فى اتجاه غرفته . ظل كل منـا راقدا صامتا فى سريره حتى حانت ساعة الغداء . وصل حميد فى الواحدة والنصف وأعد الطعام الذى لم تتقبله شـهية أيا منا . دق جرس الهاتف ونحن جلوس إلى المائدة . فقمت إليه ، أرد عليه . كانت جوستين . لابد أنها كـانت تفترض سماعى بما وقع لتوتو دى برونيل ، لأنها لم تذكر شيئا عما حدث . قالت ، « أننى أود استعادة خاتمى الفظيع . لقد طـالب بلتازار به . ذلك الذى أخـذه توتو . نعم . لكن يبـدو أنه من الضرورى إن يتعرف أحدهم عليه ويوقـع بذلك ، فى محضر التحقيق، ألف شكر لك لتطـوعك بـالذهاب للشـهـادة . إنك تستطيـع تخيل وضعـى ونسيم ... إنها مسألـة شهادة فقط . ويمكننا ، بعـدئذ ، أن نلتقى ياعـزيزى ، وأن تعيد الخاتم إلىّ.إن على نسيم أن يطير ، بعـد ظهر اليـوم ، إلى القاهـرة فى بعض أعمالـه. هل يمكن أن نحدد موعد لقاء فى حديقة (أورور) فى التاسعة ؟ سوف يوفر لك هذا الموعد متسعـا من الـوقت . إن لدى الكثير الـذى أود أن أتحدث به إليـك . نعم ، يجب أن أذهب الآن . وشكرا مرة أخرى . شكرا لك » .

(*) الفرنسية فى الأصل.

جلسنا مرة أخرى إلى وجبة الغداء ، أشبه بقنين يثقلها شعور بالإثم والإرهاق . وقف حميد ، منتظرا ، حولنا ، يضفى علينا رعايته فى صمت . هل يعرف مايشغل بالنا نحن الاثنين ؟ كان من المستحيل قراءة أى شىء يدور وراء هذه الملامح الرقيقة المجدورة ، وعينه الوحيدة الحولاء .

* * *

-١١-

كـان الظلام قـد حل عنـدما صرفـت سيارة الأجـرة فى ميدان محمـد على ، واتخذت سمتى إلى الإدارة الفرعيـة لرئاسة الشرطة حيث يوجـد مكتب نمرود . كنـت مـاأزال ذاهـلا للمنحـى الذى اتخذتـه الأحـداث ، وأنـا أنـوء تحت ثقـل الاحتمالات التى تبعث اليأس فى النفس ، والتى أثـارها هذا المنحى فى خاطرى - التحذيـرات والتهديـدات التى ثـارت فى الأشهر القليلـة الأخيرة ، والتى عشـت خلالها من أجل شـخـص واحد - جوستين . كنت أتحرق شوقـا إلى رؤيتها مرة أخرى.

كانت الحوانيت مضاءة . وأمام مناضد الصرافين ، الذى يستبدلون النقود ، زحام من البحارة الفرنسيين يحولون فرنكـاتهم إلى طعام ونبيذ وحرير ونساء وغلمان وأفيون - كل أنواع الممارسات المعقولة التى تحقق النسيان . وكان مكتب نمرود يقع فى الجزء الخلفى من مبنى رمـادى عتيق الطراز ، ويصنع زاوية مع الطريق ، وقد بدا الآن مهجـورا مليئا بالطرقات الفارغة والمكاتـب المفتوحة . لقد أنهى كل الكتبة أعمالهم فى الساعة السادسة .كان لوقع أقدامى المتباطئة صداها عبر مأوى البواب الخالى والأبواب المفتوحة . بـدا غريبا أن تسير ، حرا هكذا ، فى مبنى الشرطة دون أن يعترضك أحد . وصلت عند نهايـة الممر الثالث الطويل إلى حجرة نمرود الخاصة به ، فطـرقت بابها . كانت هنالك أصوات بـالداخل . كان مكتبه واسعا حقا ، فخما يـوحى بالعظمة ، يليق بمكانته ورتبته . كـانت نوافذه تطل على باحـة ، حيث كانت تقوق بعـض الدجاجات وهى تنقـر طوال اليوم فى الأرضية الطينية الجافة . وانتصبت فى وسط البـاحة نخلة واحدة مشرشرة تلقى بظلالها الصيفية .

لم أتلق أية استجـابة من داخل الغـرفة ففتحت بابها وخطـوت إلى الداخل ، لأقف حيـث كنت ، فقد أوحـى لى الضوء الساطـع والظلام السائد ، أن هنـالك

عرضا سينمائيا . إلا أنه لم يكن غير فانوس سحرى يعكس فوق الحائط البعيد الصور التى كان يغذيه بها نمرود ، واحدة بعد الأخرى ، من مظروف إلى جواره. تقدمت إلى الأمام ، والنور يبهر عينى ، لاتعرف على بلتازار وكيتس فى غبشة الضوء الفوسفورى الموجود حول الماكينة ، كانت اللمبات الجانبية تنير جانبى وجهيهما بطريقة جذابة .

قال نمرود. وهو يستدير نصف استدارة ، « حسنا ، اجلس » ، دافعا نحوى بكرسى وهو غائب الذهن . ابتسم لى كيتس وقد إمتلأ حماسا ورضاء غامضا عن ذاته . كانت الصور التى يدرسونها ، بهذا القدر من العناية ، هى الصور التى التقطها للحفل الراقص فى منزل آل سيرفونى ، وقد بدت ، وهى على هذا القدر من التكبير ، أشبه بلوحات مائية هائلة تتجسد ثم تختفى فوق الحائط الأبيض . قال نمرود ، « انظر إن كنت تستطيع المعاونة فى التعرف على من فيها». جلست وأدرت وجهى ، ممتثلا ، ناحية الضوء المستعر ، حيث كانت تنداح خيالات دستة من الرهبان المعتوهين الذين يرقصون معاً . وقال كيتس ، « ليست هى الصورة » . كان ضوء المغنسيوم الأبيض قد أشعل النار حول الخطوط الخارجية لشخص الراقصين فى أرديتهم .

إن الصور ، وقد ظهرت فى مثل تلك الأحجام الهائلة ، كانت توحى بشكل جديد من الفن ، شكل تقشعر منه الأبدان ، أكثر من أى شىء تخيله « جويا » الفنان . كان ذلك نوعا جديدا من الأيقونات ـ رسم بالدخان وومضات الضوء الأشبه بالبرق . أخذ نمرود يبدلها فى بطء وإطالة ، سائلا ، « إن كان هنالك من يريد التعليق ؟ » قبل أن يستبدلها بأخرى منتفخة ، تنسخ الحياة الحقيقية أمام أعيننا ، ثم سؤال آخر ، « هل من تعليق ؟ » .

إلا أن الصور لم تكن تصلح البتة لغرض التعرف على من فيها ، كان عددها جميعا ثمانية صور ـ كل منها تمثل بقايا وهمية لشىء ما ، لحفل ـ موت أقامه رهبان شديدو الشبق فى قبو من أقبية العصور الوسطى . صور ما كانت تخرج إلا من خيال دى ساد ! . قال بلتازار ، عندما أخذت الصورة الخامسة تحوم أمامنا فوق الجدار ، « ها هى الصورة التى يظهر فيها الخاتم » . أخذت مجموعة من لابسى البرانس تتطوح فى هياج مسعور وقد تشابكت أذرعها ،

تتمرغ أمامنا فى لذاتها . كانت شخوصهم خالية من أى تعبير كسمك الحبار ، أو كتلك الوحوش الهائلة التى يمكن أن يراها الإنسان ، فى بعض الأحيان ، فى عتمة أحواض حفظ الحيوانات المائية. كانت عيونهم فارغة من أى معنى ، وبهجتهم سخرية واستهزاء بكل ماهو إنسانى . هكذا إذن يعمل محققو محاكم التفتيش فى أوقات فراغهم ! تنهد كيتس فى يأس . ظهر أحد الأشخاص وقد وضع يده فوق ذراع آخر يغطيه رداء أسود . كانت اليد تحمل خطا أبيضا صغيرا ، يمكن التعرف فيه على خاتم جوستين المشئوم .وصف نمرود ، مانراه لنفسه ، وصفادقيقا كمن يقرأ مقياسا . « خمسة مقنعين ... فى مكان ما إلى جوار البوفيه. يمكنك أن ترى جزءا منه .. لكن اليد ، هل هى يد برونيل ؟ ماذا تعتقد ؟ » حملقت فيه وقلت ، « لابد أن تكون يد برونيل ، فجوستين تضع خاتمها فى أصبع آخر ».

قال نمرود منتصرا ، « هيه » ، ثم أضاف ، « تلك نقطة جيدة » نعم ، ولكن من هى الشخوص الأخرى التى التقطتها ، من العدم، عدسة التصوير مصادفة وعرضا ؟ وحملقنا فيهم ، وحملقوا فينا عبر شقوق خوذاتهم كالقناصة .

أخيرا قال بلتازار متنهدا ، « لاجدوى » . أوقف نمرود الآلة بطنينها . عادت الأنوار الكهربية العادية إلى الحجرة ، بعد لحظة من الظلام . كان مكتبه مكتظا بأوراق مطبوعة معدة للتوقيع ـ ولم يخامرنى شك فى أن تلك هى محضر التحقيق . رقدت ، فوق قطعة مربعة من حرير رمادى ، حاجيات كثيرة لها علاقة مباشرة بما تطفح به افكارنا ـــ دبوس القبعة الكبير برأسه القبيحة الحجرية الزرقاء ، وخاتم معشوقتى العاجى والذى لم يكن فى وسعى أن أراه ، حتى الآن ، دون شعور باللوعة .

قال نمرود وهو يشير إلى الورقة ، « وقع هنا . اقرأ نسختك ، ثم وقع » . سعل واضعا يده على فمه ، ثم أضاف فى صوت أكثر خفوتا ، « فى وسعك أن تأخذ الخاتم » .

ناولنى بلتازار الخاتم ، الذى أحسست به باردا ، وقد غطته طبقة رقيقة من المسحوق الذى يستخدم للتعرف على بصمات الأصابع . نظفته مما علق به بربطة عنقى ، ثم وضعته فى جيب سروالى الصغير الأمامى . قلت له ، «شكرا» وأنا أجلس إلى المكتب لأقرأ نص ماكتبته الشرطة ، بينما أشعل الآخرون سجائرا

وهم يتحدثون فى أصوات خفيضة ـ رقدت إلى جانب الأوراق المكتوبة، على الآلة الكاتبة ، أوراق أخرى مكتوبة بخط الجزال سيرفونى الضحل المضطرب . كانت تلك هى قائمة المدعوين إلى حفل الكرنفال الراقص ، وهى ماتزال تحمل صدى الأسماء الشاعرية المهيبة ، والتى غدت تعنى الكثير بالنسبة إلىّ . أنها أسماء السكندريين . واستمع إليها :

بيادى تولومى ، بنيديكت دانجو ، دانتى بورومبو ، الكولونيل نجيب ، توتو دى برونيل ، ويلموت بييريفو ، محمد آدم ، بوزو دى بورجو ، أحمد حسن باشا ، دلفين دى فرانكويل ، جمبلاط بك ، أثيناتراشا ، حداد فهمى أمين ، جاستون فيبز ، بيير بالبز ، جاك دى جيرى ، الكونت بانوبيولا ، أونوفريوس باباس ، ديمترى راندیدى ، بول كابو ديستريا ، كلود أماريل ، نسيم حصنانى ، تونى أمبادا ، بالداسارو تريفيزانى ، جيلدا أمبرون .

كنت أتمتم الأسماء ، وأنا أقرأها فى القائمة ، مضيفا إليها ، فى عقلى ، كلمة «قاتل» . بعد كل منها ، لأرى إن كان لها الصدى المناسب . لكننى ما أن وصلت إلى اسم نسيم حتى توقفت ورفعت عينى أنظر إلى الحائط المظلم ـ كى ألقى بصورته ، التى فى خاطرى ، هناك ، أدرسها كما درسنا مختلف الصور . مازلت أرى ذاك التعبير الذى ارتسم على وجهه ، وأنا أعاونه ليدخل سيارته الكبيرة ـ تعبير غريب مفعم بسكينة شيطانية ، أشبه بإمرئ ركن إلى الراحة بعد أن استنفد قدرا كبيرا من طاقته .

* * *

ـ ١٢ ـ

كان شاطئ البحر يزهو بالأضواء رغم الشتاء ، وخطوط الكورنيش الطويلة المنحدرة تتثنى بعيدا ، تتلاشى فى أفق يميل إلى الهبوط ، وآلاف النوافذ الزجاجية تشع بالأنوار ، وخلفها جلس سكان الحى الأوروبى من المدينة ، كأسماك استوائية رائعة ، إلى مناضد متألقة عامرة بزجاجات المستكة والينسون أو البراندى . أمسك الجوع بتلابيبى وأنا أرقبهم (فلم أتناول من الغداء غير النزر القليل) . دلفت إلى « دياموند سوترا » بأبوابه المتألقة ، إذ كان لدى متسع من وقت قبل أن التقى بجوستين ، وطلبت شطيرة لحم خنزير وكأسا من الويسكى . بدأت ، مرة أخرى ، وكما يحدث على الدوام عندما تغير الأحداث الخارجية للدراما النموذج العاطفى للأشياء ، بدأت أرى المدينة بعينين جديدتين ـ أفحص أشكال البشر وهيئاتهم ، على طريقة عالم الهوام والحشرات الذي يعكف على دراسة نوع من الحشرات غير معروف حتى الآن . هنا ، أمامى ، كان هذا الجنس البشرى وقد استغرق كل فرد فيه فى حل همومه الفردية ، ما يحب ومايكره وما يخاف . وامرأة تحصى النقود فوق منضدة زجاجية ، وعجوز تطعم كلبا ، وعربى يرتدى طربوشا أحمرا كأصيص الورد وهو يسدل ستائره .

دخان عطرى ذكى الرائحة ينثال من حانات البحارة الصغيرة المتناثرة على امتداد الشاطئ ، حيث الأسياخ الحديدية المحملة بشحنة من الأحشاء المتبلة ، تقلب على الجمر بطريقة رتيبة إلى الأمام وإلى الخلف . وحيث القدور النحاسية اللامعة تندفع منها ، عند رفع أغطيتها ، لفحات ساخنة تحمل روائح سمك الحبار والحمام . هنا يشرب المرء من طاسات زرقاء ويأكل بأصابعه كما يفعل االسيكلاد (Cyclades) حتى هذه الأيام .

أوقفت عربة حنطور متداعية . أخذت أتسكع بها ، صوب مقهى «الاورور» ،

على امتداد البحر وهو يتنهد . أنا مفعم ، فى هذا الظلام المضاء ، بمشاعر الندم والمخاوف الشاردة التى أعجز عن تحليلها . إلا أننى كنت أحس فيما وراء ذلك (كما تحس الضفدعة الكامنة تحت حجر بارد ، بهواء الليل المنطلق) بهواجس مرعبة كلما راودتنى فكرة أن تكون جوستين ذاتها معرضة للخطر بسبب الحب ، « الذى يحمله كل منا للآخر » . قلبت الفكرة فى رأسى هنا وهناك ، كسجين يضغط بكل ثقله على أبواب تنكر عليه حق الخلاص من هذا القيد الذى لافكاك منه ، محاولا تدبير مخرج من هذا الوضع الذى نحن فيه ، والذى قد ينتهى ، كما يبدو ، بموتها وموتى .

كانت السيارة الكبيرة فى انتظارى وقد وقفت بعيدا عن الطريق فى الظلام تحت اشجار الفلفل . فتحت لى الباب فى صمت ، فدخلت وأنا مأخوذ بمخاوفى .

أخيرا قالت ، « حسنا » . ثم أنّت أنّة قصيرة عبرت بها عن كل شىء . غاصت بين ذراعى ضاغطة شفتيها الحارتين على شفتى . « هل ذهبت ؟ هل انتهى الأمر؟ » .

أدارت السيارة وبدأت سيرها ، فنثرت عجلاتها الحصى من حولها ، متقدمة فى لحظة الغروب اللؤلؤى على امتداد طريق الساحل إلى الصحراء . أخذت أفحص بروفيلها السامى الحاد السمات فى الضوء الناعم الذى كان ينعكس من الأجسام العادية على جانب الطريق ، عندما تقع عليها أنوار المصابيح الأمامية . كانت عميقة الانتماء إلى المدينة التى رأيتها الآن ، كسلسلة من الرموز التى تمتد بعيدا عنا على جانبى الطريق ــ المنائر والحمام والتماثيل والسفن والعملات والجمال والنخيل وهى تعيش كلها فى علاقة وثيقة بتلك المساحات الخلوية البرية المرهقة التى تحيط بها ــ بمنحنيات البحيرة الكبرى : تنسجم مع هذا المشهد ، كما ينسجم أبو الهول مع الصحراء ، .

قالت ، « خاتمى ، هل أحضرته ؟ » .

« نعم » . صقلته ، مرة أخرى ، بربطة عنقى ، ووضعته ، مرة أخرى ، فى أصبعها الذى يليق به .قلت بطريقة لا إرادية « جوستين ، ماذا سيحل بنا ؟ » .

نظرت إلىّ نظرة برية عابسة ، أشبه بامرأة بدوية ، ثم ابتسمت تلك الابتسامة الدافئة ، « لماذا ؟» . « أنت ، لاشك ، تدركين . يتحتم علينا أن نوقف كل

هذا تماما . إننى لا أطيق احتمال تعرضك للخطر ... وإلا فإننى سأذهب إلى نسيم مباشرة واواجهة .. » أواجهه بماذا ؟ لم أكن أعرف .

قالت فى نعومة ، « كلا ، كلا . أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك . إنك انجلو ساكسونى ... لاتستطيع أن تتخطى القاعدة هكذا . هل تستطيع ؟ إنك لست واحدا منا ، كما أنك لن تخبر نسيم بجديد لايخمنه ، إن لم يكن يعرفه بالفعل ... ياعزيزى » . وضعت يدها الدافئة على يدى ، « خذ الأمور فى بساطة وانتظر .. ومارس الحب قبل كل شىء ... وسوف ترى » .

إن مايثير دهشتى الآن ، أن أدرك ، وأنا أسجل هذا المشهد ، أنها كانت تحمل فى أعماقها موت بورسواردن (كما تحمل امرأة جنينا غير مرئى فى شهوره الأخيرة) . كانت قبلاتها ، كما أعرف تمام المعرفة ، تقع على صورة صديقى المطبوعة على قناع موت الكاتب الذى لم يكن يبادلها الحب ، وكان ، فى الحقيقة يهزأ بها . لكن مثل ذلك الشىء الشيطانى ، الذى هو الحب ، لايثير دهشتى ، فقد أثرى موت المحبوب ، وعلى نحو غريب ، معاشرتنا لبعضنا البعض ، مالئا إياها بكل أشكال الغش والخداع التى تتغذى عليها عقول النساء ـ إنها سماد الملذات السرية والغدر والمخاتلة ، والتى هى جزء لايتجزأ من كل علاقة إنسانية .

ومع ذلك . فما الذى أشكو منه ؟ لقد ملأ هذا الحب المنقوص قلبى حتى فاض . إنها هى التى لديها سببا للشكوى ، إن كان لأحد أن يشكو . من العسير أن يفهم المرء مثل تلك الأشياء . هل كانت تدبر حينئذ هربها من الإسكندرية ؟ ويكتب بورسواردن ، « إن قوة المرأة تكمن فى أن قبلة واحدة منها يمكن أن تكشف حقيقة حياة الرجل وتقلبها .. » . ولكن ، لماذا استمر فى هذا ؟ لقد كنت أجلس سعيدا إلى جوارها وأنا أحس دفء يدها وهى ترقد فى يدى .

كان الليل الأزرق تشوبه النجوم ، والصحراء يقظى تمتد بعيدا على الجانبين، بمدرجاتها الهائلة ، كحجرات خالية ، فى قصر ضخم من الغيوم ، فى فلك دوار .طلع القمر ، فى تلك الليلة ، متأخرا شاحبا .كان الهواء ساكنا ، وقد نحتت الرياح كثبان الرمال . قالت حبيبتى ، « فيم تفكر ؟ » .

فيم أفكر ؟ أفكر فى مقطع من بروكلوس يقول فيه أن أورفيوس قد تسلط على الجنس « النقى كالفضة » ، أى الذين عاشوا حياة « نقية » ، كتلك التماثيل التى

يضعها بلتازار فوق رف المدفأة تحت نجمة فيثاغورس الخماسية السحرية ، تماثيل منظفى الأنابيب ، والتماثيل الهندية المنحوتة من الخشب لقردة ثلاث لاترى ولاتنطق ولاتسمع الإثم . فيم أفكر ؟ أفكر فى الجنين فى برنسه الشمعى ، فى الجراد المنقض على سنابل القمح ، فى عربى يقتبس قولا مأثورا يجد صداه فى العقل ، « إن ذاكرة الرجل قديمة قدم المصائب والبلايا » . وفى طيور السمان تنساب ، من قفص محطم ، إلى الأرض فى نعومة انسياب عسل النحل ، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن الهرب . وفى بازار العطور وقد فاحت منه رائحة البنفسج الفارسى .

قلت فى صوت مرتفع . « منذ أربعة عشر ألف سنة ، كانت نجمة النسر الواقع ، هى النجم القطبى . انظرى إليها وهى تحترق » .

استدارت رأس المعشوقة بعينيها العابستين العميقتين . رأيت فيهما ، مرة أخرى ، القوارب الطويلة وهى تسحب ليركبها الفراعنة ، مياه المد والجزر وهى تتدفق ، وتلمع المآذن بالندى ، وضوضاء جحا الأعمى الصارخ فى صوت خلد ماء هاجمه ضوء الشمس ، وقافلة جمال تسير فى خطى متثاقلة تتجمع فى حفل تحمل فوانيس معتمة . وامرأة مصرية ترتب سريرى ، تضرب الوسائد حتى تنفش كبياض بيضة تضربه مخفقة . ومقطع من كتاب بورسواردن يقول : « ونظر كل منهما للآخر وهما يدركان أن ليس لديهما مايكفى من القوة والشباب ليمنع انفصالهما عن بعضهما البعض » . عندما حبلت ميليسا من نسيم ، لم يستطع أماريل اجراء عملية الأجهاض التى كان يبتغيها نسيم بشدة بسبب مرضها وضعف قلبها ، وقال ، « أنها يمكن أن تموت ، على أى حال » . وأوما نسيم فى اقتضاب وتناول معطفة . إلا أنها لم تمت حينئذ ، وظلت حبلى بالطفلة .

وجوستين تقتبس مقطعا باليونانية لا أعرفه .

رمال الإسكندرية وزهورها البرية وصخورها البيضاء .

وعلامات البحر التى ترشد الملاحين .

وكثبان تنثال تصب الرمال

فى الماء والماء فى الرمال .

لا فى نبيذ المنفى .

الذى لوث الهواء الذى صب فيه
أو صوت يلوث العقل .
يغنى بالعربية « سفينة بلا شراع .
كامرأة بلانهدين » . هو ذاك فقط
هو ذاك فقط .

سرنا يدا فى يد عبر الكثبان الرملية الناعمة ، نجاهد كالحشرات ، حتى بلغنا «تابوزيريس » بما فيها من ركام أعمدة محطمة ذات تيجان ، فيما بين علامات البحر التى تآكلت بفعل التجوية . (يقول كولريدج [1]. « إن اختزان الإحساس قد يدوم ، فى حالة كمون ، زمنا غير محدود ، بذات الترتيب الذى انطبع به فى النفس») . هذا حق ، إلا أن الترتيب الذى يقوم عليه الخيال ليس هو بذاته الترتيب الذى اختزنته الذاكرة . هبت ريح خفيفة من الأرخبيل الإغريقى وكان البحر ناعما كخد بشرى إلا أطرافه التى كانت تتنهد مضطربة ـ إن تلك القبلات الدافئة تظل هناك فى مكانها وقد بترت عما سبقها وعما لحقها ، تدوم فى موقعها الصحيح أشبه بالشفافية الهشة لنباتات السرخس أو الزهور وقد ضغطت بين غلافى كتاب قديم ـ متفردة لاتذبل كالذكريات التى تمثلها وتستدعيها : ونغمة موسيقية تنساب من جيتار منسى منذ الكرنفال ، تظل أصداؤها فى شوارع الإسكندرية المظلمة ، طالما ظل الصمت قابعا ...

لم أعد أرى فينا رجالا ونساء ،إنهم مجرد أدوات انتفخت بأعمالها المنسية وحماقاتها ومكرها وخداعها ـ إننى أرى بشرا يشكلون جزءا من المكان ، دون وعى منهم بذلك . لقد دفنوا حتى أوساطهم بين أنقاض مدينة فريدة ، وغطسوا فى قيّمها ، كتلك المخلوقات التى كتب عنها امبيدوكليس ، « أعضاء منفردة تهيم بحثا عن وحدتها ببعضها البعض » ، أو كما يكتب فى مكان آخر ، « الحلو يقع على الحلو، المر يندفع نحو المر، الحامض يقبل على الحامض. والدافئ يقترن بالدافئ » . انهم كل قاطنى المدينة الذين تقبع أفعالهم خارج نطاق تدابير الروح وتغاضيها : إنهم السكندريون .

---

(١) كولريدج ، صموئيل تايلور (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) شاعر رومانتيكى انجليزى (المترجم) .

استندت جوستين إلى عمود من أعمدة تابوزيريس كان واقعا إلى الأرض ، ورأسها الفاحم نحو المياه المعتمة المتنهدة ، وخصلة من شعرها تطيرها رياح البحر ، وهى تقول، « هنالك جملة واحدة تعنينى ، فى كل اللغة الانجليزية ، وتلك كلماتها ، « زمن ماقبل الأزل » .

كم تبدو تلك الأمسية المنسية نائية وبعيدة وهى ترى عبر شاشات الذاكرة المتقلبة المتغيرة . كان هنالك الكثير من أيامنا ، علينا اجتيازه ، حتى يحين الموعد الكبير لصيد البط ، والذى دفع فجأة ، وفى عجالة ، بالتغيير النهائى ـ واختفاء جوستين نفسها . إلا أن كل ذلك ينتمى إلى اسكندرية أخرى ـ تلك التى ابتدعها عقلى ـ والتى جاءت حواشى بلتازار وتعليقاته لتغير كل ما كان مسلما به ، إن لم تكن قد دمرته .

ويكتب بلتازار ، « إن تداخل الحقائق هو الطريقة الوحيدة كى تكون أمينا مع الزمن : إذ أن الزمن ، حاشد فى كل لحظة باحتمالات لانهائية التكاثر . والحياة تتوقف على فعل الاختيار ، أبدية الدينونة، وأبدية الإنتقاء » .

اننى أرى بعينين جديدتين ، من هذا الموقع المتميز لهذه الجزيرة ، كل الأشياء فى ثنائيتها ، من تداخل الحقيقة بالوهم . تنتابنى الدهشة ، وأنا أعيد قراءة الحقيقة وإعادة صياغتها فى ضوء كل ما أعرفه الآن . إن مشاعرى ذاتها قد تبدلت ونمت ، بل وعمقت . اذن ، ربما كان تدمير اسكندريتى ضروريا . (إن العمل الفنى الأصيل لايبدى أبدا وجها مستويا) . وربما طمرت بذرة الحقيقة ومادتها فرقدت هناك فى باطن كل هذا كحق من حقوق الزمن — وهى إن استطعت أن أتوافق معها ، ستقودنى قليلا إلى ماهو حقا بحثا عن ذاتى كما يجب أن تكون . ولسوف نرى .

* * *

- ١٣ -

والـدكليـا ، الذى تبجلـه ، عجـوز أشيـب ، منتصـب القـامة ، فى عينيـه اشفـاق قلق على ابنته الشابـة ، الإلهة غير المتزوجة ، التى أنجبها . كانـا يرقصان معا ، مرة فى العام بمنـاسبة رأس السنة فى فندق سيسيل ، يـرقصان فى عظمة وأدب وظرف . كـان يرقص الفالـس بخطى منتظمة دقيقـة كالساعة . » كتبـت هذه الكلمات ، ذات مرة ، فى مكـان ما . وهـى ذاتها تستحضر الآن إلى ذهنى مشهـدا آخر ، ومتتاليات أخرى من الأحداث .

جاء والدها العالم العجوز ليجلس إلى منضدتى . كان يحس نحوى بضعف خـاص . لا أدرى لماذا ، لكنه كـان يتحدث معـى دوما بلطـف وتواضـع ، بينما نجلس معا نرقب ابنته الجميلة وهـى تدور حولنا بين ذراعى واحد من المعجبين بها ، رشيقة للغاية أيضا . « مازالت تحمل الكثير مما فى طالبة أو فنانة . لقد وقع الليلة بعض النبيذ على دثارها فارتدت معطفا واقيا من المطرفوق رداء السهرة . وأكلت ماوجـدته من حلوى الطـوفى جيب المعطف . إننى لا أدرى مـاذا كانت تقول والـدتها لو كانت مـاتزال حية » . شربنـا فى هدوء ونحن نرقـب الأضواء الملونة وهى تـرفرف بين الراقصين . قال .« أحس وكأنى خـاطبة عجوز . انظر حولى دوما بحثا عن شـخص يتزوجها .. إن سعادتها تبدو لى ، على نحو ما ، أمرا هاما للغاية . اننى أفسد الأمر بفضولى وتدخلى ... ومع ذلك فإننى غير قادر على تركها بمفردها ... لقد دبـرت بائنتها على مر السنين ... والنقود تحرق جيبى... فعندمـا ارى شابا انجليـزيا مثلك ، تدفعنـى غريزتـى لأقول ، (خذهـا ، بحق السماء ، واعتنى بها) ... لقد كانت تربيتها يتيمة دون أم ترعاها متعة مُرة. أه ؟ لا يـوجد أحمق يضـاهى العجـوز الأحمق » . ثـم يسير متوتـرا إلى البار وهـو يبتسم.

فى تلك الأمسيـة جاءت كليا لتجلس إلى جـوارى فى الخلوة التى كنـت أجلس فيها ، تـروح لنفسها وتبتسم .« لم يتبقى على منتصـف الليل غير ربع سـاعة . يالسنـدريلا المسكينة ، علىّ أن آخذ والـدى إلى المنزل قبل أن تدق السـاعة وإلا افتقد روعة موعد نومه » .

تحدثنا ، حينـذاك ، عن عمار الذى كـانت محاكمته بتهمـة قتل برونيـل قد انتهت ، فيما بعد ظهر ذلك اليوم، ببراءته لعدم كفاية الأدلة .

قالت كليا فى نعومة ، « أعرف ذلك ، وأنا سعيدة لهذا الحكم الذى انقذنى من أزمة ضمير (*) . فأنـا أعرف أنه لم يفعلها . لماذا ؟ لأننـى ياعزيزى أعـرف من فعلها. ولماذا ... » . ضيقت عينيها الرائعتين واستمرت ، «إنها واحدة من قصص الإسكندريـة ـ هل أخبرك بها ؟ شريطة أن تحتفـظ بها سرا . هل تعدنى بـذلك ؟ إقبرها مع السنة التى أدبرت ـ مع كل بـلايانا ونزواتنا ، التى لا بد وأنك أتخمت بها ، أليس كذلك ؟ حسنا . استمع . كنت أرقـد فى فراشى ، ليلة الكرنفال أفكر فى صورة ـ صورة جوستين الكبيرة . كان بها خطأ فنى لم أستطع أن أحدد كنهه ، وإن كنـت أشك فى اليـدين ـ هاتين اليـدين السمـراوتين الجميلتين . كنت قـد رسمتهما فى مـوضعهما بأمـانة تـامـة . لكن شـىء مـا كان غير متسـق فى التكويـن الفنى ، مما أثار قلقـى حينذاك . كان ذلك بعد شهور من انتهـاء رسم اللوحة ، دون أن أدرى لذلـك سببا . وفجأة قلـت لنفسى ، « هـاتان اليدان فى حـاجة إلى إنعام النظر فيهما » . أحضرت اللوحة من المرسم إلى حجرتى ، حيث اسندتها إلى الحائط ، إلا أننى لم أتوصـل ، حقا ، إلى بغيتى . فأمضيت الليلـة أدخن، وارسم ليديها رسوما تخطيطية من الذاكرة ، فى مواضع مختلفة . فكرت أن السبب ربما يعود إلى ذلك الخاتـم البيزنطى الذى تلبسـه . إلا أن كل مافكرت فيـه كان عبثا حتى اقترب منتصـف الليل فكففت ، واستلقيـت على الفراش أدخن وقـد رقدت قطتى عند قدمى .

« كانـت تمر فى الشـارع ، مـن حين لآخر ، مجموعـات من النـاس ، تغنى أو تضحك ، إلا أن المدينة كانت تخلو بالتدريج . فقد بات الوقت متأخرا .

« فجأة سمعـت ، فى قلب هذا الصمـت ، وقع أقدام تجرى بكـل سرعتها . لم أسمع أبدا مـن يجرى بمثل هذه السرعة أو الخفة . كنت أفكـر ، وأنا اسمع ، أن

(*) بالفرنسية فى الأصل .

مشاعر الخطر والرعب والكرب هـى وحدها القادرة على أن تمنح أى إمرئ مثل هذه السرعة المندفعة المجنونة . جاء وقع الأقدام بهذه السرعة الخطرة المهلكة من شارع فـؤاد ، ثم استدار عند النـاصية إلى شارع سانـت سابا ، وقد أخـذ ، مع الوقت ، يزداد ارتفاعا .عبرت الاقدام الشـارع ثم توقفت ، ثم عادت تعبره عودة إلى الجانب الذى فيه منزلى . وعلا رنين الجرس بصورة وحشية .

«جلست وأنـا أحس المفـاجأة بعـض الشىء ، ثـم أضأت النـور لانظر الـوقت فى ساعتـى . من ذا الذى يأتينـى فى مثل ذلك الوقـت ؟ عاد الرنين ، وأنا جـالسة ، مترددا فى ضغطتين طويلتين . حسنـا ! كانـت وصلة البـاب الأمامـى الكهربيـة مقطوعة ، كدأبها عند منتصف الليل ، لذا لم يكن هنالك مفر من نزولى إلى أسفل ورؤية من الطارق . فارتديت لباسـا منزليا ووضعت المسدس فى جيبى وهبطت السلم لأرى . كان هنالك خيال فوق زجاج البـاب الأمامى الذى كان سميكا فلا يبين من ورائه أحد .لذا كان علىّ أن افتحه ، وقـد وقفت إلى الخلف قليلا ، وقلت ، « من هناك ؟» .

«وقف رجـل بالبـاب ، يبدو معلقا فى ركنـه كالوطـواط . كان يلهـث ، إذ كنت أرى صدره صاعـدا هابطا ، لكن صـوتا لم يصدر عنه . كـان يرتدى الدومينـو وقد أزيح غطاء رأسه إلى الخلف فاستطعت أن أرى وجهه فى ضوء مصباح الشارع . خفتّ ، بالطبع ، للحظة. بدا وكأنـه يوشك على الإغماء . مضت عشر دقائق حتى استطعت أن أحدد اسما لهذا الوجه القبيح بشفتـه الضخمة القاسية المشقوقة ، غمرنى شعـور بالإرتياح ، وأحسست بإبر ودبـابيس توخز قدمـى . هل تعرف من كان ؟ كـان شعره ملبدا بالعـرق ، بدت عيناه فى هذا الضـوء الشاحب كبيرة للغاية ـ زرقاء وطفولية . عرفت فيـه شقيق نسيم غريب الأطوار ـ ذلك الذى لم يره أحد ـ ناروز الحصنانى . كان التعرف عليـه لمحة بارعة من ذاكرتى . إننى اتذكره فقط بطريقة ضبابية عندمـا أخذنى نسيم إلى أراضى الحصنانى لأركب الخيل . ولـك أن تتصور جـزعى عندمـا رأيته هكـذا ، دون توقـع ، فى منتصف الليل.

« لم أدر ماذا أقول . كان يحاول من جانبه أن ينطق شيئا ، إلا أن الكلمات لم تطاوعه . بدا كأنه لا يمتلك غير جملتين انحشرتا فى مقدمة عقلة كخرطوشتين فى

ماسورة بندقية تسد كل منهما الطريق أمام الأخرى . مال إلى الداخل نحوى متخاذلا شاحبا شحوب الموتى وقد تدلت ذراعاه إلى أسفل ، إلى تحت ركبتيه تقريبا ، مما جعله أقرب إلى خيال اسود لقرد من القردة ، يتحدث بنقيق كالضفدع . لايجب أن تضحك ، فقد كان مثيرا للرعب والهلع . ثم سحب نفسا عميقا ، ضاغطا عضلاته حتى تطاوعه . قال فى صوت خافت كصوت الأراجوز ، « لقد جئت أخبرك بحبى لك ، لأننى قتلت جوستين » . شككت للحظة أنه يمزح سألته وانا اتلعثم ، « ماذا ؟» وكرر ماقال فى صوت أكثر خوفا ، فى همس ، بطريقة آلية كطفل يعيد درسا . « لقد جئت لأخبرك بحبى لك ، لأننى ، قتلت جوستين » ثم أضاف فى صوت عميق ، « أوه ياكليا ، لو تعرفين مقدار كربى». ثم نهنه باكيا وقد سقط إلى ركبتيه جاثيا فى البهو ، ممسكا بزيل ردائى المنزلى ، محنى الرأس وقد سالت دموعه من أنفه .

« لم أدر ماذا أفعل ، أحسست بالرعب والاشمئزاز ، ومع ذلك لم أستطع منع نفسى من الشعور بالأسف والأسى . كانت تصدر عنه مابين الفينة والفينة صرخة خشنة ، أشبه بالضجة الصادرة عن ناقة صارخة أو لعبة آلية مخيفة . لم تكن تماثل أى شىء رأيته أو سمعته من قبل أو من بعد . وانتقلت رجفته إلىّ عبر طرف ثوبى الذى كان يمسك به بين أصبعين من أصابعه .

« قلت له أخيرا ، «انهض» . فرفع رأسه وهو ينق كالضفدع، « أقسم أنى لم أقصد قتلها . لقد وقع ما وقع قبل أن افكر فى الأمر . لقد وضعت يدها علىّ ياكليا . عرضت نفسها علىّ .ياللبشاعة . زوجة نسيم » .

«لم أدر ما الحقيقة فى كل هذا الذى قال . هل أصاب جوستين بالأذى ؟ . قلت له ، « اتبعنى إلى أعلى ، إلى شقتى» . وقبضتى تزداد تشددا على مسدسى الصغير . فقد كانت تعبيراته تثير الخوف .« انهض الآن » . قام للحال مطيعا . تبعنى إلى أعلى ، إلا أنه كان يستند بثقل إلى الحائط ، يهمس لنفسه بأشياء لارابط بينها . كانت ، كما اعتقد ، اسم جوستين ، وإن بدت لسمعى أقرب إلى جوستيس) .

«قلت له . « أدخل ريثما استخدم الهاتف » . فتبعنى فى بطء . وقد أصاب الضوء عينيه فكاد يعميه . توقف لحظة إلى جوار الباب حتى يعتاده ، وهنا رأى

اللوحة ، فصرخ فى قـوة هائلة ، « هذه الثعلبـة اليهودية نخرت حيـاتى» . وأخذ يضرب فخذيه بقبضته مرات عدة . ثـم وضـع راحتيه على وجهه وتنفس بعمق . ظللنا هكـذا وجها لوجـه ، بينما كنت أفكـر ، ماذا علىّ أن أفعل . كنـت أعرف أن الجميع قـد ذهب إلى الحفل الـراقص الـذى يقيمه آل سيرفونـى . وكان علىّ أن أتصل بهم لأكتشف إن كان هنالك أى قدر فى الحقيقة فى كل هذه القصة .

« فى تلك الأثناء فتح ناروز أصابعه وأخذ يرمقنى بنظرات مختلسة ، « جئت فقط لأخبرك بحبى لك قبل أن أسلم نفسى إلى أخى » . ثم فرد أصابعه فى حركة يائسة وقال ، « هـذا كل ما فى الأمر » . « ما أقسى الحب وما أشـد إثارته للقرف والاشمئزاز ! ها ذى أنا محبوبة من مخلـوق منذ زمن لا يعلم مداه إلا الله ـ وأنا لا استطيع القول إنـه إنسان ـ مخلوق لم أحـس أبدا بمجرد وجوده . كـان كل نفس من انفـاسى ، دون وعى منى ، مصـدر عذاب له لم أشعر بـه أبدا . كيف وقعت تلك المصيبـة ؟ يجب أن يكون هنالك مكـان فى افكارك لمثل تلك المشـاعر المتنوعـة والتى تصدر عـن الحيوان . كنـت غاضبة مشمئـزة وجريحة فى ذات الوقـت . أحسست انى مدينـة له بالاعتـذار ، كما أحسست أيضا بالمهـانة لهذا التطفل بحب لم أسأله أن يطوقنى به .

« بدا ناروز وكأنه محموم للغاية . اصطكـت أسنانه . أخذ ينتفض فى نوبات عنيفة . قدمت له كأسا من الكونياك ، فجرعه دفعة واحدة . قدمت له كأسا آخر ، أكبر مـن الأول ، فأخـذ يشربه فى بـطء . وهو يغطـس إلى السجادة متربعـا كما يجلس العرب . همس قائلا ، « أخيرا ، أحس بالتحسـن» . ثم أضاف وهو ينظر فى حزن حـوله ، « هـذا إذن المكان الـذى تعيشين فيه . كـم تمنيت أن أراه منـذ أعوام. كنت أرسم له دوما صورة فى مخيلتـى ». ثم عبس وسعل وسوى شعره إلى الخلف بأصابعه .

« اتصلت هاتفيا ببيت آل سيرفـونى . استطعت أن اتحدث ، على الفور ، مع نسيم . سـألته فى لبـاقة دون أن أفصح عـن أى شىء . إلا أنـه لم يكن هنـالك مايخيف ، بقدر ما استطعت أن أحكم من المكالمة ، رغم أنه لم يستطع أن يحدد ، فى تلك اللحظـة ، مكان جوستين . كـانت هنالـك فى مكان مـا فى قاعة الـرقص . واستمع ناروز إلى كل هذا ، محملقا فى دهشة ، لايكاد يصدق مايسمع . قلت له ،

« إنها على موعد معهـم ، فى البهو ، بعد عشر دقائق . أكمل شرابـك وانتظر حتى تتصل بنا جوستين ، وحينئـذ سوف تعرف أن خطأ ما قد حـدث» . أغلق عينيه وبدا كأنما يصـلى ..

« جلست على الأريكـة أمامه ، لا أدرى بالضبـط ماذا أقول . سألتـه ، « ماذا حدث بالضبط » . . فجأة ضاقت عيناه حتـى صغرتا ، وكست الريبة ملامحه . تنهد وقـد تدلت رأسـه . أخذ يتابـع نقوش السجادة بـأصبعه . همس بشفتين مرتعشتين ، « إننى لا أود لك أن تسمعى ماحدث » .

« ظللنا هكذا ، وفجأة أثار ضيقـى واشمئزازى العميقين ، إذ بدأ يتحدث عن حبه لى وإن كانت لهجتـه كمن يحدث نفسه . بدا كأنما قد نسـى وجودى ، فلم ينظر أبدا فى وجهى . أحسست بالـرعب الذى ينتابنى ، بضرورة أن أعتذر ، كلما أعجب بى أورغبنى أحد وعجزت عن أن أبادله مشاعره . كنت خجلة أيضا ، على نحو ما ، وأنا انظـر إلى ذلك الوجه الوحشى الذى لطخته الـدموع .كان ذلك ، فى بساطة ، لأننـى لم أكن أحس نحوه بأدنـى مشاعر الإثارة أو التعـاطف . جلس هنالك ، فوق السجـادة ، كضفدع بنى ضخم ، كساكن الكهـوف ، فى رواية ما . ماذا كان علىّ أن أفعـل بحق الشيطان ؟ وسألته . « متى رأيتنـى من قبل ؟ ». لم يكن قـد رآنى من قبـل غير مرات ثلاث ، رغـم أنه كثيرا مـا كان يمر بـالليل فى الشارع ليرى إن كان مسكنى مايزال مضاءً . واخذت ألعن نفسى . كل هذا كان ظلما واجحافا ، فأنا لم أكن قد فعلت شيئا استحق عليه هذه العاطفة المشبوبة .

« أخيرا جاء الإنقاذ ، فقد رن الهاتف . وانتفض هو من رأسه إلى أخ أخمص قدمه ، ككلـب صيد، عندما سمـع بحة الصوت التى لا تخطئهـا الأذن ، صوت المرأة التى اعتقد أنه قتلها . قالت أنه لم يبلغ مسامعها مايثير الكدر : أنها ونسيم فى طريقهما للعودة ، الآن ، إلى المنزل . وأن كـل شىء يسير كما يجب فى بيت آل سيرفونى . وأن الحفلة الراقصة قائمـة على قدم وساق . وعندما قلت لها ، طبت مساءً ، أحسست بنـاروز يقبض على خفى ويقبله ممتنا . وأخذ يكـرر مرة بعد الأخرى ، « شكرا لك ، شكرا لك» .

« قلت له ، « هيا انهض ، فقد حان وقت عودتك إلى دارك » . كنت متعبة غاية التعب ، فنصحته بان يعود مباشرة إلى منزله دون البوح بقصته لأى امرئ كان

. قلت لـه ، « ربما تخيلت القصة كلهـا » . فابتسم ابتسامـة مرهقة وإن كـانت متألقة .

« سار أمامى بطيئـا متثاقلا يهبط السلم ، وهو مـايزال ، كما كان واضحا ، متأثرا بـالتجربة التى مر بها ، وإن كـانت الهيستيريا قد فارقتـه . فتحت الباب الأمامى للمنـزل ، حاول هو ، مرة أخرى التعبير عـن امتنانه وعواطفـه بطريقة مفككة ـ أمسك بيدىّ وأخذ يقبلهما ، مرارا وتكرارا ، قبلات عنيفة مبللة يكسوها الشعر . أف ! مـا أزال أحس بها حتـى الآن . ثم قـال قبل أن يبتلعـه الظلام ، فى صوت خفيـض وهو يبتسـم ، « كليا ، هـذا أسعد يـوم فى حياتـى ، فقد رأيتـك وحجرتك الصغيرة ولمستك » .

رشفت كليـا شرابها وهى تومـئ برأسها وابتسامـة حزينة تغطـى وجهها . قالت ، « أف ! . يالهذه القبلات » . وأخذت تمسـح يديها بطريقة لا إرادية ، وقد اتجه باطن كفيها إلى أعلى وقد وضعتهما على النسيـج الأحمر لتكأ المعقد ، كأنها تحاول إزالة أثر تلك القبلات مرة وإلى الأبد ، تحاول أن تمحو ذكراها .

أخذت الفـرقة الموسيقيـة فى عزف رقصة بـول جونـس (ولعلها هـى نفس الرقصة التى التقت فيها جوستين بأرناؤوطى لأول مرة) .بدأت الوجوه الدافئة المضيئة تنتشر ، مرة أخرى ، فى القاعة خارجـة من قلب الظلام . تألقت الأجساد والثياب والجواهر فى بهو الرقص الواسع الشاحب ، حيث تعكس أشجار النخيل صورها كشظايا فى المرايا المرتجفة . أخـذت كل تلك الأشياء تتسرب عبر النوافذ إلى حيـث ضيـاء القمر يقبـع صـابـرا فى الحدائق العـامة المهجـورة والطـرق الرئيسية، ويثير كدر مياه الميناء الخارجى بإيماءاته الفاترة المتلألئة . قالت كليا، « هيا ، لماذا لاتشارك فى مثل تلك الأمور ؟ لماذا تفضل الجلوس جانبا ، تتفحصنا جميعا » .

لكننى كنـت أفكر وأنا أراقب دائرة الـوجوه الجميلة البهية وهـى تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف وسـط تألق الجواهر وحفيـف الحرائر ، أفكر فى السكندريين الذين لايعنـى بالنسبة لهم مثل ذلك التنـوع الهائل فى الخبرة ، الا مجرد إضافة إلى مجمل معرفتهم اللانهائية المقترنة بهمـوم دنياهم . درنا ، ودرنا حول حلبة الرقص ، النساء يتبعـن ، دون وعى منهن ، حركة النجوم وحـركة الأرض وهى

تسبح مائلة فى الفضاء . فجأة حل الصمت ، كإعلان حرب . أو إنطلاق وليد من رحم . صاح صوت ، « فليأخذ كل منكم رفيقة رقصته ، لو سمحتم ». اختلجت الأضواء فى لون أرجوانى ، وبدأت رقصة الفالس . لمحت للحظة ، نسيم وجوستين يرقصان ، عن بعد ، معا ، وعيناهما تتبادلان الابتسامات ، ويدها الرشيقة فوق كتفه وهى ماتزال تلبس ذلك الخاتم الكبير الذى أخذ من قبر شاب بيزنطى ، فالحياة قصيرة ، لكن الفن مديد .

كان والد كليا يراقصها منتصب القامة سعيدا ، دقيقا ، منتظما ، يقبل اليد الموهوبة التى سقطت عليها قبلات نارووز المنبوذة فى تلك الليلة المنسية . إن الابنة أقرب إلى قلب أبيها من زوجته .

ويكتب بورسواردن « فى البداية نسعى كى نملأ بالحب فراغ ذواتنا ونستمتع لحظة قصيرة بوهم الكمال . لكن ذلك ليس إلا وهما . حيث أن هذا المخلوق الغريب الذى اعتقدنا أنه سيصلنا بجسد العالم ، قد نجح فى النهاية ، فى فصلنا عنه فصلا تاما . الحب يصل ثم يفرق وإلا فكيف لنا أن ننمو ؟ » .

هل هناك ، حقا ، بديل ؟ أحسست بالراحة أن وجدت نفسى بمفردى مرة أخرى ، فتلمست طريقى عائدا إلى ركنى المظلم حيث مقاعد الطرب والعربدة خالية ، كسنابل قمح خاوية .

ـ١٤ـ

تسلمت من كليا خطابا فى أوائل الصيف يحسن أن اختتم به هذه الذكريات الوجيزة عن الاسكندرية . لم أكن أتوقع هذه الرسالة .

طشقند ـ سوريا

«وصلنى خطابك الذى لم أكن أتوقعه أبدا ، بعد صمت خشيت أن يطول مدى الحياة . لقد تبعنى خطابك من إيران إلى هذا المنزل الصغير الذى حط عاليا فوق منحدر تل تحوطه أشجار الأرز والصنوبر . لقد استأجرته لشهور قليلة لأجرب يدى وفرشاتى وهى تعمل فى رسم هذه الجبال الغريبة ـ الصخور هنا تتفجر بالمياه العذبة وورود البحر المتوسط . القمرى يهدل بالنهار والعندليب يشدو بالليل ، حيث الراحة بعد العناء . كم مضى على فراقنا ؟ آه يا صديقى العزيز .لماذا انتابتنى قشعريرة وأنا أفتح مظروف الخطاب لماذا ؟ لقد خشيت أن يشدنى ماستقوله من شعرى إلى الوراء . إلى الأماكن والمشاهد القديمة والتى طال هجرانها ، المحطات والمواضع التى تنتمى إلى كليا السكندرية التى عرفتها أنت ، والتى لم تعد تنتمى بالتمام ، لى ، على أى حال من الأحوال ، لقد تغيرت ـ وامرأة جديدة ، فنانة بالقطع، أخذت تنبثق منى ، وإن كانت ماتزال رقيقة حيية، بعض الشىء ، كقرنى قوقع ـ إلا أنها جديدة ، على أى حال . إن عالما كاملا جديدا من الخبرة والتجربة ، يقف بيننا . كيف يمكن لك أن تتعرف على كل هذا ؟ ربما وأنت تكتب لىّ الآن ، تكتب إلى كليا القديمة . ولكن ما الذى لدى أنا لأقوله ردا على كلماتك ؟ لقد توقفت عن قراءة خطابك حتى حل المساء . لقد مسنى مسا شديدا ، ولذا وجب علىّ أن أرد عليك : وإليك خطابى الذى كتبته فى أوقات غريبة بين فترات الرسم أوفى الليل عندما أشعل الموقد واعد عشائى . يطيب لىّ اليوم أن أبدأ الكتابة والسماء ممطرة ـ وسفح الجبل غارق فى سكون الأمطار وخرير الينابيع الزاخرة ، والأشجار تموج بالقواقع العملاقة .

« لقد أثار بلتـازار ، إذن قلقك بمعلوماته الجديدة المزعجـة ؟ إننى لست على يقين من موافقتى على ذلك ، ربما كان ذلك مفيدا لك ، لكنه ليس ، بالقطع ، مفيدا لكتابك أو كتبك التى يجب ، كما أعتقد ، أن تضعنا جميعا فيها ، فى وضع خاص بالنسبة للحقيقة . أقصد كشخوص فى رواية أكثر منا بشرا . ألا ترى ذلك ؟ أنت تسألنى ، لماذا لم أخبرك بعشر الأشيـاء التى تعرفها الآن ؟ إن المرء لا يفعـل ذلك أبدا ، وأنت تعرف أن المرء لايفعل ذلك أبدا . إن المرء الشـاهد الواقف عند مسافة متساوية من صديقين أو عاشقين ، تدفعه الصـداقة إلى التوسط أو التدخل ـ إلا أنه لايفعـل ذلك أبـدا . وهذا عين الصـواب . كيف كـان فى وسعى أن أخبرك بما أعرفه عن جوستين ـ أو ما شعرت بـه من اهمالك لميليسا ؟ لقد حال بينى وبين ذلك ما كنت أحسه من تعاطف واسع نحـو ثلاثتكم . أما الحب فهو كائن شديد التناقض ، يرضيه غاية الرضا أن لايتبدل كثيرا ، إن تدخلت الحقائق من خارجه . إننى لعلى يقين ، لـو حللت مشاعرك ، لـوجدت أنك تحب جـوستين أكثر لأنها خانتك ! العاهرة ، كما أخبرتك ذات يوم ، هى حبيبـة الرجل الحقيقية . لقد ولدنا لنحب هؤلاء الذيـن يصيبوننا بالجراح أكثر من غيرهم . هـل أنا مخطئة فى ذلك بالإضافة إلى أن مشاعرى نحوك كانت كامنة هناك فى ركن آخر . كنت أغار منك ككاتب ، وككاتب أيضا كنت أبتغيك لنفسى واحتفظ بك .هل ترى ما أعنى ؟

« ليس لدىّ مـا أقدمه عونـا لك ـ أعنى عونـا لكتابك ، وعليك أن تتجـاهل ما أمدك به بلتازار مـن معلومات بطريقة شريرة ، أو أن « تعيـد صياغة الحقيقة » كما فعلت .

« تقول أنك لم تكن منصفا مع بورسـواردن ، وهذا حق . إلا أنه ليس هاما ، فهو لم يكن ، بالمثل ، منصفا معك . لقد التقت أيديكما ككاتبين ، عندى ، لم يكن أيا منكما يدرى بذلك . ان أسفى الـوحيد أنه لم يعمل على إنهاء المجلد الأخير من كتابـه « الإله المرح » ، كما كان مخططا لـه . إنها خسارة ـ رغم أنها لاتقلـل من قدر إنجازه ، وأظـن انك ستبلغ قريبا نفـس الدرجة التى كـان عليها فى امتلاك ذاته ـ ربما مـن خلال مدينتنا الملعونـة ، الإسكندرية ، والتى ننتمـى إليها أشد الانتماء ، فى ذات الوقت الذى نكرهها فيه أشد الكراهية . وبهذه المناسبة تسلمت خطابـا من بـورسواردن حـول المجلد المفقـود والذى حملتـه معى لـدهور بين أوراقى كتعويذة أو تميمة . إنه لايعاوننـى فقط على انعاش ذكرى الرجل ذاته ،

بل هـو ينعشنى أيضـا عندما يصيبنـى الإحباط بسبـب عملى الفنى (يجب أن أذهب الآن إلى القـرية لأشترى بيضـا . سوف أقوم الليلـة بنسخ هـذا الخطاب اليك) .

« أخيرا ، ها هو الخطاب الذى حدثتك عنـه . إنه فظ وعابس إن شئت القول ، إلا أنه رغم كل شـىء يعبر تعبيرا صادقا عن صديقنا . لا تأخذ مـلاحظاته عنك مأخذ الجد ، فقد كان معجبا بك ، مؤمنا بك ـ لقد أخبرنى بهذا ذات مرة ، وربما كان يكذب ، على أى حال .

ماونت فولتور أوتيل [1]

الإسكندرية

عزيزتى كليا

كان عثورى على خطابك ، فى انتظارى ، مفاجأة لى ومدعاة لسرورى . شكرا لك إيتها القارئة المتـأنية ـ لا للتقريع أو المديح (فـالمرء ينكمش ، بنفس القدر ، أمام كليهما) . ولكن لأنك هناك تكرسين ذاتـك وتر اقبين . أنت قارئة حقيقية لما بين السطور ، حيـث توجد كـل الكتابات المعنيـة . لقد حضرت لتوى ، سـاخن الخطى ، من مقهى الأقطار ، بعد أن استمعت إلى نقاش طويل شارك فيه الرجل العجوز « محدد الملامح » وكيتـس وبومبال . لقد تحدثوا وكأن كـل رواية ليس لها مذاقها الخاص . كـان حديث بومبال حـديثا فارغا بلا معنـى ، حيث تناول «النساء » بطريقـة معممة ، وكأنهن جنس مـا ، باعتبار أن العلاقـات العائلية ، رغم كـل شىء ، ليست هـى المسألة التـى تهم حقيقة . حسنا . قـال العجوز « محدد الملامح » أن الخلاص والخطيئة الفطرية هما الموضوعان الجديدان لكتاب اليوم... أف ! لقد وليت الأدبار وأنا أحس أننـى كاتب اليوم السابق على الأمس ، ولست كاتب اليوم ، كما كنت عازفا عن المشاركة فى هذا الخلطة الموحلة .،

« إننى لعلى يقين أن العجـوز «محدد الملامح » سـوف يكتب روايـة طريفـة حول الخطيئـة الفطرية ، ويحقـق ماكنـت أسميه دوما ، وعلى نحـو شخصى ، بامتصـاص ـ بيـض التقديـر والإعجاب (أى عـدم القدرة على تحقيـق النجاح والفلاح) . لقد كنـت ، حقيقة ، فى حالة من اليـأس الشديد عندمـا خطرت ببالى

---

(١) فندق جبل النسور

فكرة شهرتة القادمة ، حتى أنى فكرت فى ضرورة التوجه مباشرة إلى إحدى المواخير حتى اكفر عن شعورى بالخطيئة المتعمدة ، إلا أن الوقت كان مبكرا ، كما كنت أحس بأنى أفوح عرقا ، حيث كان اليوم حارا . لذا عدت إلى الفندق حتى آخذ دشا واستبدل قميصى ، وهنا عثرت على خطابك . كانت هنالك بقية من شراب الجن فى الزجاجة . وحيث لم أكن أعرف أين سأكون فيما بعد ، فقد فكرت فى الجلوس مباشرة والكتابة إليك بأفضل ما أستطيع حتى تحين السادسة ، ساعة أن تفتح المواخير .

« إن الأسئلة التى توجهت بها إلىّ يا عزيزتى كليا ، هى نفس الأسئلة التى أوجهها أنا إلى نفسى ، يجب أن أجعلها أكثر وضوحا قبل أن أبدأ فى إعداد الكتاب الأخير ، الذى أود ، قبل كل شىء ، أن أربط فيه وأفسر وأنسق بين كل ماظهر أو ابتدع من حالات الشد والجذب . إننى أحس برغبتى فى أن يكون لما أكتب صدى التأكد واليقين ـ وأن كنت لا أعنى أن يكون ذلك عن طريق مصطلحات فلسفية أو دينية معينة . يجب أن يكون ذلك فى المنحى الذى تحتويه الكتابة وتعبر عنه سلوكيات المجبين الصامتة . يجب أن أنقل للقارئ إحساسا بأن العالم الذى نعيش فيه ، إنما يقوم على شىء أبسط من أن يوصف بأنه قانون كونى . إنه يقوم على الإدراك والفهم البسيط ، ، كتصرف يتسم بالرقة ، الرقة البسيطة التى تتجسد فى العلاقات البدائية بين الحيوان والنبات ، بين المطر والتربة ، بين البذور والأشجار ، بين الإنسان والله . علاقة رقيقة ، حتى أنها تتحطم ببساطة شديدة بفعل عقل يبحث ويستقصى ، كذا بفعل الضمير بالمعنى الفرنسى ، والذى له ، بالطبع ، حقوقه الخاصة ومجاله الخاص للأنتشار والامتداد . اننى احب التفكير فى عملى وكأنه ، فى بساطة ، مهد طفل تهدهد فيه الفلسفة نفسها لتنام وإبهامها فى فمها . مارأيك فى هذا ؟ إن ذلك ، على أى حال ، ليس أقصى ما نحتاجه فى هذا العالم ، لكنه يصف ، فى الحقيقة ، حالة الأوضاع المجردة التى تجرى فى العالم . إلزمى الصمت برهة ولسوف تشعرين باستيعاب هذه البادرة من الرقة والحنان ـــ لا القوة والصولجان ، ولا بالرحمة قطعا ويقينا ، فتلك الصفة نابعة من سوقية العقل اليهودى الذى لايستطيع أن يتخيل الإنسان إلا قابعا تحت السياط . كلا ، إن الرقة التى أعنيها رقة خالية من الرحمة تماما !

إنها « قانون قائم بذاته » ، كما نقـول . بالطبع ، يجب أن يتذكر المرء ، دوما ، أن الحقيقة ذاتها تنشطـر إلى اثنين عند تداولها ومـع ذلك يجب أن أصر فى كتـابى الأخير على أن هنالـك أمل فى الإنســان ، هنالـك مجال واسع أمـام الإنسان ، فى حدود قـانون بسيـط . إننى ، كما اعتقـد ، أرى الجنس البشرى يفـرز لنفسه ، بالتـدريج ، المعرفـة الضرورية ، من خـلال مجرد الانتباه والإلتفات لما حـوله ، وليس عن طـريق الذهن والعقـل ، مما قد يمكنه يـوما من الحياة فى إطـار فكرة تحوى المعنى الحقيقى « للبهجة التى لاتحدها حدود ». وكيف يمكن للبهجة أن تكون أى شىء آخر ؟ إن هـذا الكائن الجديد الذى نبحث عنه لـن يحيا ، طويلا مثـل الزمـن ، لكنه إلى زوال . اللعنـة . إنـه لصعب على المرء أن يقـول مثل تلـك الأشياء ، ربما يكمن مفتاح تلك المسألة فى الضحك ، فى « الإله المرح»؟ ومع ذلك ، فإن الذين لايحبون الفكاهة هم الذين يعكرون صفو سلام القلب بأعمالهم التى تثير السخرية ـ مثل جوستين (انتظرى . يجب أن أعد لنفسى كأسا من الجن).

« إننى أعتقد ، أنه من الأفضل لنا أن نديـر ظهورنا بوضوح للكلمات الرنانة مثل « الجمال » و « الحقيقـة » وما إلى ذلـك . هل تريـن ما أرى ؟ إننـا سخفاء للغاية ، وضعاف العقول عندما نتناول أمـور الحياة ، لكننا عمالقة عندما نحكم على الكون . إننـى اعانى مثلك مـن مشكلتين متداخلتين : إنهما فنى وحيـاتى . إننى أعيـش الآن حياتـى متدنيا حـائرا ، إلى حدمـا . لكننى أمـارس ، فى فنى ، حريتى كـى أكون الشخص الذى أود أن أكونـه تماما ـ إنسانـا يمكن أن يبعث بالعزم والتوافق فى النفوس التى تموت من حوله . إننى بفنى حقيقة ، ومن خلال هذا الفن أبغى أن أحقق ذاتى ، وأطرح عـن نفسى العمل الذى لا أهمية له ، كما تطرح الحية جلـدها عن نفسـها . ربما كان ذلـك هو السبب الذى مـن أجله يود الفنـانون ، مـن أعماقهم ، أن يكـونوا محبـوبين لأعمالهم أكثر مـن أن يكونـوا محبوبين لذواتهم ـــ هل ترين مـا أرى ؟ ؟ إلا أن هذا يقتضى طرازا جـديدا من المرأة أيضا . أين هى ؟

« تلك ، ياعزيزتى كليا ، هى بعض مما يثيره صديقك العالم بكل شىء ، بكل إرباك وتشـويش . صـديقك ذو الـرأس الكلاسيكية والقلـب الرومـانسى : لـودفيج بورسواردن » .

« أف ! لقد تـأخر الوقت ، وأوشـك زيت المصباح على النضوب ـــ لا بد لى أن أتوقف عـن كتابة الخطاب هـذا المساء . ربما باكرا ، إن غـدوت فى مزاج أفضل ، بعد أن أتسوق ما أحتاج إليه ، أكتب لك المزيد . وإن لم أكن كذلك فلن أكتب ، ألم يكن من الأفضل ، أيها الممتلئ حكمة ، أن نتبادل الحديث ؟ إننى أحس أن أحاديثا كاملة مكدسة فى أعماقى ، تقبع هناك دون أن يستخدمها أحد ! أظن أن تلك هى الحقيقة الوحيدة التى ربما يعى المرء افتقادها وهو يعيش وحيدا ، قوة الوساطة التى تحملها أفكـار صديق من الأصدقـاء ، عندما توضع إلى جـانب أفكار المرء الخاصة ليرى مدى توافقهما ! إن من يعيش وحيدا يغدو مستبداً بطبعه ، يطلق أحكامه المطلقـة فى كل ما يخص طبائع الأمـور ، وربما كان هذا ضارا بـالعمل الذى ينجزه . لكننا ، هنا ، صنوان ، على الأقل متماثلان ، أنت فى جزيرتك ـ التى هى مجرد نوع من الإستعارة أشبه بفرن ديكارت ، أليس كذلك ؟ وأنا فى كوخى، الأشبه بأكواخ قصص الجان بين الجبال .

« لقد ظهـر فى الأسبوع الماضى رجل بين الأشجـار . هو رسام أيضـا . أخذ قلبى يدق سريعـا بطريقة غير عادية . أحسسـت باستعداد مفاجـئ للوقوع فى الحب . عندما أعملت عقلى فيما أحسست ، افترضت ، « أنه إذا أوغل إمرئ بعيدا عن العالم . ثم وجد انسانا آخر فى المكان الذى بلغه ، أفلا يكون هذا الإنسان هو الذى قدر لـه أن يشاركه خلوته وعزلتـه ، وأنه قد استدعى إلى هـذا المكان بعينه بالقوة غير المرئية لشوق إنكار الـذات وحنينه ليكون النصيب المحدد المخصص لهذا الإنسان ؟» . إن القلـب يقدم على حيل ، هـى أو هام ذاتية خطـرة ، تعذبها دوما رغبة المرء فى أن يكون محبوبا ! لقـد ادعى بلتازار ، ذات مرة ، أنه فى وسعه أن يغـرى اثنين بالحب ، بـإجـراء تجربة محكـومـة ، عن طـريـق فعل يتسـم بالبسـاطة : إنه سيخبر كـل من هذين الإثنين اللـذين لم يلتقيا أبـدا ، أن الآخر يتحرق شوقا إلى لقياه ، وهو لم ير فى حياتـه من هو أشد منه جاذبية ، وهكذا . ان هذه ، كما يدعى ، وسيلة مؤكدة لـوقوع كل منهما فى حب الآخر . وهى دوما تحقق الغرض . ماذا ترى فى ذلك ؟

« أنقذتنى هواجسى ، على أى حال ، من الشـاب الرسام الذى كان ، كما أقر واعترف ، وسيما ،ذكيا للغاية. كان فى وسعه أن يقـدم لى معروفا كعاشق ، ربما

مدة صيف واحد . إلا أننى عندما رأيت رسومه ، أحسست بروحى تتقوى وتنقلب وتعود إلى انفصالها مرة أخرى . لقد تعرفت من خلالها على شخصيته كاملة . قرأتها كما يقرأ المرء مخطوطا أو سمات وجه ما . رأيت وهن القلب وافتقار العواطف ، وقدرة على إيقاع الضر والأذى . لذا قلت للحال ، وداعا . وظل الشاب المسكين يكرر متسائلا ،« هل أتيت ما أساء إليك ؟ هل قلت ماضايقك ؟» بماذا كان فى وسعى أن أجيب - إذ لم يكن هنالك مايستطيع فعله غير إخراج الإساءة إلى حيز الوجود ، أن يرسمها . إلا أن ذلك كان يقتضى منه أن يعى وجودها هى بذاتها فى اعماقه هو بذاته .

«عدت إلى كوخى . أغلقت علىّ بابه وأنا أحس براحة حقيقية . جاء ، عندما انتصف الليل ، إلى الباب يدقة ، إلا أننى صرخت فيه ، « اذهب بعيدا » . فأمتثل وعاد من حيث أتى . وقد رأيته هذا الصباح يغادر فى سيارة الركاب ، إلا أننى لم أفعل شيئا ، ولم ألوح له بيدى وداعا . ووجدت نفسى أصفر سعيدة . كلا ، كنت أكاد أرقص وأنا أسير ، عبر الغابة ، إلى المدينة لاشترى حاجياتى . كم هو رائع أن يتغلب المرء على خداع قلبه وغدره . عدت إلى المنزل ، وما أن اجتزت بابه حتى أمسكت بالفرشاة ، وأخذت فى رسم لوحة كانت فكرتها تسيطر علىّ منذ قرابة شهر . كانت كل الوسائل واضحة ، وكل العلاقات فى متناولى . واختفت تلك العقبة الكؤود الغامضة التى كانت تعيقنى . من ذا الذى يستطيع إنكار أن ماحدث لى ، إنما يعود إلى صديقنا الرسام ، وعلاقة الحب التى لم أنلها ؟ اننى مازلت ادندن لحنا وأنا أكتب إليك هذه الكلمات ...

« إننى أتساءل ، وقد أعدت ، فيما بعد ، قراءة رسالتك : لما تتناول موت بورسواردان على هذا النحو ؟ إن هذا الأمر يحيرنى . فالتناول ، على هذا النحو ، يتسم بالسوقية . أعنى يقينا ، أنه ليس من اختصاصى أو اختصاصك أن نصدر حكما صريحا فى هذه المسألة . إن كل ما نستطيع قوله ، هو أن فنه قد تجاوز الحواجز . أما ما بقى ، فأعتقد أنها أمور تخصه شخصيا . يجب ألا تحترم فقط خصوصيته فى تلك الأمور ، بل علينا أن نعاونه فى الدفاع عنها ضد عدم إدراك هذه الحقيقة . هنالك ، رغم كل شىء ، أسراره الخاصة به ، والتى لم نر منها بالفعل غير القناع البشرى الذى يرتديه الفنان (كما فى شخصية بار

العجوز ، الشهواني البائس . في الجزء الثاني من كتابه ، والذي تحول في النهاية إلى الفنان الذي رسم لوحة العشاء الأخير والتي أثارت كثيرا من الجدل . هل تتذكر ؟) .

« لقد حمل بورسواردن ، بنفس الأسلوب ، وإلى حد كبير ، سر حياته اليومي ، إلى القبر معه . وتركنا مع كتبه فقط ، لتثير دهشتنا . وتلك العبارة المحفورة على قبره لتثير حيرتنا : (هنا يرقد دخيل من الشرق) .

« كلا ، كلا ، إن موت الفنان أمر لايمكن الخوض فيه . فقط ، على المرء أن يبتسم وأن ينحني .

« أما عن سكوبي ، فأنت محق فيما قلت . فلقد انزعجت أشد الإنزعاج عندما أخبرني بلتازار أنه سقط على سلالم قسم الشرطة المركزي ، فقتل . نعم ، لقد أخذت ببغاءه ، الذي ظل بالمناسبة مسكونا بروح الرجل العجوز ، فيما بعد ، ردحا طويلا من الزمن . كان يقلد ، في وفاء حقيقي ، الطريقة التي يستيقظ بها في الصباح ، ويغني ذلك المقطع من أغنية :« أصمت أيها القرد الصغير » (*) . (هل تتذكر ؟) . بل حاول أن يقلد صوت طقطقة عظامه المقبض ، عندما يغادر فراشة ، لكن الوهن أصاب ذاكرته بالتدريج ، فغدت أشبه بأسطوانة قديمة ، وقل أداؤه وأخذ يتخلل صوته ضعف في ثقته بنفسه وهو يقلده . كان أشبه بسكوبي نفسه ، يموت في بطء شديد وفي صمت : إن هذه هي الكيفية ، على ما أعتقد التي يموت بها المرء بالنسبة لأصدقائه والعالم . يبلى كلحن رقصة عتيقة ، أو حديث مشهود مع فيلسوف تحت شجرة كرز . إنه يوفي ما عليه في صمت . وأخذ الطائر ، في النهاية ، يتدهور حتى مات ورأسه تحت جناحه . حزنت عليه غاية الحزن ، وإن كنت سعدت أيضا غاية السعادة .

« إن المشكلة ، بالنسبة لنا نحن الأحياء ، لها طراز مختلف تمام الاختلاف ، إنها كيف نمتلك ناصية الزمن لننمي نمطا خاصا بالقلب ـ شيء ما من هذا القبيل . انني أحاول ، فقط ، التعبير عما يجول بخاطري ، ليس إرغاما للزمن ، كما يفعل الضعفاء ، مما يقود إلى الاضرار بالذات وتثبيط العزائم ، ولكن بإمتلاك ناصيةايقاعاته ووضعها في خدمة مايعود علينا بالنفع . لقد اعتاد

(*) بالفرنسية في الأصل .

بورسواردن أن يقول . « أيها الرب ، اعطنا نحـن الفنانين العزم واللباقة» . وأنا أصدق من أعماقى على هذا القول ، وأقول آمين .

« لابد أنك تعتقد الآن ، أننى قد غدوت عجوزا سليطة ، صلبة الرأى ، عنيدة . ربما أكون . ولكـن ما أهميـة ذلك ، مـادام كون المرء هكـذا يزوده بـالقدرة على استنباط فكرة تستخرج من ذاته ؟

« بقى من الوقت قليل . إننى أحس بنسمة خريفية هذه الأيام . والأخبار التى ترد من أوروبا تزداد سوءا كل يوم ـ وكأنها فى طريقها للاستقرار إلى مستقبل لايمكن التكهن به . وأحس ، جنبا إلى جنب ، مع هذا الشعور ، بأن الخيوط تشتد حول معا صمنا . تشـدنا فى بطء لنعود ، من جديـد ، إلى قلب المسرح . وإلى أين يمكن أن يكون هذا الجذب إلا إلى الإسكندرية ؟ لكننا ربما نجدها مدينة جديدة ، مـختلفة عن تلك التـى فرضت نفسـها ، طويلا ، على أحـلامنا . اننى أود الاعتقاد بأن الإسكندرية القـديمة ، وكل مارمزت إليه ، إن لم يكن قـد مات ، فقد صار ، على الأقل ، بلامعنى بالنسبة للشـخص الـذى أحس أنى قد غدوته . ربما تغيرت أنت أيضا بالمثل . وربما يكون كتابـك قد تغير أيضا . أو ربما تكون أنت ، أكثر من أى واحد منا ، فى حاجة إلى رؤية المدينة مرة أخرى ، فى حاجة إلى رؤيتنا مرة أخرى . إننا ، من جانبنا ، فى حاجة شـديدة إلى رؤيتك أنت مرة أخرى ، وانعاش الصداقة التى نأمل أن تدوم عند الطـرف الآخر من الكتاب المؤلف ـ إن كان حقا فى وسع الكاتب أن يكون صديقا « لشخصياته » .إننى أقول« نحن » ، وأنا أكتب بالأسلوب الإمبراطـورى وكأنى ملكة ، لكنـك ستخمن أننى اعنى ، فى بسـاطة ، كليا القديمة وكليا الجديدة ـ فكلتاهما فى حاجة إليك فى المستقبل الذى... »

تم بضعة سطور أخرى وكلمات تفيض ودًا .

متتاليـات

كتب كيتس هذه الملاحظات بالاختـزال مسجلا بعض مقولات بورسواردن المتناثرة.

(أ)

« أعرف أن نثرى له مـذاق حلوى البرقوق المطبوخة ، لكن ذلـك هو حال كل النثر الذى ينتمى إلى التواصل الشعـرى ، والذى يقصد به تجسيد الشخصية . كما أن الأحـداث لاتتابـع ، لكنها تتجمـع هنا وهنـاك ، كمقاديـر من الأشيـاء ، كالحياة الحقيقية» .

(ب)

« ليـس لنسيم المنـابع التـى لنـا نحن الانجلـو سـاكسون ، فكـل نسائنـا ممـرضـات فى أعماقهـن . ان على المرء ، حتـى يضمـن ولاء المرأة الأنجلـو ساكسونيـة، طوال العمر ، أن يقطع رجليه إلى ما فـوق خصره . لقد فكرت ، على الدوام ، فى ليدى شاترلى وضعفها كرمز ، عند الحديث عن وجهة النظر هذه . فما كان يمكن لأى شـىء أن يُكسب كليفورد ولاء زوجته له أكثر مـن مرضه . ربما لايهتم الأنجلو ساكسون بـالحب قدر إهتمام الأوروبيين الآخرين به ، إلا أنهم يصابون بنفـس الأمراض التى يمرضون بها . لقد كـان لافورج يخاطب ، على وجه التخصيص حبيبته الإنجليزية كيـت عندما صرخ ، « إنها ممر ضة حبا فى الفن (*). وذلك عندما اكتشف المرضة التى فى أعماقها ».

(جـ)

« إن الكلاسيكى فى الفن ، هو مايجارى ، عن عمد ، كونية العصر » .

(د)

« يجب مقاومـة ماتفرضه الـدولة ، من عقيـدة دينية أو ميتافيزيقيـا ، بحد السيف إن لزم الأمر . يجب أن نقـاتل من أجل التنوع ، إن كان علينـا أن نقاتل . إن التماثل النمطى كئيب كآبة بيضة منحوتة »

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(هـ)

وعن دا كابو ، « يلعب المقامرون والعشاق ، حقا ، كى يخسروا » .

(و)

« الفن كالحياة ، سر مفتوح » .

(ز)

« العلم هو شعر العقل ، والشعر هو علم علل القلب » .

(ح)

« الحقيقة مستقلة عن الواقع ، لاتبالى بدحضها . لقد غدت ، بالفعل ، مجردة ساعة النطق بها » .

(ط)

« إننى أحب الطبعة الفرنسية ، حيث تترك صفحات الكتاب دون قصها . إننى لا أحب قارئا أكسل من أن يستخدم السكين معى » .

(ى)

جاء فى ديوان شعر ، « أنه يمكن للمرء أن يتناوله من حين لحين ، كلما احتاجه . ثم يسمح له بالذوبان فى عقله » .

(ك)

« يجب أن ندافع ، دوما ، عن أفلاطون فى مواجهة أرسطو ، والعكس صحيح . إنهما إن أفتقدا التماس معا ، هلكنا لامحالة . إن ثنائية النفس قد أوجدت كليهما»

(ل)

« لقد أضفنا نحن المحدثين ، إلى صورة عالم القرون الوسطى ، والتى تتكون من العالم والجسد والشيطان (والذى يستحق كل منها كتابا) ، بعدا رابعا ، هو الزمن » .

(م)

« جهاز جديد للنقد : الرواية البفتيك ،أو الأراجوز أو الصرصار » (*).

(ن)

« إن أطلال أوروبا الحقيقية ، هى رجالها العظام » .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

(س)

« لقد آمنت ، دوما ، بأن أترك قارئى يغرق أو يطفو كالرغوة » .

(ع)

عند قرأ تقريظا طويلا عن « الإله المرح » ، قال . « يا إلهى الطيب . لقد بدأوا ، أخيرا ، يأخـذوننى مأخذ الجد . إن هـذا يضـع على عاتقى عبئـا رهيبا . يجب أن أضاعف ضـحكى » .

(ف)

« لماذا أقتبس على الدوام عبارات مختارة من دى ســاد ؟ لأنه يثبت العقلانية الخالصة ، لأزمان الإدراك الخلابة التى عشناهـا عبر أوروبا منذ ديكارت . إنه الزهـرة الأخيرة للرشاد ، والنموذج الحقيقـى للسلوك الأوروبى . إننـى آمل أن أعيش حتى أراه مترجما للصينية . إن كتبه سوف تقـوض البيت وتقرأ كدعاية خالصة . إن روحه قد قوضت البيت ، بالفعل ، من حولنا » .

(ص)

« أوروبا : محاولة منطقية إيجابية كى يثبت لذاته أنه موجود عبر الاستدلال المنطقى » .

(ق)

« أهداف فى رواياتـى أن استنطق القيم الإنسانية عبر تقديـم امين للعواطف الإنسانية . أنها نهاية مرغوبة ، إلا أنها ربما تكون هدفا بلا أمل » .

(ر)

« إن نقادى الأكثر قسـوة يزعمون أننى أصنـع أغطية المصابيح مـن الجلد البشرى . وهذا أمر يثير حيرتى . ربما مايزال فى أعماق النفس الأنجلوساكسونية صوت صغير يهمس إلى الأبد ، « هـل هذا عمل متقن تمام الإتقان ؟ ». ويبدو أن كتبى لاتنجح على الإطلاق فى الامتحان »

(*) بالفرنسية فى الأصل .

نقـــاط مؤثـرة

تساءلـت كليا ، « كم عـدد العشاق الذيـن استطاعوا ، منـذ بيجماليون ، أن يصيغوا وجه معشوقتهم من اللحـم ، كما فعل أماريل ؟ » . إن العدد الهائل من الأنوف التى نسخت له رسومها ، بحب عميـق ، كى يختار منها ، منذ نفرتيتى حتى كليوباترا ، قد اطلع عليها فى غرفة معتمة .

* * *

لقد احتفـظ ناروز دوما ، فى مؤخـرة ضميرة ، بذكرى حجرة يضيئهـا نور القمر ، وقـد جلس والده على الكرســى ذى العجلات أمام المرآة ، يكرر مـرة بعد أخرى جملة واحدة ، بينما صوب مسدسه إلى المرآة .

* * *

سيطر على مـاونت أوليـف وهم خطر ، أنـه غدا الآن حـرا ، يعتقد مـايشاء ويفعل ما يشاء ـ وتلك الخطيئة بذاتها هى التى تقرر مصير الدبلوماسى .

* * *

قـال نسيم فى أســى ، « كل الـدوافع قـد اختلطت . لقـد اختفت ، لحظـة أن تزوجتها ، تلك المرأة اليهودية ، كل التحفظات ، وكفت عنى كل الشكوك . إننى لا أدعى أن ذلك كان هو السبب الوحيد ، فالحب نبـت يتسم بروعة الرفاهية ، لكنه حقيقة غير قابل للتحـديد . إنه ، من ناحية ، يذبل كما فى الـروايات الا سطورية كما أنه عار طموح من الناحية الأخرى .

* * *

إن هـذا قد فسر لى الآن أمـرا حيرنـى من قبـل . لقد نقلـت مكتبـة دا كابـو الضخمة ، بعـد موتـه ، كتابـا إثر كتـاب إلى أزمير . كان بلتـازار هو الـذى قام بحزمها وشحنها .

هذا الكتاب

.. بلتازار هى الرواية الثانية من رباعية الإسكندرية . ملحمه القرن العشرين . والتى تعد واحدة من أهم روايات عصرنا . كان صدورها علامه فارقه فى تاريخ الكتابة الروائية . ثمة رواية قبلها وكتابة روائية جديدة ومدهشة بعدها . لم يكن من الممكن أن توجد ما لم تكتب رباعية الإسكندرية .

وصاحبها : لورانس داريل . قال عنه هنرى ميللر : سيد الأدب الإنجليزى . ويضعه نقاد الأدب فى مكانة : جيمس جويس ومارسيل بروست . بإعتبار أن الثلاثة آباء شرعيين للتجديد الأدبى الذى يعد من سمات هذا القرن .

فى بلتازار يزيح داريل الستار عن أحداث روايته الأولى جوستين ، على لسان بطله بلتازار . فتبدو لنا نفس الوقائع القديمة عبر الرؤية الجديدة، وكأنها قصة أخرى مغايره للأولى ، بل وتفوقها رهافة حسن وإثارة.

أصدرنا من قبل الرواية الأولى : جوستين . وفى المطبعه الآن ، الروايتان، الثالثة والرابعة : ماونت أوليف وكليا ، لنصبح بذلك أول دار نشر عربية تكمل ترجمة ونشر هذا العمل الروائى الفريد . وذلك من خلال ترجمة عربية ترقى إلى مستوى النص الإنجليزى .

الناشر

هيئة المستشارين

أ . إبراهيم فريح	(مدير التحرير)
د . جابر عصفور	
د . حسن الإبراهيم	
أ ـ حلمى التونى	(المستشار الفنى)
د . خلدون النقيب	
د . سعد الدين إبراهيم	(العضو المنتدب)
د . سمير سرحان	
د . عدنان شهاب الدين	
د . محمد نور فرحات	(المستشار القانونى)
أ . يوسف القعيد	

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الابداع المختلفة.

دار سعاد الصباح

ص.ب : ٢٧٢٨٠

الصفاة ١٣١٣٣ ـ الكويت

ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة